

دعوة الحق

مجلة شهرية محكمة تعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة الثامنة والستون - العدد - 450 ذو القعدة 1446هـ / أبريل 2025م

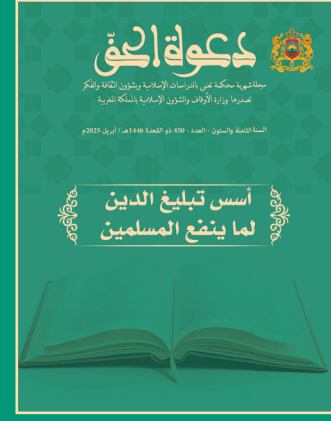


أسسها جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م



”... ولذا سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار
مجلة جامعة تعنى بصفة خاصة بنامية الإصلاح
الذي كما تعالج مختلف الشؤون الاجتماعية
والثقافية، ولذا وهب الأمل في أن يلتقي حولها
دعاة الفكر والثقافة والإصلاح في هذه البلاد
وغيرها لتؤتي مهمتها خير أداء“.
وعسى أن تملح مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاح والتوفيق“
من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957م

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.



مجلة شهرية محكمة تعنى بالدراسات الإسلامية
وشؤون الثقافة والفكر

مدير المجلة

الأستاذ ياسين ححود

رئيس التحرير

الأستاذ عبد الحميد العلمي

العنوان

مديرية الشؤون الإسلامية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني: www.daouatalhaq.ma
البريد الإلكتروني: daawatalhak@mhai.gov.ma

هاتف التحرير

05 59 76 37 05

هاتف مدير المجلة

05 37 76 17 21 / فاكس: 05 37 66 06 74

التوزيع

هاتف وفاكس: 05 37 76 32 10

الحساب البنكي

القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط:
RIB: 225-810-0195092946510102-88

الثلث: 20 درهما

رقم الإيداع القانوني: 1981PE0003
الرقم الدولي: 3085-5330



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده

افتتاحية العدد



بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فمعلوم أن القرآن الكريم أنزل به رب العالمين على نبيه الأمين هدى ورحمة للعالمين، فهو الصراط المستقيم والحق المبين، لقوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾¹.

وبموجب هذا الحق انصرفت همم المحققين، فكان مؤثلاً للقاصدين ومحجة للمهتدين ونبراساً للعلماء العاملين، اقتداء بإمام المبلغين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أمره الله تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتِهِ﴾².

وغير خفي أن مهمة تبليغ الدين موكولة للأنبياء والمرسلين ولمن سار على هديهم من العلماء المتقين، لقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾³.

وبحكم ما ناله الله به مولانا أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس عن الله أمره من واجب حراسة الدين ورعاية مصالح المسلمين، فقد اقتضى نصرة السيد العناية بتلك الحراسة بإحداث مؤسسات وكلت إليهما مهمة التعريف بالقيم الدينية والأحكام التكليفية، ونشد الحياة الصيبة التي تتغياها شريعتنا الإسلامية، وذلك وفق منهم قائم على التعريف بكليات الدين وسلامة التعيين الرصين، وتسديد تبليغه لما ينفع الناس أجمعين، اقتداء بإمام المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

1 سورة الإسراء، الآية: 15.

2 سورة المائدة، الآية: 69.

3 سورة الأحزاب، الآية: 39.

وبإذن من مولانا أمير المؤمنين حفصه الله أعلن معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية عن مشروع تسديد التبليغ، وفوض أمر تنزيله والتعريف به للمجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية الجهوية والمحلية والأئمة والمرشدين والعلماء المهتمين، عسى أن ينفع الله به الناس أجمعين.

لذا تتشرف هيئة تحرير مجلة دعوة الحق أن تخصص هذا العدد لموضوع: «تسديد تبليغ الدين لما ينفع المسلمين» بمشاركة ثلثة من العلماء العاملين والأساتذة الباحثين، والحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير
د. عبد الحميد العلمي

ملف العدد



تسديد التبليغ وتحقيق الرشد في الدين

ذ. سعيد بيهي

رئيس المجلس العلمي المحلي لعمالة مقاطعة
الحي الحسني

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه
وبعد؛ فإن التبليغ بشرط الجودة كفيل بأن يحقق الاهتداء أو يؤسس الاستعداد لقبوله؛ بحيث يتحول
بما يُحرزه من الهداية أو يَهَيِّئُ لها إلى وسيلة ناجعة تُثمر الحياة الطيبة التي بها تتم سعادة الإنسان وطمأنينته.
وقد طرأت على واقع الأمة سياقات متنوعة جعلتنا أمام إشكالية انحراف التبليغ عن مساره الصحيح
بفقدانه مقومات فاعليته في تغيير النفوس نحو الحياة الطيبة، انحراف آثاره بادية بدليل ما نشهده من
مؤشرات صارخة عن رداءة الحياة المسببة لتعاسة الإنسان رغم مظاهر تدينه.

توطئة عن التسديد الرافع لإشكاليات التبليغ

لا يخفى أن الإجابة عن إشكالية انحراف التبليغ عن مساره القاصد؛ يسهم في امتلاك البصيرة
المطلوبة لتقويم اختلالاته في أفق تسديده المُتَشَوِّف لتحقيق جودته ومن ثمَّ نجاعته، تسديداً يلحظ
ضرورة الاستجابة لمقتضيات السيرورة وصلاً له بسياقات التحديات والتطورات الراهنة؛ ليتحول التبليغ
- بتوسط وظائف النبوة كما كان في أول عهد الإسلام - وسيلة لعمارة الأرض تستعيد به هذه الأمة
باعتبارها خير أمة أخرجت للناس حياتها الطيبة التي تسعد بها في نفسها، وتحقق بها الشهادة على غيرها
من خلال أنموذجيتها المغربية؛ قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

إن غاية التبليغ تحقيق الرشد في الدين باعتباره حالة من اكتمال النضج المطلوب. غير أنه لما انخرf
عن مساره المقصود تأكدت ضرورة تسديده بما يُمكن من رأب الفجوة المتسعة بين مطلوب الدين الذي
أنزله الله من أجله، وبين واقع الدين المنحرف بسبب ما اعتراه من صور القصور البشري. فما هو يا ترى
معنى (تسديد التبليغ)؟

إن تسديد التبليغ المطلوب تقويم لإيصال يُلحَظ فيه معاني مادة (سَدّ) من: الإِتْقَانِ والاستِحْكام مع الحَاجِزِيَّة، وكذا آثارها من الاستقامة والقصد والصواب والردم والملاءمة¹، ويمكن الإشارة إلى بعض من معاني تسديد التبليغ كما يستفاد من بعض إشارات العلماء فيما يأتي:

- إِحْكَامُ تقويم إيصال الدين من خلال شرطي: التَّهَمُّمُ بالإرادة، والمبادرة بالحركة؛
- ملاءمة إرادة وحركة تقويم الإيصال بما يراعي مطلوب الدين شرطا وغاية؛
- توجيه بوصلة إِتْقَانُ تقويم إيصال الدين نحو تحقيق إصابة الثمرة؛
- اعتماد الوقاية التي هي نوع حَاجِزِيَّة تحقق معنى السَدِّ أمام الاختلالات المفسدة لصوابية الإيصال

جنباً إلى جنب مع التنمية.

يقول حجة الإسلام الغزالي في بيان معنى مصطلح (التسديد) في سياق مقارنته بمعاني مُصْطَلَحِي (الرشد) و(التأييد): «وأما التسديد فهو أن يُقَوِّمَ إرادته وحركاته نحو الغرض المطلوب ليَهْجُم عليه في أسرع وقت. فالرشد تنبيه بالتعريف، والتسديد إعانة ونصرة بالتحريك، وأما التأييد فهو تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش من خارج»². وهو تعريف يلحظ جانب تقويم المبلِّغ أولاً لقصده ثم حركته جمعاً بين الإخلاص والإِتْقَانُ الممكنين من تحقيق السداد في مطلوب شرعي يحضر فيه جانب التعبد؛ قال تعالى: ﴿بِمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾³؛ خاصة أن التبليغ نوع وراثته نبوية تستدعي مراعاة التأسي المطلوب في بابه كما قاله الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]. ويلحظ فيه أيضاً جانب المبادرة للحركة كما هو شأن المطالب العالية المحققة للمغفرة بتوسط تحقيق النفع ﴿سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁴. كما يلحظ فيه كذلك كون حركة التقويم من المبلِّغ إنما هي وسيلة استِجْلاب إعانة الله ونصرته للمتسبب بالإرادة الصادقة والحركة النافعة باعتباره سبحانه هو المحرك والفاعل، ومن ثمَّ المُسَدِّ للحركة حقيقة.

إن المقصود بـ(تسديد التبليغ): تقويم التبليغ بما يراعي أسبابه الموجبة، ويستحضر شروطه اللازمة، ويدفع أو يرفع موانعه المعيقة؛ في أفق إحكامه المحقق للرشد بما هو نضج مطلوب في التدين تحصيلاً لسعادة الدارين، فهو إذاً تصويب إيصال الدين على الوجه الذي يحصل به ترشيد التدين ترشيداً يُحْصِلُ الحياة الطيبة.

1- ينظر التحقيق في كلمات القرآن الكريم؛ حسن مصطفى 97/5.

2 ميزان العمل، ص 303.

3 سورة الكهف آية 105

4 سورة آل عمران آية 133

1- التبليغ بين انضباط العلم وتسبب الحماسة

حيث إن التبليغ حكم شرعي كلفنا الشارع به؛ فليس الشأن في المسارعة المتعجلة التي يتصور أصحابها الامتثال لأمر الله به دون مراعاة شروطه، مثله في ذلك مثل سائر الأحكام التكليفية؛ فإن الأمر بها أمرٌ بها وبما لا تتم إلا به؛ يقول العلامة ماء العينين في نظمه للورقات:

والأمر بالشيء اقتضى لشرطه * ومن فعل يخرج عن عهده¹

وإنما الشأن في الامتثال الذي يخرج به المكلف من عهدة التكليف بالتبليغ أن يعرف البيئة التي ارتضاها الشارع لفهم وتنزيل ذلك الحكم التكليفي، ألا وهي ما يكتنفه من الأحكام الوضعية التي لا يتصور أن يتم بدونها؛ فإنه لا يتصور حكم تكليفي إلا مقتزناً بأحكام وضعية من أسباب وشروط وموانع؛ يقول العلامة القرافي: «ولا يتصور انفراد التكليف؛ إذ لا تكليف إلا وله سبب أو شرط أو مانع...»².

وما لا تتم التكليف إلا به هو ما تتوقف عليه من:

- الأسباب والشروط من حيث وجودها؛

- الموانع من حيث انتفائها وعدمها.

قال العلامة القرافي: «الفصل الخامس عشر: فيما نتوقف عليه الأحكام»

وهي ثلاثة: السبب، والشرط، وانتفاء المانع؛ فإن الله تعالى شرع الأحكام وشرع لها أسباباً وشروطاً وموانع، وورد خطابه على قسمين:

• خطابُ تكليفٍ يشترط فيه علمُ المكلف وقدرته وغير ذلك كالعبادات؛

• وخطابُ وضعٍ لا يشترط فيه شيء من ذلك، وهو الخطاب بكثيرٍ من الأسباب والشروط

والموانع»³.

ومراعاة ذلك الارتباط، وحتى يكون ذلك على ذكرٍ من بال العلماء عند النظر في الأحكام؛ فقد تقرر من القواعد أن «الحكم لا يتم حتى تجتمع شروطه وتنفي موانعه».

وتيسيراً على المشتغلين بالعلم صُنِفَت الشروط بحسب طبيعتها إلى قسمين:

1- منظومة «الأنفس في الأنظام لورقات علم الأعلام»، مخطوط خاص.

2- شرح تنقيح الفصول ص: 81.

3 شرح تنقيح الفصول، ص: 78.

شروط عامة في جميع التكليف من مثل: العقل، والبلوغ، والعلم، والاستطاعة¹...، يذكرها الجمهور عادة في كتب أصول الفقه في مبحثي: المحكوم فيه وهو الشريعة، والمحكوم عليه وهو المكلف. ويذكرها الأحناف في مباحث: الأهلية شروطها وعوارضها، وقد يُستغنى عن ذكر تلك الشروط - رغم تفصيل الحديث عن الأحكام التي ترتبط هي بها - في كتب الفقه؛ استغناءً بوجودها في كتب الأصول التي لا يتصور العلماء المحققون النظر في أحكام الفقه إلا في ضوءها، أو استغناءً منهم بمعرفة العلماء لها؛ إذ حذف ما يُعلم جائز.

شروط خاصة بكل حكم وذلك بحسب ما يُناسب طبيعة ذلك الحكم ويوافق خاصيته؛ يذكرها العلماء عادةً مقرونة بذلك الحكم في كتب الفقه التي هي مظنة تناول تفاصيل ذلك الحكم؛ مما يؤكد ضرورة عدم الاكتفاء بالقواعد العامة التي توجد في كتب أصول الفقه؛ مما صار مسلكاً لكثير من مُتسوّري الاجتهاد المعاصرين، مُغفلين ضرورة الرجوع إلى الجهود الضخمة التي بذلها فقهاؤنا في استخراج ضوابط كل حكم شرعي؛ مما لا يوجد تفصيله إلا في كتب الفقه، وأحياناً في كتب التفسير أو كتب الشروح الحديثة للعلماء المحققين.

ولأجل هذا المعنى لم يكن المحققون من العلماء يقتصرون على الحديث دون الفقه، ولا يكتفون بالفقه دون الحديث، بل كانوا ينظرون فيهما جميعاً مسترشدين بمناهج مدارس العلماء الذين لهم قبول عام في الأمة؛ مثل الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم وتلاميذهم، وصلاً لحلقات النظر العلمي بعضها ببعض في مختلف طبقات تاريخ العلم.

يقول العلامة القرافي في تقرير انقسام الشروط إلى عام وخاص: «ويُشترط مع العلم والقدرة شروطٌ أخرٌ تختص بكل عبادة منها شروط، كما يُشترط في الصلاة البلوغ والزوال، والإقامة في الجمعة والصوم، ودوران الحول في الزكاة، وهو كثير مبسوط في كتب الفقه»².

وبناء على ذلك فإن ممارسة ما يُتصور تبليغاً من خلال مطلق الإيصال لتعاليم الدين لا يُحوّله إلى (التبليغ) الذي له حقيقة شرعية لا تُتصور إلا باستيفاء أسبابه وشروطه من مثل: الأهلية العلمية والخلقية وكذا المهارية...، وإزالة موانعه من مثل: التمثلات الفاسدة عن الدين الذي يدعى إليه بدءاً بأصله المتمثل في التوحيد الذي يراد منه في مناهج التبليغ الفاسدة التصنيف الذي لا يحقق غرض التزكية، ومروراً

1 يقول العلامة عبد الله العلوّي الشنقيطي في مراقي السعود، ص: 11

والعلم والوسع على المعروف * شرط يعم كل ذي تكليف

بمفاهيم الاتباع والابتداع المخالفة لما توارد عليه أهل العلم قرونا متطاولة؛ مما آل إلى رفع مراتب أحكام بنقلها من دائرة العمل إلى دائرة الاعتقاد ونسبة أصحابها إلى الشرك أو البدعة المغلظة، ثم الانتقال إلى تبليغ ما يتصورون إخلال عامة المسلمين به...

إن الأمر الشرعي بالتبليغ أمر به وبما لا يتم إلا به، مما لا يعرفه إلا العلماء ومن يدور في فلكهم من موقفي الخطباء والوعاظ والمرشدين والأئمة...، ومن أمثلته التي تشتد الحاجة إلى معرفتها في كل عصر؛ ضرورة الوعي بتوقف التبليغ على معرفة مقتضيات الفطرة في كيفية نشوء العمل الظاهر مترتبا على حال صحة باطنة تكيفت بها نفس مزكاة قوي عندها وازع الإيمان الباعث على الإرادة الجازمة ومن ثم العمل الصالح؛ مما يتلون به تصور ضرورة التراتبية التي يؤسس عليها البناء المنطقي لمادة التبليغ لتترتب في التوجيه كما ترتبت في الوجود.

ولذا لابد من استحضار أن سهولة انبعاث الإرادة ومن ثم العمل؛ متوقف على هيئة نفسانية تتشوف بمقتضى صحتها إلى تلقائية تحصيل المأمور المحبوب أو ترك المنهي المخوف؛ مما يفرض على مادة التبليغ أن تترتب غالبا حسب مقتضيات الوجود ترتيبا منطقيا بين العناصر الداخلة في غرس وازع الإيمان الإذعاني أولا باعتباره الأساس المفضي إلى إمداد العبادة الملحوظة ثمراتها بمدد دوام الرغبة والامتثال، وجعل ذلك وسيلة لتقوية العمل الصالح وترسيخه.

ولاشك أن الغالب على التبليغ اليوم الانتقال من التأسيس للإيمان بما هو وسيلة خلق الباعثة لامثال الأمر والزاجرية عن اقرار النبي؛ إلى خطاب فكري صرف لابنائهم على منهج يستهدف إقناع العقل بمشروعية الحكم، وذلك في غفلة عن مراعاة وضع الشريعة التي لها منطق مغاير يركز على استثارة القلب من خلال خلق الرغبة الباطنية باعتبارها شرطا لانبعث العمل؛ فإنما وقوع الأعمال التي هي مظاهر بالنيات الباعثة عليها في الضمائر.

2- تسديد التبليغ وتحقيق الرشد

أ- مقصدية تحقيق رشد الدين في التبليغ

إن من أعظم مقاصد تسديد التبليغ الارتقاء بالدين إلى (الرشد) باعتبار مركزيته كأفق يتشوف الدين لتحقيقه؛ مما يحوج إلى بيان مكائده، ومعرفة حدوده، ومقوماته، وشدة الحاجة إليه...

إن نصوص الشارع تدل بمجموعها على أن (الرشد) هو غاية من غايات إنزال الدين الذي يراد تبليغه، وثمرة من ثمرات العمل بما جاء به من التكليف؛ فقد وردت كلمة (الرشد) ومشتقاتها في القرآن الكريم تسع عشرة مرة (19) بمعانٍ تتناسب مع السياقات التي استعملت فيها، معانٍ تشتمل على أمور منها:

• قيام الدين على أساس كمال الرشد؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكُفِّرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 255]، ومنه قوله تعالى في بيان اشتغال مصدر الدين الذي هو القرآن على الهداية إليه: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا فِرْعَانَ عِجْبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 2-1]؛

• الرشد مهوى أفئدة الكبار من الأنبياء والصالحين؛ قال تعالى في توجيه سيدنا رسول الله ﷺ إلى أن يسأل ربه تعالى الرشد: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَهُ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 24]، وقال تعالى في تعلق سؤال سيدنا موسى للخضر به خاصة: ﴿هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رَشَدًا﴾ [الكهف: 65]، وقال تعالى في طلب أهل الكهف له: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10].

• اصطلاح المؤهل للإرشاد بإفاضة الرشد وراثته عن النبوة؛ ومنه قوله تعالى في تقريره قاعدة عامة في أن الإرشاد يحصل متى ما وجد المرشد: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَسَ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: 17]، ومنه قوله تعالى في تهميم المرشد في الواقع بجعل الناس ذوي رشد من خلال دعوتهم لاتباعه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتْلُوهُمْ بِآيَاتِهِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 177]، ﴿يَقُومُوا بِإِتِّبَاعِهِمْ لِيُجِيبُوا دَعْوَةَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 213]، [غافر: 38]؛

• الأسباب المعينة على سلوك سبيل الرشد؛ فمن ذلك قوله تعالى في الاستجابة بالإيمان والعمل الصالح المؤثرين في تحصيل الرشد: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 185]، وقوله في تحصيل الرشد من خلال التحقق بهيئة نفسانية تتكيف بحجة الإيمان وتترنن به على نحو يستلزم كراهية المنافي وإن اختلفت مراتبه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرُّشْدُونَ﴾ [الحجرات: 7]،

• الأسباب الصارفة عن الرشد؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفْ عَنْ أَيْتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 146]؛

• حصوله بالنضج المؤهل لتصريف الأمور على المحمّدة في المال؛ قال تعالى في التمثيل له بما تقوم به الحياة من المال: ﴿وَابْتَالُوا أَلَيْتُمْبَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْبَعُوا إِلَيْهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6].

ب- معنى الرشد في الدين

إن الرشد - باعتباره نضجاً مؤهلاً للتصرف المحمودة عواقبه - يعد أساس صدقية الانتظام في سلوك سبيل العبودية المحقق للتدين المطلوب بلحاظ مقاصده، ومنه تناسل سائر أحوال المتدين السالك لذلك السبيل بدءاً بفهم مراد الله منه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، ومروا بصدق إرادته الانخراط في سبيل عبوديته ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19]، ثم انتهاء بحرصه على الثبات عليها؛ قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود: 112]؛ يقول العلامة ابن برّجان: «الاستقامة الأولى لزوم الإيمان باطنا والتحلي بحلية الإسلام ظاهراً، والاستقامة الثانية الثبات والزموم، كما كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد»¹.

فهذه الاستقامة هي التزام التوحيد عقداً وقولاً وعملاً كما تقدم في التوحيد الأعلى»².

إن امتلاك البصيرة العلمية في الأمر، وصدق الإرادة في سلوك طريقه، والثبات عليه بعد التوفيق إليه؛ أثاف ثلاث بها يحصل الرشد ويتنامى، يقول العلامة الحارلي: «الرشد: تصريف الأمور على محمّدة عواقبها وصلاح مآلها، ولا يتم إلا: بإحاطة علم، وثبات تدبير؛ ليُطابق ظاهر حاضر الأمر باطن غائب مآله. ولخالفه ظاهر المنافق باطنه تحقق فيه السفه عند الرشد، وتحقيق في الصادق الرشد ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ﴾ [البقرة: 12]، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْبُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشْدُونَ﴾ [الحجرات: 7]، وعلى قدر تحقق الصدق، وثبات الأمر، وإحاطة العلم؛ يتنامى الرشد ﴿إِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْبَعُوا

1 رواه النسائي في سننه، رقم 1304، والأمام أحمد في مسنده رقم 17114

2 تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم 7411/2.

إِلَيْهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ» [النساء:6]، ولما كان هذا الأمر لا يَكُلُّ ما به الرُّشدُ من إحاطة العلم وثبات الأمرِ وكمالِ الصدقِ إلا الله كان بالحقيقة هو تعالى الرشيد الذي لا رشيد إلا هو¹.

إن الرشد حالة نُضج في التدين يبلغ بها العبدُ درجةً حُسنِ التصرفِ المحمودِ بواسطة الاهتداء الممكن من الاستجابة لمطلوب الدين بشرطيه من الإيمان والعمل الصالح؛ قال تعالى: ﴿بَلَيْسَتْ جِيُوبًا لِي وَلِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 185].

يقول العلامة البقاعي: «ولما أوجب استجابته سبحانه في كل ما دعا إليه وكانت الاستجابة بالإيمان أول المراتب وأولها - وكانت مراتب الإيمان في قوته وضعفه لا تكاد تتناهى - قال مخاطباً لمن آمن وغيره: ﴿وَلِيُؤْمِنُوا بِي﴾ أي مطلق الإيمان أو حق الإيمان، ثم علل ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي ليكونوا على رجاءٍ من الدوام على إصابة المقاصد والاهتداء إلى طريق الحق.

قال الحرالي: والرشد حُسن التصرف في الأمر حساً أو معنى في دين أو دنيا، ومن مقتضى هذه الآية تتفصل جميع أحوال السالكين إلى الله سبحانه وتعالى من توبة التائب من حد بعده إلى سلوك سبيل قربه إلى ما يؤتاه الله من وصول العبد إلى ربه. انتهى².

إن الرشد حال من انبعث روح الإيمان التي يستيقظ بها باطن العبد؛ فيقوى معها - بما حصل من تلك الروح - على سهولة الامتثال لفعل الطاعة التي بها صلاحه وترك المعصية التي فيها فساد؛ يقول أبو حامد الغزالي: «وأما الرشد فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان على توجهه إلى مقاصده؛ فتقويه على ما فيه صلاحه، وتفتره عما فيه فساد، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 15]»³.

يمكن أن نخلص بعد هذا إلى تعريف التدين الراشد بأنه: «هيئة نضج لنفس تكيفت بروح الإيمان المقتضية لحسن التصرف برعاية الصلاح المؤسس على الصدق في الاهتداء بالخير المتقوم بالإيمان والعمل الصالح»⁴.

ج- مقومات الرشد في التدين

لما كان مدار الرشد في تدبير الإنسان لأمواره على حُسن التصرف المحمود بواسطة الاهتداء بالدين المتقوم بمقتضياته؛ فإنه لابد فيه من أمرين اثنين هما:

1 مخطوط خاص في شرح أسماء الله الحسنى

2 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 76/3

3 ميزان العمل، ص 303

4 ميزان العمل، ص 303

• الإيمان الصادق من حيث هو داعٍ للعمل وباعثٌ عليه؛ وهو ما يكون للإيمان به روحٌ لا يتصور تدينٌ حيٍّ ومؤثرٌ بدونه؛ بحيث يسعى الراشد في تحصيل تلك الروح الإيمانية التي تكيف القلب بحالٍ من التحقق الفعلي المقوي للقلب على بعث الجوارح على العمل بسهولة؛

• يقول صاحب المنار في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 185] « وقال المفسرون في الأمر بالإيمان هنا أنه أمر بالمداومة عليه لأن الخطاب للمؤمنين، وذهب الأستاذ الإمام إلى أن الخطاب عام وأنَّ حظَّ من استجاب لله وللرسول منه أن يُحاسب نفسه ويُطالبها بأن تكون أعماله الظاهرة التي عدَّ بها مسلماً صادرةً عن الإيمان اليقيني والاحتساب والإخلاص لله تعالى؛ ففي ذكر الإيمان بعد الاستجابة إشارةً إلى أن من الناس من يستجيب إلى الأعمال ويقوم بها وهو خلو من روح الإيمان ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا فَلَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14].

• ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي بالجمع بين الإيمان والإذعان للأمر والنهي. والرشد والرشاد ضد الغي والفساد؛ فعلنا أن الأعمال إذا لم تكن صادرة بروح الإيمان لا يرجى أن يكون صاحبها راشداً مهدياً، فمن يصوم اتباعاً للعادة وموافقةً للمعاشرين فإن الصيام لا يعده للتقوى ولا للرشاد، وربما زاده فساداً في الأخلاق وضراً بالشهوات؛ لذلك يُذكرنا تعالى في أثناء سرد الأحكام بأن الإيمان هو المقصود الأول في إصلاح النفوس، وإنما الأعمال في صدورها عنه وتمكينها إياه¹.

• العمل الصالح من حيث هو مظهر الإيمان وثمرته؛ فإن الرشد يمر عبر الحرص على انبعاث الجوارح للعمل بمقتضى الإيمان؛ أي العمل الذي وصفه الشارع بالصالح وهو العمل الذي يخرج وعليه كسوة القلب لارتباطه بمدد الإيمان؛ قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: 35]؛ يقول العلامة البقاعي: «﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ﴾ أي عمل القلب وهي الصفة المقصود بها أن تقي صاحبها سخط الله، وهي التي استولت على قلبه حتى حملته على امتثال الأوامر التي هي نهايات لذلك، الكائنة ﴿مِنْكُمْ﴾ الحاملة على التقرب التي بها يكون له روح القبول، المحصلة للهامول؛ قال الرازي في اللوامع: وهذا دليل على أن النية الخالصة خير من الأعمال الموظفة - انتهى. فإذا نالته سبحانه النية قبل العمل فتلقى اللقمة «فرباها كما يري أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»²، ووقع الدم

1 تفسير المنار 2/172-173.

2 رواه البخاري، رقم 1410.

منه بمكان؛ فالنفي لصورة لا روح لها والإثبات لذات الروح، فقد تُفِيدُ النية من غير عمل كما قال ﷺ في غزوة تبوك ما معناه «إنَّ بالمدينة رجالاً ما نزلنا منزلاً ولا قطعنا وادياً إلا كانوا فيه حبسهم العذر»²، ولا يفيد العمل بغير نية، والنية هي التي تفيد الجزاء سرمدًا، والله الموفق³.

د- الحاجة إلى ترشيد التدين

إن التدين لما كان جهداً بشرياً يعتره النقص؛ احتاج إلى ضرورة مواكبته بـ (الترشيد) باعتباره ملاحقة للممارسات التي تنتسب للدين قياماً بعملية تقويم تكسيبها الهدى والرشد. إنه تدبير لأمر السلوك الديني بما يلحظ تحصيل ثمراته المرجوة ودفع ما يمنعها، ولذا فداره علي: الاجتهاد في إكساب التدين الرشد المقصود في أفق تحصيل الحياة الطيبة بتوسط تحقيق العبودية المتقومة بالإيمان والعمل الصالح.

• نعم ثمة بون شاسع بين واقع التدين الموجود، وبين مطلوب الدين المقصود، ومن أمثله على سبيل الذكر لا الحصر: تضخم (التدين القشري) المعني بالأشباح من خلال صبغها بمظهرية من الرسوم الجوفاء المنقطعة عن مدد طهارة الباطن في غفلة عما يقتضيه مقصود (التدين الجوهرية) من ضرورة الغوص إلى باطن النفوس والأرواح اعتباراً بما تتعدى عليه الضمائر لا بما يلوّح من المظاهر، غوص في النفوس لتحريرها من الميل إلى الفجور بسبب الأغيار الصارفة عن التحقق بعبودية الله؛ سواء أكانت أغياراً بشرية مثل أمراض النفس ورعوناتها، أو أغياراً مادية مثل الشهوات والتملكات، تحريرها بتوسط تذكير وتزكية وتعليم تكيف الوجدان بصبغها الملحوظ فيه نوع غمس روحاني يوجب تحولاً ييسر إلى تمام عبودية محققة للسعادة؛ ﴿صَبَّغَهُ اللهُ وَمَسَّ أَحْسَنُ مَسِّ اللهِ صَبْغَةً وَنَحَسَ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: 137].

وقد تولّد عن تضخم (التدين القشري) في الواقع الغفلة عن مقتضيات الفطرة في كيفية نشوء العمل الظاهر مترتباً على حال صحة باطنة تكيفت بها نفس مزرّاة قوي عندها وازع الإيمان الباعث على الإرادة الجازمة ومن ثم العمل الصالح؛ مما يتلون به تصور ضرورة التراتبية التي يؤسس عليها البناء المنطقي لمادة التبليغ المرشد لتترتب في التوجيه كما ترتبت في الوجود؛ بحيث يتم توجيه المبلّغين إلى العناية بالإيمان المؤسس للشوق، شوق محرّك للتشوّف، تشوّف باعث على الإرادة، إرادة منسّئة للعمل.

إن مرجع التدين الرشيد إذاً إلى قلب قويته حياته بالانصباغ بكامل محبة الإيمان، والاستغراق في شهود حسنه؛ بحيث يكون ذلك أعظم باعث له على فعل الخيرات، وأعظم زاجر له عن فعل المنكرات، ولنتأمل قوله تعالى في تقرير ما يكون به الرشد في التدين: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ

1 إشارة إلى حديث رواه الترمذي برقم 1493؛ قال فيه رسول الله ﷺ عن دم الأضحية: « وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض، فطيبوا بها نفساً ».

2- رواه بخوه البخاري برقم 2839.

3 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور 53/13

فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعْنَتُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴿٧﴾ [الحجرات: 7]، كيف صور أن إرادتهم موافقة الشارع لهم فيما تشتهيه أنفسهم خروج عن الرشد في التدين يوقعهم في العنت، ثم بين بعد ذلك ما يحول بينهم وبين الميل عن الرشد ألا وهو اشتغال قلوبهم على ما به قوتها التي تمنعها من إرادة مخالفة الشارع؛ أي بلوغ الإيمان في قلوبهم درجة محبته واستحسانه غاية المحبة والاستحسان، وكراهة ما ينافيه من الكفر والفسوق والعصيان نهاية الكراهية؛ مما يقتضي كون المتدين الساعي لتحقيق هذه الحالة القلبية بمجاهدته لنفسه هو التحقيق بوصف الرشد ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

نخلص إلى أن تسديد التبليغ يهدف إلى ردِّ شؤون التدين إلى نصابها السليم من خلال ذلكم الترشيده؛ ليتأتى إرجاعها إلى مقصود نزول الدين الكامل الذي من أعظم مقاصده - كما سبقت الإشارة - جعل تدين الإنسان وسيلة إلى سعادته بما هي عنوان طيب حياته؛ قال تعالى: ﴿طَهُ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَى﴾ [طه: 1].

هذا وعلى الله قصد السبيل



البلاغ السديد شروطه ومقتضياته

ذ. إدريس ابن الضاوية

رئيس المجلس العلمي المحلي للعراش

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين؛ والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وأصحابه الخيرة الأبرار.

أما بعد؛ فالمراد بالبلاغ والتبليغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتى، مكانا كان أو زمانا، أو أمرا من الأمور المقدرة... ونحوه قوله عز وجل: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 52]، وقوله سبحانه: ﴿فَبَلَّغْنَاكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: 40].

والبلاغ: الكفاية، نحو قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَّغًا لِّقَوْمٍ عَبِيدٍ﴾ [الأنبياء: 106]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتِي﴾ [المائدة: 67]، أي: إن لم تبلغ هذا أو شيئا مما حملت تكن في حكم من لم يبلغ شيئا من رسالته، وذلك أن حكم الأنبياء وتكليفاتهم أشد، وليس حكمهم كحكم سائر الناس الذين يتجافى عنهم إذا خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا...

ويمكن أن يعرف من جهة العمل، بأنه الخطاب الديني الملقى من مبلغ عامل مؤهل، في موضوع محدد يستجيب لحاجة تدين الفرد والجماعة، بتناول حكيم يحصل به الإقناع.

البلاغ عن الله روح أمانات العلماء

وهو من أجل مهام العلماء - التي لا يقوم مقامهم فيها أحد غيرهم - النهوض بمهمة الدعوة وخلق الاستعداد للهداية بالحكمة والموعظة الحسنة، وهم من هذا المنظور شهود ومحتسبون ولكنهم منشغلون بأرواح الناس مهتمون بخلق الوازع الديني عندهم، لأنهم صناع على الدوام في معمل الهداية والتسديد الذي هو منبر العلماء الأساس، ولا سيما فضاء المسجد الذي يقومون فيه بتبصير الناس وتلبية احتياجاتهم الدينية وتعليمهم مراقبة الله تعالى وتثقيفهم بواجباتهم نحو غيرهم، وتوفيقهم إلى استشعار المسؤولية في تصرفاتهم أمام ربهم.

وقد جعلتهم هذه المهمة المنوطة بهم بحق الوراثة للعلم النبوي المنتهي إليهم مركزين لا هامشين، لأنهم متوغلون بأمانة البلاغ في عمق الإصلاح والتغيير، والحجة الدامغة على ذلك ما ينتظر من رسالتهم

من إرجاع الإنسان إلى الفطرة وإخراجه من سكرة الغفلة، وحمايته من الفتنة، وإبعاده عن جحيم أنواع الإدمان المفسد للأبدان والمشوه للأوطان، والمهدم للعمران، والنأي به عن التكاليف الباهظة لنمط حياة التكاثر الملهي، ومن أنواع الإسراف والانحراف والفاقة والشدة الموقعة في الإفساد برا وبحرا وجوا. إن إدراك هذه الحقيقة تجعل العلماء يدركون أن السياسة الموكولة إليهم التي مدارها على التلقين والتمثيل والتمرين هي التي يمكن أن تصلح بها حياة الناس، وتصلح بها أوطانهم، وتنمو بها مجتمعاتهم، وتنضبط بها السياسة التي تؤطرها مختلف أنواع الفعاليات.

إن الإقناع بهذا المنظور يتطلب مجهودا خاصا من العلماء ويتطلب على الخصوص أن يقوموا بكل ما أوتوا من قوة بحق البلاغ، مقتنعين بضرورة الانفتاح على العاملين في محيطهم بالإصلاح انطلاقا من مبادئ الدين ومقاصده وقيمه، وأن يحققوا مع من يشاركونهم في مشروع إصلاحهم في إطار ثوابتهم المحققة لإجماعهم، وموروثاتهم المؤسسة لقيمة التعاون على البر، والمشايع على التقوى اللذين أمر الله بهما جماعة المؤمنين في قوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2]، ليبينوا للناس بحق تساندهم نصح غيرهم الذي يريدون به وجه الله قدر الأخلاق في التحالف على البر والتأزر على الخير، وعظم فضلها في التأثير في غيرهم وإظهار وصف الإنصاف في علاقاتهم قولا وفعلا، ليعيش المتكلمون في الدين في محيطهم أوفياء لأماناتهم قائمين بحق أحكام شريعتهم، شاهدين على غيرهم بحسن إيسوتهم، متواضعين لربهم، متآلفين فيما بينهم ومتعاونين على مهامهم، ومتراحمين، بحيث لا يفخر أحد على أحد، ولا ينبغي أحد على أحد.

وهذا يفرض على من هداه الله للبلاغ عنه ممن شرف بالانخراط في مشروع تسديد التبليغ الرائد الذي يشرف عليه العلماء في دولة إمارة المؤمنين صانها الله تعالى؛ أن يكون شخصا سويا¹ مقتدى به، مشهورا بطلب العلم ومعروفا به بين أهله ومحققا للمقصد منه في العمل والحشية والعطاء مظهرا للغاية الممكنة منه في الإصلاح والإصلاح.

ومكونات هذا التوصيف الأساسية لعالم الوقت، توجب على من يرجو أن تنتهي إليه الصفة في العلم الملي - العقلي والنقلي - أن يكون متحققا بصفات أساسية، وجامعا سمات ضرورية علمية وعملية وربانية وأخلاقية، وانتائية، وتنزيلية مراعية لرسم خطة التبليغ المعممة، تؤهله للقيام بواجبه نحو دينه وأمته، وخاص جماعته؛ حماية لدينها وإصلاحا لأحوالها، وتنمية لمعارفها، ونفيرا دائما لازما لحراستها ودرء الفتنة عنها بترصد كل أنواع المشوشات التي تقذف بها ثوابت الأمة وتقصف اختياراتها، للتشغيب على وحدة الجماعة ولذاذة سكينتها.

1 القصد بالسواء هنا سلامة المتكلم في الدين من الاضطرابات النفسية والعقلية التي لا تفرق بين الطبقات، ولا تميز بين الأشخاص، ولا تراعي السن ولا الجنس ولا مستوى الثقافة. ينظر العقل الحي ص: 128.

إن العالم القائم على مشروع تسديد تبليغ الدين يجب عليه أن يتحلى بحسن تبليغه، وإجادة تقريبه وتحصيل النفع الممكن به، نياية عن النبي صلى الله عليه وسلم في تلقينه، واقتداء به في تمثيله، وحرصا على تحقيق الهداية المرجوة لأتباع ملته؛ بثبيت الإيمان في نفوس الناس، وتقريرهم من مفاهيم دينهم، وحمايتهم في وحدتهم، وصونهم من ألقيات المشوشين الذين يلقون أزمة أمورهم إلى مقتاديتهم بغير حجة، أو الذين استثقلوا العبادات، وانسلخوا عن ضوابط المعاملات، واستنكفوا عن إتيان الصالحات، ولم يسندوا اختياراتهم إلى حجة مقبولة، أو محجة مسنونة، تذكرهم بأن الله لا يخلق شيئا عبثا، ولم يترك الخلق سدى؛ لقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ هَوَاءً لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا بِعِلَإِينَ﴾ [الأنبياء 16 - 17]. وقوله: ﴿أَبَحْسَبْتُمْ أَنْنَا خَلَقْنَاكُمْ عَمْدًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (116) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيم﴾ [المؤمنون: 116 - 117].

23

يود رؤيته، ويقول ما يود قوله، ويفعل ما يود فعله مما لا يتصادم مع الإجماع القائم على ثوابت الأمة وموروثها الثقافي والحضاري.

إن أعز ما يتقصده هذا التبليغ الرشيد، وأولى ما يتطلبه ذلك البيان القاصد السديد: إعانة العامة - بتوكل وصبر واحتساب - على بلوغ هذا الأمر بنوعيه أصلاً وفرعاً؛ بحمل النفس على تطلب الحياة الخالدة، ورياضتها لبلوغ السعادة الماتعة؛ بسلامة التوحيد وتهذيب الأخلاق، وتصفية الأعمال، وتوفير الحقوق الواجبة المراعاة، وابتغاء مواقع رضوان الله المبتغاة، مفتاح استحقاق الدخول في الصراط القويم الموصل إلى الحياة الطيبة الموعودة، التي ضمنها الله لمن راقب العاقبة، واستعظم مستتر الخاتمة؛ فأجاب إجابة عملية سلوكية مشهودة عن الأسئلة المصيرية الفاصلة في مقامات المكلفين يوم القيامة، المجتمعة في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزولُ قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق، وعن جسمه فيم أبلاه»¹.

وأول محور في التبليغ السديد يوصل إلى ذلك، التوحيد المحرر الأصيل المنزه عن الأغراض، الذي تقام به العبادة المطلوبة، والعلاقات المنشودة، المشار إليهما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ هَذَا أَلْفُ مِائَةٍ أَوْ مِائَةٌ أَوْ مِائَتَانِ أَوْ كَثِيرٌ أَوْ قَلِيلٌ لَمِ يَنفَعِ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأنعام: 163]، الذي يُلْتَمَسُ فِيهِ أَلْفُ مِائَةٍ أَوْ مِائَةٌ أَوْ مِائَتَانِ أَوْ كَثِيرٌ أَوْ قَلِيلٌ لَمِ يَنفَعِ الْفَاسِقِينَ [الأنعام: 163]، الذي يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا [الإسراء: 9 - 10].

إن أعظم ثمرة تستجلب من الدخول في رسوم هذا الاهتداء والذي به تتحمل المشاق، وتحمي النفس من العدمية، ومستقبح العبثية، التي تسوغ للإنسان أن يفعل ما يقبح في السمع والعقل في نفسه وأهله وخاصة جماعته.

كما تتحقق به مشمولات الاعتقاد وما يقتضيه من حسن العمل المؤسس على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، والائتساء به في رحمته وخلقه وتواضعه، وانبساط نفعه لغيره، وحرصه على نجاة أمته؛ لأنه تمثل القرآن الكريم وأدى حقه في التلقين والتمرين، والنصح للمسلمين، حتى أمر الله تعالى باتخاذهم إساءة حسنة هادية إلى الرشد الاعتقادي والعبادي والسلوكي في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]، وفي قوله: ﴿وَأَن تَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَئِيلَ الْبَلَاغِ الْمُبِينِ﴾ [النور: 45].

إن من أجل ثمار هذا الاقتداء المشترط في الإيمان بمستلزماته الاعتقادية، والعبادية، والأخلاقية، التزام الذكر، واستصحاب الشكر، واحتمال الصبر، وتحصيل التقوى التي تعين على تطهير النفس، وتقوي استصفاء السلوك، وتؤيد على مقاساة ما يشغل عن الحقوق، وتعين على استكمال مكارم الآداب، وإدارة

1 العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب ص: 22، والترمذي برقم 2417، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

التصرفات على رسم مكارم الأخلاق التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم غاية بعثته، وعدّها رأس مهمات رسالته، واصطفّاها عنواناً للصدق في الانتساب إلى ملته، ودليلاً على معرفة الله تعالى ومعرفة حقوقه، وفقه فروض حنيفيته في قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»¹؛ وقوله: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»².

إن الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم أنموذج رحمة الله في توحيدِهِ، وصدقِهِ، وأمانته، وعبادته ونفعه، وكَمال خلقه، وإحسانه إلى غيره كل أيام دهره، يعتبر في هذه الملة عنصراً أساسياً في أداء حق العبادة وإعطائها المعنى الحقيقي في التوحيد والاتباع ولزوم الجماعة والألفة بين المؤمنين، الذي يُذكرُ به الناس كل يوم من خلال الأذان والإقامة والصلاة، الممثلة للمحور الأساس في إقامة رسوم العبودية لله تعالى إقامة تصفي النفس وتقوم السلوك، وتحفظ أمن الجماعة واستقرارها. إن هذه الثمرة المنظمة للسلوك الإنساني والشاهدة عليه هي التي يصدقها من جهة العمل؛ كف مُتَشَرِّر الأذى، والخروج عن الخطوط ببذل الندى، وإدخال السرور على ذوي الكلاله والفاقة، وإسعاد أهل ثقل الحاجة والمسكنة والهشاشة، والاقتصاد في الأمور، وإقامة العلاقة بين الناس على مبدأ البرور واستحلاء الخيور، القائم على أصل الإنصاف الذي يتجلى في حفظ الأمانة، وصدق اللسان، وحسن الخلق، وكسب الحلال المشار إلى قدرها والمنوه بفضلها في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليفة، وعفة في طعمة»³ - أي في وجه المكسب -.

ولا شك أن مفردات عناصر هذا التخلق الذي يقتضيه الإيمان الكامل، وتؤدي به الحقوق على الوجه الشامل، مجتمعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 91]، التي نقل الحافظ ابن عبد البر عن رجل من أهل العلم أنها أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق؛ وأن من أصولها في فقه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: صدق الحديث، وصدق الناس، وإعطاء السائل، والمكافأة، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذمم للصاحب، وقرى الضيف، والحياء رأسها⁴، ووسيلتها لبلوغ الكمال الإيماني الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه

1 أخرجه الإمام أحمد، 8939.

2 البخاري برقم 6016.

3 البيهقي في شعب الإيمان برقم 5012.

4 التمهيد 334/24.

وسلم في قوله: «أكل المؤمن إيماناً أحسنهم خلقاً، وخيركم خيركم لنسائهم»¹، وألطفهم بأهله»².

ما يرتجى أن يثمره البلاغ السديد

إن أهم ما يرتجى من خطة تسديد التبليغ المبدعة المحكمة، أن ترفع عن عامة الناس المحب الحائلة دون لحاظ نظر الحق تعالى في وعده، أن يحفظ بها حق الأدب معه وفق مراد أمره، وترعى مصلحة القلب بطهره، ويحترز من العشى عن ذكره، ويعتصم من مداخل الشيطان وحزبه، ويقام على أساسها محاسبة النفس على سوئها، والاطلاع الحثيث على خاص عيوبها، وتدارك معاصيها وغرورها، وصيانة حقوق الخلق بشروطها، وإشاعة الرحمة بسرورها، وحفظ الأمانات بأنواعها، وترقب الآخرة بأحوالها ونتائجها وجزاءاتها، التي بها تلذ الحياة الطيبة التي وعد الله تعالى بها عباده، وضمنها لمن جعلهم أوليائه، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾³ [طه: 112]، وقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ انشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾.

ولهذه الحياة الطيبة المستجمعة لقوى الاستقامة، رُوحها وروحها وأثرها الأسري والاجتماعي والأمني، إذا صدق إعمال معنى الإيمان في الأقوال والأفعال والأحوال، وتزين التدين في أنظار الآخرين، وتوثق التعايش بين الموافقين والمخالفين، يتظهر إن شاء الله بها في علاقتنا مقام الإحسان بيننا بالأخلاق والأعمال والأقوال وبذل الأموال وإسقاط الحقوق المثقلة وإباحة المنافع المفرحة، والإعانة على الطاعات، والمساندة في المبرات، والمساعدة بكل نفع ممكن يدخل به السرور على الناس؛ فدخل فيمن قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الَّذِينَ يَفِيضُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 2 - 4].

وقد أبدع في الكشف عن حقيقة معناها الإمام الحسين بن الحسن الحليمي في قوله: إن الآية فيمن إذا تليت عليه آيات الله زادته إيماناً، وليس المتخلف عن الفرائض، والقعود عن الواجبات اللوازم، من

1 الترمذي برقم 1162.

2 الترمذي برقم 2612.

3 قال الراغب الأصفهاني: بإصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة حتى يحترز من البله والجريزة - أي الغباء - ويتحرى الاقتصاد في تدبير الأمور الدنيوية. وليس نعتي بالحكمة ههنا العلوم النظرية وإنما نعتي بها الحكمة العملية التي يتحرى بها المصالح الدنيوية، وبإصلاح هذه القوى يحصل في الإنسان قوة العدالة فيقتدي بالله تعالى في سياسة نفسه وسياسة غيره، ص: 95.

زيادة الإيمان بسبيل. فالآية فيمن إذا ذكر الله وجل قلبه، وليس ارتكاب المعاصي ومخالفة الأوامر من إمارات الوجل. فصح أن الذين بيننا أن يكونوا مؤمنين حقاً، أو حسبنا أن يكونوا ناقصي الإيمان، غير داخلين في الآية. وأيضاً فإنه إذا ثبت أن الموصوفين في الآية، إنما كانوا بما استوجبوا اسم المؤمنين حقاً لمكان الأعمال التي وصفهم الله بها، ولم تكن الأعمال المتعبد بها هذه وحدها، صح أن المراد بذكرها هي وما في معناها من الأعمال المفروضة أو المندوب إليها، والصلاة إشارة إلى الطاعات التي تقام بالأبدان خاصة، والإنفاق مما رزق الله عز وجل إلى الطاعات التي تقام بالأموال، ووجل القلوب إشارة إلى الاستقامة من كل وجه. ويدخل فيها إقام الطاعات والابتعاد عن المعاصي. وأيضاً فإن الله عز وجل وصف الصلاة: أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. فبان بذلك، أن المحافظ على الصلوات، المقيم بها كما شرعت، الموفي حقها من الاستكانة والتبؤس والخشوع لا يكون إلا منتهياً عن الفحشاء والمنكر، نخلصت الآية إذا في الممتنعين من الفواحش¹ ...

والحمد لله رب العالمين

1 المنهاج في شعب الإيمان 1/ 34.



تبليغ الدين في الثقافة الرسالية

المفاهيم والمقتضيات والأبعاد

ذ. محمد بنكيران

رئيس المجلس العلمي المحلي للفحص أنجرة

من المقرر المعلوم أن الإنسان يمثل -على مستوى المخلوقات- محور هذا الكون بلا شك، لأنه المؤمن على ثرواته، وصاحب التأثير القوي النافذ فيه، إيجابا وسلبا، وكان دائما هو المخاطب بالرسالات السماوية، وما من دراسة في الآفاق أو الأنفس إلا وهو المقصود الأول والأخير بها، لأن أثرها راجع إليه، ومعقد الفائدة دائر عليه.

لكن المثير في هذا الإنسان هو أن في بنيته الداخلية وتركيبته النفسية قابلية خطيرة للشر والعدوان، كقابليته للخير والإحسان، وهذه القابلية تحتاج دوما إلى رعاية وترشيد، وإلا انقلبت القابلية التي بداخله للشر إلى طوفان مدمر للحياة والأحياء، كل على قدر ما لديه من إمكانيات وقدرات، وما هو إلا كما قال المتنبي:

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ... ذَا عِفَّةٍ فَلَعَلَّةٌ لَا يَظْلِمُ

ومن السهل تخيل ما يمكن أن ينتج عن ذلك من المضار والدمار، طالما أن واقع الإنسان وتاريخه يدلان بكل وضوح على ذلك.

لأجل ذلك كان البحث في الإنسان من الجانب الأخلاقي عريقا بتساؤلاته وإشكالاته وقضاياها.. وهذا البحث اقترن به التفكير في صورة المجتمع الآمن أو المدينة الفاضلة التي يعيش فيها الناس بسلام ووثام، وكرامة واحترام.

وهذا يعني ضرورة وجود أناس رساليين في كل مجتمع، يحملون على عاتقهم هم الرعاية ورسالة الإصلاح، بكيفية دائمة، وبكامل المسؤولية، وعلى نحو تكون لهم فيه الكلمة العليا والتأثير الفعال. وهؤلاء الرساليون يفترض فيهم بداهة أن يكونوا في أنفسهم على مستوى رفيع من الصفاء والطهر، والكفاءة الأخلاقية التي تؤهلهم لإصلاح غيرهم.

وفي المنظومة الدينية لم يتحقق هذا على التمام والكمال إلا للأنبياء والرسل، الذين اختارهم الله على علمه، وصنعهم على عينه، وأدبهم بآدابه، وجعلهم أنموذجا يحتذى في الطهر والتطهير، وفي الكمال والتكميل: ﴿وَلَا يَكُ لَدَيْسَ هَدَىٰ لِلَّهِ بِبَهْدِهِمْ افْتَدِيهِ﴾ [الأنعام: 90]

ومن ثم كانوا للرسالية مرجعا، تعرف بهم مفاهيمها وشروطها ومقوماتها وأهدافها وأبعادها وكل متعلقاتها، وهو ما يعني أن الرسالية صارت بوجودهم ثقافة متكاملة الأركان، تتيح لمن أراد أن يحذو حذوهم القدرة على نهج خطاهم بكامل الفهم والوعي والاقتدار.

وليس يعني هذا أن هؤلاء الرسل تمت لهم الاستجابة بشكل كلي، ولا أنها استدامت لهم، وإنما الواقع هو أنهم كما قبلوا بالطاعة والاتباع من فئات، ووجهوا في الوقت ذاته بالتعنت والتمرد والرفض من فئات أخرى، ثم بالإخلال والتقصير من فئات أصابها مع الزمن الوهن رغم إيمانها واستجابتها.

وهذه الفئة التي قد تمثل جزءا لا يستهان به داخل مجتمع المستجيبين والمؤمنين تحتاج إلى رعاية وتقويم، لردم الهوة بين تدينها والدين الذي تؤمن به من لدن هؤلاء الإصلاحيين المتمثلين للثقافة الرسالية، الذين يحملون مشعل الأمل في الأمة، وراية الهداية والنور في ظلم الانحراف والجور.

بيد أن الأساس في هذه الرسالية يتمحور حول مبدأ مركزي هو «التبليغ» الذي لا يمكن تصور القيام بوظائف الرسالية المتمثلة أساسا في الإصلاح الشمولي إلا انطلاقا منه، باعتباره الوسيلة المثلى للتواصل والتحاور والإقناع، والوصول إلى قلب المتلقي الذي هو مركز حركته، وموجه تصرفاته وفعاله: «ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»¹.

فإذا يعني التبليغ في المنظومة الدينية؟ وما هي حقيقته؟ والمفاهيم التي تنضوي تحته؟ وكذا الشروط التي يتطلبها؟ والأبعاد التي ينطوي عليها في ظلال الثقافة الرسالية؟

كل ذلك هو ما سنحاول الجواب عنه في هذا المقال.

التبليغ: المفهوم والأبعاد:

يمثل واجب التبليغ في سيرة الرسل والأنبياء الوظيفة المحورية والمهمة الأساس التي بعثوا بها ولأجلها في الناس، حتى كان هذا المبدأ أشرف أوصافهم، وأجمل نعوتهم عند خالقهم ومرسلهم، الذي اختار في ثنائه عليهم توصيفهم بذلك فقال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39].

وهذا فقط حينما ننظر إليهم من جانب الرسالة والتكليف الذي كلفوا به تجاه أممهم وأقوامهم، وإلا فأوصافهم من النواحي الأخرى كلها سنية كريمة، مضيئة رفيعة، فهم مذكورون على الدوام بجمل

1 جزء من حديث: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات: كراع يرمى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه.

الثناء، وعظيم الإطراء، ويكفيينا من ذلك التذكير بقوله تعالى عنهم: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۖ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِفَامَ الصَّلَاةِ وَاتِّبَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: 73].

وقوله عز من قائل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

والذي يظهر من أي الكتاب الحكيم أن واجب التبليغ في حق الرسل لا يتقدم عليه شيء مطلقاً، بدليل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ بَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتِي وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

ولهذا كان الرسل في جوابهم عن تكذيب أقوامهم يحيلون دائماً على قيامهم بواجب التبليغ في حقهم، على أساس أن ذلك هو ما يسقط التبعات عنهم، ويقيم الحجة على أولئك الأقوام في تكذيبهم وصدودهم. جاء ذلك على لسان نوح عليه السلام إذ ﴿ قَالَ يَفْقَوْمَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَا كُنِيَ رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ وَأَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحَ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 61-62].

وعلى لسان هود عليه السلام إذ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَا كُنِيَ أَرْبِيَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [الأحقاف: 23].

وعلى لسان صالح عليه السلام: ﴿ قَتَوْنِي عَنْهُمْ وَقَالَ يَفْقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَئِنْ لَا تُحِبُّوا النَّصِيحَةَ ﴾ [الأعراف: 79].

وعلى لسان شعيب عليه السلام: ﴿ قَتَوْنِي عَنْهُمْ وَقَالَ يَفْقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ بِكَيْفٍ عَاسِي عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: 93].

ومما يزيد هذا تأكيداً -إن كان الأمر يحتاج إلى تأكيد- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يَجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً ۖ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن: 22-23].

ومعناه كما جاء في تفسير ابن كثير: «لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي». ونظير هذا قوله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۖ لِّيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: 26-28].

وتأكيد هذا المعنى باعتباره المهمة الأصل للرسول ورد في القرآن الكريم معاداً في مواضع كثيرة، نذكر منها قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ﴾ [المائدة: 99]، وهي الآية التي جاء على منوالها ما يفوق العشر الآيات.

ومع كل هذا لا ينبغي أن نغفل عما سطره القرآن من الاختصاصات الكثيرة للرسول، التي منها: البيان، والنصح، والتزكية، والتقويم، والإصلاح، والحكم، والتذكير، والعظة.. وغير ذلك مما يبني الإنسان على الفضائل والمكرمات، بعد تخليصه من شرور نفسه وعللها، التي تنتهي به إذا أهملت واستفحلت إلى ما يسميه القرآن بالفساد، المحدث لكل الأزمات والمشكلات، والمانع من تحقيق الحياة الطيبة الموعود بها في الدنيا، والمعيق في ذات الوقت عن الوصول إلى حضرة الله ونيل رضاه.

ويمكن أن نذكر من الأدلة القرآنية على تلكم الاختصاصات ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَمِنَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [النحل: 44].
وقوله عز من قائل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1].

وقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنبَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55].
وقوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 2].

وقوله عز من قائل: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۖ﴾ * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا فَضِيتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 63-65].

وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105].

وهي آيات تحتاج إلى وقفات تدبرية لمعرفة مقام الرسالة، وتشخيص الوظائف الكثيرة للرسول في الأمة. ومما يزيد هذا بيانا وتوضيحا أن كل واحد من الرسل تفرغ -بحسب العرض القرآني- لعلاج ظواهر الانحراف الواقع في قومه.

فكان لشعيب عليه السلام تبليغ ودعوة تركز على انحرافاتهم في المعاملات التجارية بينها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي مَدَّيْنِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومُ لِعِبَادَتِ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرِيكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ۖ وَيَقُومُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: 84-85].

وكانت مهمة لوط عليه السلام مختصة بعلاج آفة أخرى ورد بيانها في قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۖ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ۖ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۖ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: 160-166].

وهكذا الحال في بقية الرسل بلا استثناء، بما يدل على أن الأمر يتعلق بوظائف كثيرة كانت لهم، هي على نحو لا يصح أن يقال عنها إنها تتجاوز التبليغ أو تناقضه، وإنما هي في الحقيقة من موجباته ومقتضياته وبالتالي فهي فرع عنه ومظهر له.

ومن الخطأ الشنيع أن يستصغر شأن الرسالة والرسول من خلال استدلال سطحي سقيم بآيات التبليغ، انتزاعاً من السياق والسباق والنسق العام للقرآن والسنة، كما يجري ذلك على لسان البعض وفي كتاباتهم. هذا وإن كل ما سبق يقودنا إلى القول بأن التبليغ مفهوم كبير، ومصطلح أصيل، يمتاز بكثير من المفاهيم والمصطلحات الشرعية بالتركيز والكثافة، وأن حملته الدلالية متسعة اتساعاً كبيراً، إلى حد أنه يكاد يتلاشى الفرق بينه وبين ما ينضوي تحته من المستلزمات والفروع والمقتضيات، بمعنى أن بإمكاننا أن نعتبر أن التبليغ هو البيان، وأنه العظة، وأنه التزكية، إلى آخر ما سبق من الوظائف الرسالية.

والرسالية مبدأ يسري على حملة الرسالة عامة وعلى طائفة العلماء خاصة، بما أوثمنوا عليه من التبليغ المسدد للدين، وذلك حسبما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19]، قال محمد بن كعب، في قوله {وَمَنْ بَلَغَ}: «من بلغه القرآن، فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم وكلمه»¹. وقال قتادة، في قوله تعالى: {لَا نَذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بلغوا عن الله» فمن بلغته آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله².

وليس في الناس من هو أحق بهذا الأمر من العلماء الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شُفَعَاءٌ قَبْلَهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ ۚ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18].

1 - ابن أبي حاتم الرازي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز - ط. الثالثة: 1419 هـ، ج 4/1271.

2 - عبد الرزاق الصنعاني: التفسير تحقيق: محمود محمد عبده - بيروت: دار الكتب العلمية - ط. الأولى: 1419 هـ، ج 44/2.

[18]، وهي خصوصية عظيمة لهم في هذا المقام تستوجب أن تصان بما يلائمها من الشروط الضامنة لسداد التبليغ ونجاحه لتحقيق أهداف وآماله.

مقتضيات التبليغ وشروطه:

نعرض تحت هذا العنوان المهم من هذه الشروط على سبيل الإجمال والتركيز، فنقول:

أولاً: إن أولى الشروط في هذا الصدد هي ما يمكن أن نسميها بالشروط الإيمانية، وهي أمور باطنية نفسية تتمثل فيما يعتقد الإنسان عليه قلبه في بداية الفعل من تصفية الإرادة، وتصحيح التوجه والقصد، من خلال التجرد التام من الهوى والحظوظ الشخصية وما يتصل بذلك من المعاني التي لا يمكن الارتقاء إليها ولا استدامتها إلا من خلال التحقق بمقام الشهود الذي تتلاشى به بالمرّة حظوظ النفس بالمصطلح الصوفي العرفاني التربوي، وهي ما يضمن التفاعل القوي والإيجابي مع مضامين الدعوة، ويتيح القدرة على الاستمرار في العمل، ويقوي الحافز بتجاوز الصعاب والمثبطات.

وهذا الأمر هو ما سعى الشرع إلى تحقيقه بتركيزه على النية وما أوجبه من تصفيتها والاشتغال بإصلاحها قبل البدء في الأفعال، حتى لا تكون العناية بالفعل فقط، وإنما بالنية التي ينبثق عنها ذلك الفعل. والمقصود هنا حديث النية المشهور الذي دأب العلماء -ولاسيما المحدثون- على بدء كتبهم به، وهو ما أخرجه الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»¹.

والمعنى المراد من هذا الحديث في هذا الباب أن يكون لدى المبلغ هدف واضح يسعى إليه، ويجرد نيته وإرادته لأجله، وليس ذلك إلا ما ذكره القرآن الكريم على لسان شعيب عليه السلام الذي قال لقومه: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْأَصْلَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

ولابد أولاً لتحقيق هذا الهدف من معرفة حقيقته بالمجتمع وأوضاعه، وتشخيص آفاته وانحرافاته، وتحديد نوعها، ودرجة خطورتها، وتمييز ما يدخل منها في العقيدة أو السلوك أو المعاملات أو غير ذلك، وذلك لتكون خطة الإصلاح واضحة.

ومما يحتاجه المبلغ في هذا الصدد بما يمثل زاده في الطريق القوة النفسية التي يكون بها قادراً على ملازمة الصدق في التبليغ، والتحقق بالشجاعة والصبر في الطريق، من غير مداهنة ولا مصانعة، ولا يكون ذلك إلا بخشية الله وحده دون سواه، وهو ما لا يكاد يتحقق إلا في العلماء كما يدل على ذلك قوله تعالى:

1 أخرجه البخاري. ومسلم وغيرهما واللفظ لأبي داود.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28].

واقتران الخشية بالعلم مرده إلى أن العالم بالله حقا لا يرى في الكون فاعلا على الحقيقة إلا الله، فهو المقدم والمؤخر، المعز والمذل، المعطي والمانع، والضرار والنافع.. ومن عرف الله بذلك لم يتعزز بغيره، ولم يتذل لسواه، ولم يرج النفع من غيره، ولم يستكشف الضر من سواه، وكان أمله معلقا به في كل حال، ولهذا كان المبلغون عن الله هم المتحققين فعلا بهذا الوصف بشهادة الله لهم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39].

ثانيا: الانطلاق في عملية التبليغ لا باعتبارها عملا فرديا أو شخصيا، وإنما باعتبارها مشروع أمة، وواجبا على كل الجماعة بصفة عامة، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب مجموع الأمة بقوله: «بلغوا عني ولو آية» الحديث¹. ويقول: «ألا ليلغ الشاهد منكم الغائب». الحديث²، ويقول: «نضر الله امرأ سمع منا حديثا، فحفظه فأداه إلى من هو أحفظ منه، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»³.

وإذا كان الخطاب من النبي صلى الله عليه وسلم هكذا عاما فإن معناه أنه يعم الجميع، بحيث يشمل الخاص والعام، والعالم وغير العالم، وقوله صلى الله عليه وسلم فيه: «فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» دليل على ذلك.

وما يفهم من هذا -علاوة على ذلك- هو أن التبليغ مادام يطالب به الجميع هو بلا شك مستويات كثيرة، وليس مستوى واحدا، إذا لا يمكن أن يطالب العالم بتبليغ يكون هو وغيره فيه سواء.

ولذلك وجب أن نفهم أن تبليغ العالم أعلى من غيره وأرقى، وأن ما يميزه لا بد أن يكون زائدا به عن سواه.

وبيان ذلك في الشرط الموالي، شرط التمكن العلمي، وهو الشرط الثالث ضمن هذه الشروط، والمقصود به التمكن التام من مادة التبليغ بالاطلاع الجيد، والاستيعاب الشامل، والفهم الصحيح، ثم لا يكفي ذلك إلا باقترانه بالقدرة على الإقناع والحجاج، وقرع الحجة بالحجة، والنفوذ إلى قلوب المخاطبين، بقوة التأثير، وسلطان الدليل، لأنه لا إكراه في الدين، ولأن الله تعالى لا يريد أعناقا خاضعة، وإنما قلوبا مدعنة

1 هو طرف حديث (بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار). أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

2 هو جزء من حديث: (فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كرامة يومكم هذا، في شهركم هذا، ألا ليلغ الشاهد منكم الغائب)، أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب العلم باب: ليلغ العلم الشاهد الغائب.

3 أخرجه أحمد في مسنده تحقيق: أحمد محمد شاكر القاهرة: دار الحديث - ط. الأولى: 1416هـ، 1995م، ج 4/ 172، والدارمي في مسنده: باب الاقتداء بالعلماء من المقدمة، وابن ماجه في سننه: أبواب السنة، باب من بلغ علما.

منبية: ﴿لَا تَشَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ بَطَلَتْ أَعَنَّهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ﴾ [الشعراء: 4]. وفي آية أخرى: ﴿لَا فِي هَذَا لَبْغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 106].

وهذا يقتضي التدريب على فن التأثير والإقناع، وإحكام صناعة الخطاب والبرهان، وكل ذلك قصه القرآن الكريم علينا من طرائق الحجاج التي كانت للرسول مع أقوامهم، خاصة وأن الدين حجة بنفسه، قوي بحقائقه، وهذه القوة هي زاد المبلغ في الإقناع إذا عرف كيف يفيد منها.

رابعا: فقه التنزيل، وهذا أحد الشروط الأساسية في التبليغ، لأنه لا يكفي أن يعرف الإنسان الحق ووجهه، فيخاطب به في أي وقت كان، ومع أي كان، من غير حكمة ولا تبصر، وإنما المطلوب أن يعرف ما يقال في الوقت المناسب، ومع الشخص المناسب، وبالكيفية المناسبة، روى البخاري عن علي كرم الله وجهه أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»¹، أورد ذلك تحت باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا.

ويسمى هذا عند أهل التربية والتسليك بربانية التعليم، التي تعني أن يعطي كل إنسان ما يوافقه ويناسبه من الحكمة، انطلاقا من قوله تعالى: ﴿وَلَا كَسْرَ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَلْكَتَبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79]، والربانيون الذين جمعوا مع العلم البصارة بسياسة الناس. وهذا باب واسع يدخل في خانة الحكمة، ومراعاة أحوال المخاطبين، واعتبار الواقع، وما يكتنفه من التحديات والتجاذبات والتيارات..

خامسا: الشروط الأخلاقية وهي ذات أهمية بالغة في هذا الباب، والمراد بها ما ينبغي أن يكون عليه المبلغ من مطابقة أحواله لحقيقة ما يبلغه ويدعو إليه، حتى يكون مسموع الكلمة، نافذ التأثير، وهو ما كان عليه حال نبينا صلى الله عليه وسلم الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، وقال أيضا: ﴿بِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ بَقْطًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَبْقَيْتُكُمْ لَاحِقًا مِّنْ حَوْلِكَ فَاغْفِرْ لَهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]، وقال أيضا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّخُطِي غَظِيْبٌ﴾ [القلم: 4].

والقول في هذا واسع لا تسمح هذه المقالة بالتفصيل فيه.

سادسا وأخيرا: ضرورة التيقن بأن الرسالة وصلت، وأن مضامين التبليغ إلى القلوب نفذت، وبالمراد المطلوب ظفرت، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ألا هل بلغت» أكثر من مرة، أحيانا مرتين، وأحيانا ثلاث مرات، تأكيداً للبلاغ وحرصاً على الإنجاح والنفاد.

1 أخرجه البخاري في صحيحه، رقم الحديث: 127

وتفسير ذلك أن المبلغ في حقيقته إنسان يتفاعل، وداع إلى الهدى والحق يتعارك، بحرقة وحرارة، وحرص بالغ ومرارة، وليس آلة صماء، أو ساعي بريد بارد ومحaid لا يهمل هل نفذت حجتة، ونجحت هدايته، أم لا؟

وهذا التفاعل وحمل الهم على هذا النحو هو ما يدفع المبلغ إلى الانشغال الدائم بالنتائج والآثار، وقبل ذلك بسلامة وسائله، وصحة طرائقه، وصفاء رؤيته لبيئته وواقعه، وحسن تقديره لمتغيراته وتحدياته، بما يتطلبه اليقظة التامة، والنظرة المستوعبة والثاقبة، والعمل على الانخراط في التكوينات المستمرة والمتكررة، مع الاجتهاد والتجديد، والمواكبة والتحديث، على مستوى الخطاب والمضمون والوسائل وكل شيء، ودائماً في إطار التعلق الكامل بالله، وإلجاء الظهر إليه، وحصر استمداد التوفيق والعون عليه، حتى يكون الأمر كله به سبحانه وله.

ومن كان كذلك حقاً وصدقاً كان الله له ولياً، وبه حفيماً، وكفى بالله وكيلًا.
والحمد لله رب العالمين.



معالم البلاغ النبوي في تربية الشباب

ذ. المصطفى زمهني

رئيس المجلس العلمي الجهوي لجهة بني ملال- خنيفرة

تمهيد:

قبل التطرق لبعض ما يتعلق بمعالم البلاغ النبوي في تربية الشباب، أهد لهذه المقالة بمقدمتين أراهما أساسيتين في تأطير الموضوع، فأما الأولى فهي منتصبة للإلماع إلى أهمية دراسة البلاغ النبوي في السنة النبوية عامة، والسيرة المنيفة خاصة، في استمداد ما يفيد، واستنباط ما ينفع في موضوع تربية الشباب، فالمدرسة النبوية مدرسة زاخرة بالجواهر التربوية والدرر التعليمية، وهي قينة بأن تقدم لجيل اليوم في كل مجالات الحياة ما به يسمو قدره، ويعلو شأنه، ويشمخ شأوه، إن حسن فهمها، وصح منهج توظيفها.

إن اعتماد حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مرجعا للحياة العامة للناس، هو المحجة اللاحبة التي تعبد الطريق، وتوصل إلى أعلى القمم للنهل من فيض خيره، وعميم فضله، والكرع من سليم فكره وعميق فهمه، وما أحوج أمتنا في زماننا هذا الذي أضى فيه العالم قرية صغيرة، بل حيا صغيرا صعب فيه صون الهوية وحفظ الخصوصية، إلى هذه التجربة النبوية الخالدة للانتفاع من مناهج تديرها، ومسالك عملها في أمور الحياة عامة، وفي مسألة الشباب خاصة، لنتلمس الخطى الرئيسة، والمعالم الأساسية في رعايته وحمايته وتأهيله. ولذلك ناسب أن توصف مهمة النبي الكريم بالبلاغ، كما في قوله عز وجل: ﴿بَاعَلِّمُوا أَنْتُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾¹، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾²، وقوله عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتِي وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾³.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «بلغوا عني ولو آية»⁴.

أما المقدمة الثانية، فتتعلق بالتأكيد على أهمية قضية الشباب التي تعد أولوية الأولويات في بناء مستقبل الغد، وإعداد أجيال بانية للمسار الحضاري المنشود، فقد كان الشباب عبر التاريخ مفتاح كل إصلاح، وأساس كل صرح، وهو الأمل والمستقبل لأي أمة من الأمم، وإن الاعتناء به ورعايته هو السبيل الأقوم في الاستثمار الأنجع، والإعداد الأمثل، في هندسة الغد المأمول.

1 سورة المائدة، الآية 94.

2 سورة النور، الآية 52.

3 سورة المائدة، الآية 69.

4 صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

ولعل من أهم ما يمكن استمداده واستخلاصه من هذه النظرة العجلى في سيرة خير العباد، المعالم المنهجية الآتية:

- الإيمان بقيمة الشباب والثقة به.
- القرب من الشباب.
- الشمولية والتوازن والاعتدال في التربية والتوجيه.
- الواقعية في التعامل.
- الرحمة والحكمة في التقويم والتسديد.
- حسن الاستثمار وجودة التوظيف.

الإيمان بقيمة الشباب والثقة به:

ويكفي بيانا لهذا الملحظ أن دعوته صلى الله عليه وسلم دعوة شبابية، قامت على أكثاف الشباب، الذي حالف مشروعه منتصرا له ولمنهجه في التغيير والإصلاح.

ولعل أبرز ما حمل الشباب على تلقائية الانخراط في مشروع الرسول صلى الله عليه وسلم، ما لمسه في فكر نبيه من الثقة به والإيمان بكفاءته. وقد تجسد ذلك في سيرته العطرة من خلال مواقفه الرائعة مع الشباب، وتصرفاته الجليلة معه، ومن ذلك ما روي عنه صلى الله عليه وسلم: «أوصيكم بالشباب خيرا، فإنهم أرق أفئدة، إن الله بعثني بشيرا ونذيرا، فخالفتي الشباب وخالفني الشيوخ، ثم تلا قوله تعالى: بَطَّالٌ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ»¹.

ولأن الأمر كذلك، فقد عرض كتاب ربنا نماذج هؤلاء الشباب ممن صنعوا التاريخ، وأسهموا في بصر حلقاته بما أسدوه للبشرية من خير وفضل كإبراهيم عليه السلام، الذي ورد عنه في الذكر الحكيم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا بُتَىٰ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾³، وشباب الكهف الذين قال عنهم الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ أَمْنُوا بِرَبِّهِمْ وَزُنُّهُمْ فَهَدَىٰ﴾⁴ وغيرهم من القدوات الصالحة.

وعلى هذا المهيح السديد القائم على الإيمان بقيمة الشباب والثقة بكفاءته، سار السلف الصالح في بناء حضارة الإسلام. فهذا سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لما أراد جمع القرآن، كلف زيد بن ثابت بهذا العمل الجليل.

1 سورة الحديد، الآية 15.

2 ذكره الثعالبي في « اللطائف والطرائف » ص 250.

3 سورة الأنبياء الآية 60.

4 سورة الكهف الآية 13.

يقول الإمام الزهري: «لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتیان واستشارهم يبتغي حدة عقولهم»¹.
 وكان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، إذا رأى الشباب، قال: مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، أوصانا رسول الله أن نوسع لكم في المجالس، وأن نفهمكم الحديث، فأنتم خلوفنا، وأهل الحديث بعدنا².

القرب من الشباب:

بالرغم من مقام النبوة وأعظم به من مقام! لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم بعيداً عن قومه وشبابه، بل إنه كان أقرب إليهم في كل قضاياهم وأمورهم يشاركونهم ويقوم اختياراتهم ويوجههم للتي هي أقوم، ويخوض معهم فيما خاضوا فيه من موضوعات الدنيا والآخرة، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: «كنا إذا جلسنا إليه صلى الله عليه وسلم إن أخذنا في حديث في ذكر الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»³.
 وقد تجلّى هذا القرب واتضح في لغته وحديثه مع الشباب، وهذه مقتطفات من ذلك:

- أنه صلى الله عليه وسلم عندما يمر بالصبيان يسلم عليهم⁴.
 - مواساته للطفل الذي مرض عصفوره، فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يدخل علينا، ولي أخ صغير يكنى أبا عمير، وكان له نغريلعب به، فمات فدخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرآه حزينا، فقال: ما شأنه؟ قالوا: مات نغره، فقال: «يا أبا عمير ما فعل النغير»⁵.

- عن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»⁶.

1 جامع بيان العلم وفضله، للحافظ ابن عبد البر 85/1.

2 شعب الإيمان، للبيهقي.

3 أخلاق النبي وآدابه، للأصبهاني، ص 43.

4 صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان، وصحيح مسلم، كتاب السلام، باب استحباب السلام على الصبيان.

5 صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل.

6 سنن الترمذي، وهو حديث حسن صحيح عنده.

-روى الإمام أحمد عن الصنابحي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيدي يوماً، ثم قال: «يا معاذ! والله إني لأحبك». فقال معاذ: بأبي وأمي يا رسول الله، وأنا والله أحبك، فقال: «أوصيك يا معاذ! لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك». قال: وأوصى بذلك معاذ الصنابحي، وأوصى الصنابحي أبا عبد الرحمن الحبلي، وأوصى أبو عبد الرحمن عقبة بن مسلم.

الشمولية والتوازن والاعتدال في التربية والتوجيه:

ونقصد بذلك حرصه صلى الله عليه وسلم على تكوين شخصية إنسانية يأخذ فيها كل مكون من مكوناتها حظه الطبيعي دون إفراط أو تفريط، لذا كان يراوح في تربيته للشباب بين ما هو عاطفي، وما هو عقلي، وما هو حسي، نشدانا للتوازن والاعتدال ودرءاً لكل غلو أو تطرف أو تشدد. ومن أجل ذلك كان صلى الله عليه وسلم لا يتوانى في معالجة كل تصرف يظهر أنه حاد بصاحبه عن جادة العدل والوسط، إيماناً منه بخطورة الانحراف الفكري الذي يعد أشد وأعظم من الانحراف السلوكي.

والأمثلة في هذا الصدد كثيرة نذكر منها على سبيل التمثيل:

-قوله صلى الله عليه وسلم للرهط الثلاثة: «فن رغب عن سنتي فليس مني»، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فن رغب -أعرض- عن سنتي فليس مني»¹.

-عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال له: كل، فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما

1 - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، وصحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم.

كان من آخر الليل، قال: سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «صدق سلمان»¹.

الواقعية في التعامل:

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في تعامله مع الشباب مثاليا حالما يخاطبه من غير استحضار لطبيعته ودراية بنفسيته، بقدر ما كان واقعا عارفا بخصائصه، لذا لم يقمعه في شهواته وزواته، وإنما أقر بها واعترف بصعوبة المرحلة العمرية لهذه الفئة الحيوية من المجتمع، مركزا في ذلك على تهذيبها لتصرف في طرقها المشروعة، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليعجب من شاب ليست له صبوة»²، والصبوة هي الميل والهوى.

وقد دلت جملة من مواقف صلى الله عليه وسلم على هذه الواقعية نذكر منها:

- حديث مالك بن الحويرث: أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون، فأقننا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رفيقا، فلما ظن أنا اشتيننا أهلنا أو قد اشتقنا، سألنا عمن تركنا بعدنا، فأخبرناه قال: ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلوهم ومروهم، وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها، وصلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم أكبركم³.

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء⁴.

الرحمة والحكمة في التقويم والتسديد:

إن أوعب وصف لرسالة الإسلام وصف الرحمة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾⁵، لذا ناسب أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رحيما بأتمته، رفيقا بها، حكيما في تدابير التوجيه والإصلاح، وهذا ما تذكره كتب الشمائل عن معاملته صلى الله عليه وسلم للناس عامة وللشباب خاصة. ومن أمثلة رحمته وحكمته ما ورد في تصرفه إزاء الشاب الذي جاءه يستأذنه في الزنا. فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله،

1 صحيح البخاري، كتاب الصيام، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له.

2 مسند أحمد، مسند عقبة بن عامر الجهني.

3 صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

4 صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة.

5 سورة الأنبياء، الآية 106.

أذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه! فقال: «ادنه»، فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: «أتحبه لأهلك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأهلهم»، قال: «أفتحبه لابنتك؟»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أفتحبه لأختك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»، قال: «أفتحبه لخالتك؟»، قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»، قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه»، فلم يكن بعد - ذلك الفتى - يلتفت إلى شيء¹. ومن ذلك أيضاً ما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تقبلون الصبيان فما نقبلهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»².

حسن الاستثمار وجودة التوظيف:

إن من مظاهر عناية الرسول صلى الله عليه وسلم بالشباب حسن استخراج مواهبهم وجميل الاستفادة من طاقاتهم، لذا كان استثمارهم ناجحاً وتوظيفهم متقناً بناء على معرفته الدقيقة بما يناسبهم من مهام ويلائمهم من مسؤوليات، فقد كان صلى الله عليه وسلم يصطفي للمهام الجليلة الشباب بحسب ما عن له منهم من مخايل النجابة والموهبة المتوافقة مع طبيعة التكليف المطلوب. والناظر في السيرة النبوية يلمح هذه العبقرية الفذة للرسول الأكرم في إشراك الشباب في توزيع الأدوار وتحمل المسؤوليات مع وجود صحابة كبار ممن لهم قدم سبق في الإسلام، فقد كان معاذ مقدماً في الفقه، وأبي بن كعب في القرآن، وزيد بن ثابت في الترجمة، وأسامة في الجيش ... وبعد:

فهذه بعض ملامح المنهج النبوي في رعاية الشباب تبين من خلالها أن ما أنجز من روائع الحضارة، ومن نفيس المكرمات، كان للشباب فيه إسهام وافر، وحضور قوي. وإن استئناف أمجاد السلف، والمضي قدماً في التشييد والعمران، لن يستقيم أمره ما لم يخرط فيه الجميع، وفي طليعته شباب الأمة وفتيتها، وذلك بالثقة بكفاءته، والإيمان به فاعلاً ضرورياً في كل مناحي الحياة.

1 - مسند أحمد، مسند أبي أمامة الباهلي.

2 - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

وإن مما يبعث على الطمأنينة ما يتميز به بلد المغرب من تعاقد السلطان والقرآن في خدمة الإنسان، حيث تتولى إمارة المومنين حفظ الأصول، والتعلق بالجدور، في انسجام وتناغم مع العصر، كما يتبدى ذلك واضحا في خطب أولياء أمور هذا البلد التليد، ومن ذلك قول أمير المومنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس حفظه الله: «لقد سبق أن أكدت، في خطاب افتتاح البرلمان، على ضرورة وضع قضايا الشباب في صلب النموذج التنموي الجديد، ودعوت لإعداد استراتيجية مندمجة للشباب، والتفكير في أنجع السبل للنهوض بأحواله.

فلا يمكن أن نطلب من شاب القيام بدوره وبواجبه دون تمكينه من الفرص والمؤهلات اللازمة لذلك. علينا أن نقدم له أشياء ملهوسة في التعليم والشغل والصحة وغير ذلك. ولكن قبل كل شيء، يجب أن نفتح أمامه باب الثقة والأمل في المستقبل ...

فتمكين الشباب من الانخراط في الحياة الاجتماعية والمهنية ليس امتيازاً: لأن من حق أي مواطن، كيفما كان الوسط الذي ينتمي إليه، أن يحظى بنفس الفرص والحظوظ من تعليم جيد وشغل كريم»¹.

والحمد لله رب العالمين.

1 مقتطف من الخطاب الملكي بمناسبة الذكرى الخامسة والستين لثورة الملك والشعب.



أسس تبليغ الدين لما ينفع المسلمين

ذ. حـدو أمـوني

عضو المجلس العلمي المحلي لإقليم مولاي يعقوب

الحمد لله الذي جعل الدين مبنيا على أسس متينة، ومحكما بقواعد رصينة، ومشملا على حكم ثينة، فكان جامعا لكل معاني الخير والفضل، شاملا لصنوف اليسر والعدل، والصلاة والسلام على من بلغ الدين بكامله، وجاء بالإسلام على تمامه، وبين طريق تبليغ الدين، لمن أراد أن يكون من المهتدين، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار، وصحابته الأخيار، الذين نشروا الدين في كل الأمصار، والتابعين لهم ما كور الليل على النار.

أما بعد؛ فإن الدين شرع الله الذي اختاره للعباد، ليحققوا به سعادة الدارين ويحصلوا بتطبيقه على المراد، بما اشتمل عليه من المنافع والمصالح، وبما يحقق للعبد من سعادة تامة وعيش صالح، وما فيه من الحقائق التي تزيل غياهب الجهل والشبهات، وما انطوى عليه من الدقائق الكاشفة لكل الترهات والانحرافات. وإن الدعوة إلى الله من أفضل القرب؛ وتبليغ الدين ببصيرة من أجل ما له المرء انتدب، بيد أن المبلغ لا بد أن يكون على بينة بما يقوم به، وأن يستشعر المنزلة التي تبوأها، وأن يدرك مكانة أمر تبليغ الدين، وأنه ليس أمرا هينا يقوم به كل من هب ودب، أنى حصل وكيفما اتفق، وإنما للتبليغ ضوابط وقواعد، وأسس تثمر الفوائد وتنتج الفرائد، وشروط بها يتم الظفر بالمقصود، ومناهج بمراعاتها يحصل الهدف المنشود.

فالتبليغ لدين الله إذن من أعز ما يقوم به الإنسان، ومن أشرف ما ينطق به اللسان، كيف لا وقد قال صلى الله عليه وسلم: «بلغوا عني ولو آية»، فتضمن هذا المقطع من الحديث تكليفا [بلغوا]، وتشريفا [عني]، وتخفيفا [ولو آية]، ونادى ربنا الكريم رسوله محمدا عليه السلام أمرا إياه أن يبلغ ما أنزل إليه فقال عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتِي وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾¹، مما يبين أن التبليغ للدين أمره عظيم، وخطره جسيم، لأنه إحياء لمهمة الأنبياء، وسير على سنة المرسلين، وبيان عن رب العالمين؛ ومن أجل إيضاح أهم الأسس التي لا بد من مراعاتها، ولا عدول عن بيانها، لمن أراد تبليغ الدين بوجه ينفع

المسلمين ويحقق سعادتهم، حتى ينعموا بالحياة الطيبة في الدنيا قبل الآخرة، لكل هذا كتبت هذا البحث الموسوم بـ: «أسس تبليغ الدين لما ينفع المسلمين»، وقد جعلته راجعا إلى ثلاث وقفات في كل من: التمهيد وأسس التبليغ والخاتمة.

أشير في الوقفة الأولى الممهّدة، إلى أن الدين الإسلامي هو الدين الذي اختاره رب العالمين للناس أجمعين، وأنه جاء بالرحمة لكل الوري، سالكا بهم طريق الأمام لا الرجوع إلى الوراء، وأبين في الوقفة الثانية الأسس التي لا بد منها في تبليغ الدين لما ينفع المسلمين، شارحا لها بما يوضح معناها ويكشف عن مغزاها، وأخيرا أضع في الوقفة الأخيرة خاتمة تتضمن إشارات وخلاصات، فأقول وبالله التوفيق، وعليه اعتمادي في كل جلي أو دقيق:

الوقفة الأولى: في بيان كون الإسلام دينا عالميا قد جاء بالرحمة والسعادة للإنسانية كلها هذا الدين الإسلامي الحنيف دين عالمي، قد ارتضاه الإله الكريم لعباده، وجاء به النبي الأمين عليه السلام رحمة وهدى للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾¹، يقول الإمام الرازي: «النبي عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا، أما في الدين فلا أنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة، فبعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام، وأما في الدنيا فلا أنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه»². وقد عدّ كون النبي صلى الله عليه وسلم -وحده دون غيره من الرسل- رسولا للعالمين من الأمور التي أكرمها الله بها واختص بها، فعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة»³.

ومن ثمة فلا يوجد هدى مبين، ولا شرع مستقيم، يجب على البشرية كلها أن تتبعه وتعبّد الله به، وتحقيق على منهاجه سعادتها في الدنيا والآخرة سوى دين الإسلام، ومن ابتغى دينا غير الإسلام فقد تطلّب في الماء جذوة نار، ولن يكون لعمله أي اعتبار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾⁴.

1 سورة الأنبياء آية: 106.

2 مفاتيح الغيب بتصرف يسير، 22 / 193.

3 صحيح البخاري باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا» رقم الحديث: 438.

4 سورة آل عمران آية: 84.

يقول الإمام أبو السعود في هذه الآية: «والمعنى: أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقْدُ للنفع واقع في الخسران، بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها»¹. وبالجمله، فإن القرآن الكريم يربط الإنسانية بخالقها الجليل، لتكون وجهتها واحدة، فيسهل جمعها واتفاقها؛ إذ بتوحيد الله والإيمان به تكتسب قيمة وجودية، وتنقذ نفسها من العدم والعبث في الدنيا، والخسران في الآخرة؛ لذلك فإن تفويض أمر الخلق لصانع واحد يسهل أمر اجتماعها ووحدتها². ومن هاهنا فقد جاءت في القرآن الكريم آيات تدعو إلى الإسلام، كما سلك القرآن في هذه الدعوة مجموعة من الأساليب التي تحقق المقصود، وترغب كل الناس في الدخول في رحاب الإسلام بفضل ما اشتمل عليه من السماحة والتيسير ورفع الحرج وغير ذلك، كما أن هذا الدين مشتمل على ما ينفع المسلمين ويحقق مصالحهم الحقيقية في الدنيا، ويشرهم بالفضل والخير والأجر والجنة في الآخرة، إن هم حققوا ما طلب منهم من الإيمان المستقر الذي لا يكره شيء، والعمل الصالح الذي فيه الإخلاص للخالق عز وجل.

الوقفه الثانية: في إيضاح أسس تبليغ الدين لما ينفع المسلمين

إن من انتصب لتبليغ الدين والدعوة إلى الله وتبيين حقائق الإسلام لعموم المسلمين، يجب عليه أن يبني عمله الجليل هذا على أسس وضوابط، تصونه من العبث في التبليغ، وتقويه الزلل في الدعوة، وتوضح له المعالم والمناهج التي يلزمه أن يقتفي أثرها ويستنير بهداها؛ حتى يكون لتبليغه أثر صالح، وينتج عن عمله نفع واضح؛ ومن ثمة فإن المبلغ ليس كغيره من عامة الناس، بل شأنه أن يكون في صدارة كل خير، وأن ينأى بنفسه عن كل ضير، وحري به أن يتصف بأوصاف كريمة وأخلاق فاضلة، كما يجب عليه ويلزمه حتماً أن يكون على علم بما يدعو إليه، وأن يكون قدوة في خلقه وأفعاله، حيث يدعو بحاله قبل مقاله، ومن هاهنا يكون لديه منهج محكم وسير متوازن، به يتمكن من تبليغ الدين بكل اقتدار، ويحقق النتائج المطلوبة دون عثار، وإن تفصيل هذه الأسس التي ينبغي أن يكون عليها المبلغ لينفع الناس أمر يحتاج إلى بيان، واستنطاق جنان وترقيم بنان؛ ولهذا فإنني سأكتفي هنا بإشارات مبصرة، آملاً أن تكون إن شاء الله للمنهج المطلوب مقرر، وهذا ما سأذكره في هذه الأسس الثمانية، راجياً أن تكون في الموضوع كافية، وبزبدة ما تناثر في الكتب وافية، مبينا مضامينها في الكلمات الآتية:

1 إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (2/ 55)

2 أصول تدبير الاختلاف في القرآن الكريم، ص: 93.

الأساس الأول: العلم والبصيرة

من المسائل المعروفة عند المناطق أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره وتصويره، وبيان هذه القاعدة في معرض أسس التبليغ: أن المبلغ للدين ينقل معاني القرآن والحديث ودلالاتهما إلى الناس، فكان من أوجب الواجبات عليه أن يستوعب تلك المعاني، وأن يفهم تلك الدلالات على أكمل وجه وأتم صورة، حتى يستطيع أن ينقلها إلى المستمعين من غير تحريف أو تغيير، أو العدول بها عما يحقق مقاصدها ويثمر نتائجها.

ولهذا فإن المفروض في المبلغ أن يكون عالماً بما يدعو إليه، على بصيرة بما يورده من نصوص وأقوال أثناء عرض الإسلام، وأن يكون متمكناً من مجال الدعوة، قد اكتسب المراس في طرقها وأساليبها، له زاد علمي يستطيع به دحض الشبهات والرد على كل التهم التي يوردها أهل الباطل، ويريدون جعلها حاجزاً مانعاً أمام الدعوة إلى الله؛ ومن ثمة فالجاهل لا يفيد في التبليغ السديد، لأنه فاقد للرأي الرشيد، إذ إنه سيفسد من حيث يظن أنه يصلح، كما قيل:

ذاك الذي بغير علم يعبد * لا يصلح العمل لكن يفسد

ولا شك أن الدعوة إلى الله عبادة عظيمة، فكان مما تقتضيه أن يكون ممارستها على بينة من أمره، قد ملك البرهان والحجة على ما يقول، وقد سمى القرآن الكريم هذا العلم المطلوب في الدعوة بصيرة، فقال تعالى: ﴿فُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾¹.

وقد أحسن الإمام البقاعي في بيان معنى هذه البصيرة بقوله: «{على بصيرة} أي حجة واضحة من أمري بنظري الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة وترك التقليد الدال على الغباوة والجمود؛ لأن البصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل ديناً ودنياً، بحيث يكون كأنه يبصر المعنى بالعين»². وإن في الأمر بالقراءة والتعلم قبل الاشتغال بدعوة الناس إلى الإسلام وتبليغ شعائر الدين لهم إشارة وتليحاً لأهمية العلم قبل التبليغ، قال تعالى: ﴿إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾³، ففي هذا التقديم تنبيه على أن الدعوة والتبليغ لأحكام الدين لا بد أن يتقدمهما العلم والمعرفة خصوصاً بالأمور التي يقصد الإنسان تبليغها وإيصال أهدافها وحقائقها للناس.

1 سورة يوسف آية: 108.

2 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 10/ 242.

3 سورة العلق الآية: 01، لأن المشهور في علوم القرآن أن سورة العلق أول ما نزل، وفي المسألة أقوال أربعة جمعها بعضهم بقوله:

واختلفوا في أول الذي نزل ××× من ذكر ربنا الكبير المتعال

مزمّل مدثر والقلم ××× وسورة العلق ذا المقدم

وإن مما يفتح بابا كبيرا من الشر على الأمة أن يتصدر الجاهل مجالس العلم ويعد نفسه من أهل البيان والبلاغ، فيثق العامة بأقواله ويأخذون بآرائه فيهلكهم بجهله وضلاله، سواء كان قاصدا لذلك وهذا منكر عظيم، أو غير قاصد فيكون كمن يروم النفع وهو سائر في طريق الفساد، كما قيل:

رام نفعاً فضر من غير قصد * ومن البر ما يكون عقوقاً

ولهذا أخبر صلى الله عليه وسلم أنه عندما يموت العلماء يبقى أهل الجهل في الأرض يدعون العلم والفهم في الدين فحينما يسألون يحييون بالمنكر والخراب فيضلون هم أولا ويضلون غيرهم ثانيا، ونص الحديث: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»¹.

قال الإمام ابن أبي جمرة في ذكر ما يستفاد من الحديث: «فيه دليل على أن أخذ الأشياء على غير ما أحكمته الشريعة لا توجد لها فائدة، بل تنعكس الفائدة بالضرر؛ لأن العوام لم يتخذوا هؤلاء الجهال رؤساء إلا لأجل الفائدة التي عهدوها ممن تشبهوا بهم، وهو الإرشاد لما يصلحهم، فلما لم تكن فيهم الشروط التي أحكمتها الشريعة جاءهم إذ ذاك ضد ما أرادوه وهو الضلال»².

الأساس الثاني: القدوة الحسنة بالأفعال قبل الأقوال

من الأسس التي يقوم عليها أمر تبليغ الدين الانطلاق من النفس ومحاسبتها، حيث يأخذ المبلغ عهدا مع نفسه أن يكون أولا مطبقا لما يمليه على الآخرين، وعاملا بذلك في نفسه قبل تبليغه لغيره، حيث تترجم أفعاله وسلوكه وتصرفاته ما ينطق به ويدعو إليه، ولعمري إن الدعوة بالحال أوقع في النفس من الدعوة بالمقال، ومن هنا فلا يمكن أن تعطي دعوة المبلغ النتائج المطلوبة والثمار المقصودة إلا إذا كانت أفعاله تصدق أقواله؛ وذلك بأن يكون قدوة بأفعاله وأحواله قبل أن تجري الدعوة على لسانه وأقواله، وهذا أمر جار في دعوة المسلمين وغيرهم، وفي غيرهم يكون الأمر أشد، فإن كان يعمل بما يبلغه ويبينه للناس كان ذلك أدعى لقبول قوله، وإلا فلا معنى للدعوة أصلا، وقد قيل:

من خالفت أقواله أفعاله * تحولت أفعاله أفعى له

1 صحيح مسلم باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، رقم الحديث: 2673.

2 بهجة النفوس لابن أبي جمرة الأندلسي، 1 / 241.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾¹.
ولفظ [مَنْ] في الآية وإن ذكر بعض المفسرين أن المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان غاية في الدعوة حالا ومقالا، لكن يمكن أن يعمم اللفظ وينسحب على كل من يدعو إلى الله ببصيرة ويعمل الصالحات، ويكون أسوة بفعله قبل قوله.
وعلى هذا العموم نبه الإمام ابن عطية بقوله: «وهو لفظ يعم كل من دعا قديما وحديثا إلى الله تعالى وإلى طاعته من الأنبياء والمؤمنين، والمعنى: لا أحد أحسن قولاً ممن هذه حاله»².

الأساس الثالث: اعتماد القول اللين والملاطفة في الخطاب

القول اللين والمنطق الجميل والملاطفة في الخطاب من الأسس المطلوبة في التبليغ؛ لما لها من تأثير بالغ في النفوس، والانطلاق من التشديد في الألفاظ والتجريح يتنافى مع الحكمة المطلوبة في الدعوة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ بَطْشًا غَلِيظًا لَّفَلَبْتَ لَانْفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ بِأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾³.
والمعنى: برحمة من الله لنت لهم يا رسول الله، فكلمة [ما] زائدة بعد الباء، ولم تكف حرف الباء عن عمل الجر، عملاً بقول ابن مالك رحمه الله:

وبعد من وعن وباء زيد ما * فلم يعق عن عمل قد علما

قال العلامة ابن عاشور في معرض بيان اللين الذي اتصف به الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته وتبليغه: «اللين هنا مجاز في سعة الخلق مع أمة الدعوة والمسلمين، وفي الصفح عن جفاء المشركين وإقالة العثرات، فخلق الرسول مناسب لتحقيق حصول مراد الله تعالى من إرساله، لأن الرسول يحيي بشريعة يبلغها عن الله تعالى، فكان لينه رحمة من الله بالأمة في تنفيذ شريعته بدون تساهل، وبرفق وإعانة على تحصيلها، فلذلك جعل لينه مصاحباً لرحمة من الله أودعها الله فيه، إذ هو قد بعث للناس كافة، ولكن اختار الله أن تكون دعوته بين العرب أول شيء؛ لحكمة أرادها الله تعالى في أن يكون العرب مبليغي الشريعة للعالم»⁴.

1 سورة فصلت آية: 32.

2 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 5 / 15.

3 سورة آل عمران، آية: 159.

4 التحرير والتنوير، 4 / 145.

قال عز وجل لما أرسل موسى وأخاه هارون لدعوة فرعون مع ما وصل إليه من الطغيان والكبر والجحود: ﴿قُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾¹.

قال المفسرون والمعنى: قولا له قول لطيفا رقيقا؛ وذلك بأن تكون البداءة معه بالرغبة قبل الرهبة ليلين بها ويستجيب، ومن ثمة قال بعض العارفين: يا رب هذا رفيقك لمن عاداك، فكيف رفيقك بمن والاك؟ ومن هذه النصوص ينجلي أن من الأسس المهمة في تبليغ الدين دعوة الناس بالرحمة واللين، وتقريب شعائر الدين إليهم بحكمة ويسر؛ فإن هذا أدعى للانقياد والقبول، وأما من شدد على الناس في القول، وأدخل عليهم العسر والعنت حسا أو معنى، فلا شك أنهم سينفرون من دعوته، وسينفضون من حوله تاركين ما جاء به ولو كان في نفسه صالحا مفيدا.

الأساس الرابع: البدء بالأهم قبل المهم

من أسس التبليغ والدعوة التركيز على الأصول قبل الفروع، والاهتمام بالكليات أكثر من الجزئيات، وتقرير القواعد قبل الخوض في اللطائف والفوائد، وبيان الواجبات قصد امثالها والمحرمات قصد تركها قبل توضيح السنن والمكروهات، قال تعالى مبينا الوظيفة الأولى لجميع الرسل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾².

فذكر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة: أنه بعث في كل أمة رسولا لعبادة الله وحده، واجتناب عبادة ما سواه، وهذا هو معنى «لا إله إلا الله» لأنها مركبة من نفي وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، وإثباتها هو إفراده تعالى بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه عن طريق رسوله.

وقد جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإن هم طاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم طاعوا لك بذلك فأياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»³.

1 سورة طه، آية: 43.

2 سورة النحل آية: 36.

3 صحيح البخاري، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم الحديث: 1496.

وأمر تقديم الدعوة إلى الإسلام وتحقيق معنى الشهادتين على غيرها من الأركان والواجبات أمر معروف في الفقه أيضاً، ويرحم الله الإمام ابن عاشر الذي جعل الشهادتين شرطاً لباقي الأركان والقواعد فقال: قواعد الإسلام خمس واجبات * وهي الشهادتان شرط الباقيات قال ميارة في شرحه الكبير: «قوله [شرط الباقيات] صفة الشهادتين، وكونهما شرطاً في الخصال الباقية صحيح»¹.

كما أن أمر تقديم الفرائض على النوافل مشهور، فقد جاء في صحيح البخاري: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»²، والحديث صريح في أن الفرائض مقدمة على النوافل، وآية ذلك أن النوافل ليس لها أثر إلا لمن حصل الفرائض كما قال الإمام ابن بطال: «وفيه -الحديث- أن النوافل إنما يزكو ثوابها عند الله لمن حافظ على فرائضه وأداها»³.

الأساس الخامس: التفكير والتخطيط القبلي

إن التبليغ ليس عملية سهلة يمكن أن يقوم بها كل الناس بيسر وسهولة، وإنما هو عمل شاق يحتاج -زيادة على ما تقدم- إلى حنكة ودربة ومراس، فلتن كان خبراء التربية والباحثون في البيداغوجيات التعليمية المعاصرة يوصون بضرورة التخطيط والترتيب للدرس قبل تقديمه -صونا للزمن والحصص من الارتجالية التي قد تؤثر على بعض المحاور، وتحو بالدرس جهة الاستطراد والخروج عن الموضوع- فإن مراعاة هذا التخطيط في التبليغ أشد، واعتماد الترتيب لما سيقال للناس أسد، ومن هنا فمن الواجب على المبلغ استحضر ما ينبغي قوله وما ينبغي الإجماع عنه، ومن اللازم تقديم ما حقه التقديم، وتأخير ما حقه التأخير، ومن الأكّد معرفة أحوال الناس ومراتبهم والاندماج معهم في همومهم وما يشغل بالهم، كل هذا من أجل أن يكون للتبليغ أثر

1 الدر الثمين، ص: 62.

2 صحيح البخاري، كتاب باب التواضع، رقم الحديث: 6502.

3 شرح صحيح البخاري لابن بطال 212/10، وهو الذي يعرف بين العلماء والباحثين بشرح [فيه وفيه] لكثرة استنباطاته للمسائل الفقهية والنكت العلمية في ألفاظ الحديث.

ثم إن هذا الذي ذكر في الحديث لا يتناقض مع ما أشار إليه بعض الفقهاء من أن النفل أحياناً يتقدم على الفرض في مسائل محصورة، وقد نظمها السيوطي بقوله:

الفرض أفضل من تطوع عابد ... حتى ولو قد جاء منه بأكثر

إلا التطهر قبل وقت وابتدا ... ء للسلام كذاك إبراهيم

[وذيل البيتين الإمام الخلوقي بقوله: وكذا ختان المرء قبل بلوغه ... تتم به عقد الإمام المكثّر]

ينظر: الأشباه والنظائر لجلال الدين السيوطي، 147/1.

إيجابي في الواقع، ومتى حصل التبليغ من غير اعتبار هذه المقامات والأحوال من التفكير المسبق والتخطيط القبلي ذهب جهد المبلغ سدى، وكان عمله عبثاً لا يليق بأهل العلم.

يقول الدكتور مصطفى بن حمزة: «وبسبب توقف التبليغ السليم على التفكير الجيد والنظر الثاقب الذي يستشرف العواقب، فقد كان من شرط النبوة الذكاء والفتانة، ما دام التبليغ يحتاج إلى عمليات ذهنية مختلفة، وما دام نجاحه متوقفاً على وضع خطة ذكية محكمة للأداء، ومن قبل أن يوجه الداعي خطابه إلى المستهدف به، فإن ذلك يتطلب منه التحقق من تقنيات الأداء الكفيلة بتحقيق النتائج الإيجابية المتوخاة، كما يتطلب الموقف معرفة الفروق النفسية والاستعدادات الفردية التي يتسم بها المدعوون»¹.

الأساس السادس: تنبيه الأنام إلى محاسن الإسلام

القارئ للقرآن الكريم، والمتأمل في هذا الشرع الحكيم، والناظر في هذا الدين القويم، يجد كل ذلك يفيض حسناً وجمالاً من جهات متعددة ونواح مختلفة، وإن ذكر محاسن الإسلام وبيان ما فيه من جمال يفضي إلى تحييبه للمسلمين، كما يفتح المجال أيضاً للمخالف إذا استشعر ما تضمنه الإسلام من تلك اللطائف، ومن أبرز مزايا الإسلام وخصائصه: التيسير ورفع الحرج وإزالة العنت والمشقة والتضامن والتسامح وغيرها من السمات الدالة على تلك المحاسن.

بل إن فقهاءنا جعلوا التيسير ورفع الحرج من أصول الشريعة وليس من محاسنها فقط، يقول الإمام الشاطبي²: «إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع؛ كقوله تعالى: {وما جعل عليكم في الدين من حرج}، وسائر ما يدل على هذا المعنى؛ كقوله: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر}». قال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾³ ما نصه: «وما جعل عليكم ربكم في الدين الذي تعبدكم به من ضيق، لا مخرج لكم مما ابتليتم به فيه، بل وسّع عليكم، فجعل التوبة من بعض مخرجا، والكفارة من بعض، والقصاص من بعض، فلا ذنب يذنبه المؤمن إلا وله منه في دين الإسلام مخرج»⁴.

1 - أمانة التبليغ تأصيلاً وتنزيلاً، ص: 56.

2 الموافقات، 1/ 520.

3 سورة الحج: جزء من الآية: 76.

4 جامع البيان، 18/ 689.

وبناء على هذا فإن الداعي يستثمر هذه المحاسن ويوظفها توظيفاً حسناً حين يدعو الناس، فيبين لهم ما في الإسلام من الرحمة والعدل والصفح والسماحة، وما يشتمل عليه من التيسير ورفع الحرج وإزالة العنت، وما يحتوي عليه من المحبة والخير للناس ونشر الأمن، وما يدعو إليه من نبد الكراهية والظلم والأذى، وغير ذلك من المحاسن العديدة التي اشتمل عليها هذا الدين الحنيف، حيث لو سمعها وأدركها المخالف لكان معجباً بهذا الدين، متشوقاً ومتشوقاً إليه، راغباً في الدخول في رحابه.

الأساس السابع: ضرب الأمثال

من الأسس المهمة التي ينبغي لمن اشتغل بتبليغ الدين أن يهتم بها ما يرتبط ببيان الحقائق وتقريب المسائل عن طريق ضرب الأمثال، وهذا ظاهر لمن تتبعه في كثير من مواضع القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لما للمثل من الأهمية في تقرير المعنى المراد في الذهن وترسيخه في النفس، حتى عد بعض العلماء المثل من الأقسام التسعة التي اشتمل عليها القرآن الكريم على سبيل الإجمال، والتي جمعت في هذين البيتين¹:

ألا إنما القرآن تسعة أحرف * أتيتُ بها في بيت شعر بلا ملل

حلال حرام محكم متشابه * بشير نذير قصة عظة مثل

وبناء على هذا فإنه يجدر بالمبلغ أن ينوع في أساليب دعوته، وأن يكون أساس ضرب الأمثال من المناهج المعتمدة عنده في تبليغ الدين؛ لأن بعض الأمور تكون عسيرة في تصورها، وعويصة في استيعاب أشكالها وصورها، مما يجعل المستمع ينفر منها، فيكون ضرب الأمثال وسيلة مناسبة للتقريب وطريقة صالحة للتجيب.

ومن الأمثال التي ضربها القرآن الكريم في سياق بيان حال وحقيقة من يعبد إلهاً آخر قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ إِتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَسَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾².

قال الإمام ابن عطية: «شبه تعالى الكفار في عبادتهم الأصنام وبنائهم جميع أمورهم على ذلك بالعنكبوت التي تبني وتجتهد وأمرها كلها ضعيف، متى مسته أدنى هابة أذهبت، فكذلك أمر أولئك وسعيهم مضمحل، لا قوة له ولا معتمد³».

1 ينظر: تاريخ القرآن الكريم، لحمد طاهر بن عبد القادر الكردي، 11/1.

2 سورة العنكبوت، آية: 41.

3 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 4/318.

الأساس الثامن: التحلي بالصبر والثبات

إن تبليغ دين الله كما أراد الله أمر يحتاج إلى جهد وصبر ويقين؛ لأن الدعوة إلى الله مظنة التعب والمحن والمشاق؛ إذ هي مهمة الرسل، فمن وفقه الله أن يكون من أهلها، لا بد أن يستحضر أن طريق التبليغ لأحكام الدين ليس مفروشا بالورود كما يقال، بل هو طريق النَّصَب ومجال الثبات وسبيل الصبر والتحمل، وإن من يقرأ القرآن الكريم في سياق حديثه عما جرى للرسل الكرام عليهم السلام مع أقوامهم، وكيف صبروا حتى ظفروا، يجد آيات كثيرة تشير إلى أن الصبر في الدعوة عموما وفي دعوة المخالفين خصوصا أمر لا بد منه، لا تتحقق النتائج إلا به، وأكتفي هنا بإيراد آية هي تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وحض له على الصبر، ووعد له بالنصر، وهي أيضا نبراس لكل المبلغين لدين الله تعالى، الداعين إلى الإسلام بصبر وحكمة وبصيرة، والآية هي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرًا وَعَلَىٰ مَا كَذَّبُواْ وَادُّوْاْ حَتَّىٰ آتَيْهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِّكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِّن تَبَائِلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾¹. يقول الإمام الطبري في تقريب معنى هذه الآية: «هذه تسلية من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتعزية له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق من عند الله، يقول تعالى ذِكْرُه: اصبر على تكذيبهم إياك وما تلقى منهم من المكروه في ذات الله، حتى يأتي نصر الله، فقد كُذِّبَ رَسُلٌ مِّن قَبْلِكَ أُرْسِلْتُمْ إِلَىٰ أُمَمِهِمْ، فَنَالُوهُمْ بِمَكْرِهِمْ، فَصَبَرُوا عَلَىٰ تَكْذِيبِ قَوْمِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَلَمْ يُنْهَمِ ذَلِكَ مِّنَ الْمُضِيِّ لِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ دَعَاءِ قَوْمِهِمْ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ حَكَمَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ»².

إذ التبليغ الناجح الذي يفيد الناس، وينتفع به المبلغ أيضا لا بد له من شروط ثلاثة: أن تتقدمه بصيرة وعلم، وأن تصحبه حكمة وحلم، وأن يعقبه صبر وسلم.

ومن هاهنا فإن المبلغ لا بد أن يكون صابرا محتسبا أثناء وبعد تبليغ الدين، وأن يتحمل الإساءة التي يمكن أن تصدر خصوصا من المخالف، حتى يصل إلى هدفه ويحقق غايته، ومن صبر ظفر، كما قيل:

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته * ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

الوقف الثالث: في خاتمة هذا البحث

بعد هذه الجولة المباركة في رحاب آي التنزيل، وما سقته من لطيف أقاويل أهل التأويل، مع ما أشرت إليه من هدي سيد المبلغين، وأفضل الخلق أجمعين، ضمن سياق البحث الذي يرتبط ببيان أسس التبليغ لما ينفع المسلمين، يمكن ذكر مجموعة من النتائج التي هي ثمرة البحث وخلاصة النظر، تكون خلاصة لما تمت مناقشته، وبيان ذلك فيما يلي:

1 سورة الأنعام، آية: 35.

2 جامع البيان، 183/7.

أولاً: إن الدين الإسلامي دين عالمي، ليس لقوم دون قوم، وليس صالحا لفترة دون فترة، وإنما هو دين رب العالمين صالح لكل العالمين في كل زمان ومكان.

ثانياً: إن القرآن الكريم جاء ليسعد البشرية كلها، فهو دستور جامع لكل خير وفضل، يتضمن الإيمان والأحكام والأمثال والوعظ والرقائق وغير ذلك، كما أن فيه جانباً متعلقاً بمنهج الدعوة وأسس تبليغ الدين وأساليب نشر أحكام وشعائر الإسلام.

ثالثاً: إن تبليغ الدين ينبغي أن يكون من أجل إرشاد الناس وإسعادهم وبيان ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، كل ذلك بالعلم والحلم والصبر والتيسير وغير ذلك من أسس الدعوة الناجحة.

رابعاً: لا بد لمن انتصب لتبليغ الدين للناس أن يبني بلاغه ويجعل تبيانه على أسس متينة، وقواعد رصينة، تحفظه من الخطأ والخلط، وتجنبه الوقوع في الوهم والزلل، ومن أهم هذه الأسس:

- أن يكون عالماً بما يدعو إليه، على بصيرة بمجال الدعوة، وعلى بينة بأساليبها ومسالكتها.
- أن يكون الداعي قدوة بفعله قبل قوله، فذلك أدعى لسماع دعوته والاستجابة لمراده.
- أن يستعمل الداعي الكلام الحسن، والقول اللين في دعوته، وأن يتجنب الألفاظ المنفرة.
- أن يراعي في دعوته الترتيب اللازم، فيبدأ بالأهم قبل المهم، ويشرع في ترسيخ الأصول قبل بيان الفروع.

• أن يجيد التخطيط القبلي وأن يحسن التفكير في الأمور التي سيقولها وينقلها إلى الناس، مستحضراً مآل كلامه، عارفاً بأحوال وظروف المخاطبين.

• أن يحسن عرض الإسلام؛ وذلك ببيان ما فيه من محاسن، وما اشتمل عليه من خصال ومزايا تجعل الناس منجذبين إليه، راغبين في فهم أحكامه بغية الظفر بحكمه.

• أن ينوع في أساليب دعوته، فيستعمل إذا دعت الحاجة ضرب الأمثال لتقريب المراد إلى الأذهان.

- أن يكون أثناء دعوته متصفاً بخلق الصبر والتحمل من أجل تحقيق المراد وبلوغ المقصود.
- ومتى راعى المبلغ هذه الأسس المذكورة، واستحضرها في تبليغه للدين، كان بلاغه نافعا للناس، مزيلاً ما يروج بينهم من الوهم والالتباس، منقذاً للمخاطبين من الشر والزلل، سالكا بهم أهدي سبيل لنجاح العمل، مسهماً في بيان الحياة الطيبة، التي هي ضالة كل حبيب أريب، وغاية كل عاقل لبيب. وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب، والحمد لله رب العالمين.

مناهج التبليغ في القرآن الكريم

- منهج الثنائيات أنموذجا -

ذ. محمد الأطرش

عضو المجلس العلمي المحلي لإقليم مولاي يعقوب

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.
وبعد؛

إن خاصية عدم التفريط في كتاب الله من شيء تقتضي أنه مصدر تُستسقى منه كل بُغية، وتطلب فيه كل منية، فما من شيء إلا وفي كتاب الله حكمه، وما من علم إلا وكتاب الله مصدره، وما من منهج صحيح إلا وفي القرآن أسسه وأركانه ونماذجه، ما يجعله مرجعا لدراسة المناهج التبليغية لمضامين هذه الرسالة الخالدة، لا سيما وأنه -القرآن الكريم- رابع أربعة أركان عملية التبليغ، التي تركز على: أمر بالتبليغ وهو الله سبحانه وتعالى، ومأمور بالتبليغ وهم المبلغون على نوعين؛ الرسل بالأصالة، والعلماء بعدهم بالتبع، ومبلغ وهو القرآن الكريم، ومبلغ إليهم وهم عموم المكلفين.

وإذا كان القرآن الكريم هو الرسالة التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغها، فلا يستفاد منها مجرد الإبلاغ، بل يتعداه الأمر إلى امتثال مضامينها، والاستفادة من الطرق والوسائل التي اتبعتها في تبليغ نفسها، إذ القرآن في عمومهِ -إضافة إلى أنه الرسالة- منهج نظري تطبيقي للكيفية الصحيحة للتبليغ، ما يثمر غايات كبرى مقصودة للشارع من التكليف كلها، وهي تحقيق حياة طيبة تقوم على مراعاة المصالح الآجلة والعاجلة لمن امتثل تعاليمه، واتبع هداه.

وهكذا كان تخصيص مناهج القرآن الكريم في بلاغه بالبحث والدراسة، مما يسترشد به العلماء في دعوة غيرهم للتدين، لما تمتاز به هذه المناهج على تنوعها من الشمولية والعموم والفعالية من حيث التأثير الواقعي في حياة الناس.

والناظر في هذه المناهج -وهي كثيرة جدا- يلحظ أن منها مناهج عامة بحيث يجد لها أدلة وتمثلات في عموم القرآن الكريم، في الآيات المكية والمدنية، وفي آيات الاعتقاد والأحكام والقصص والأخلاق، كل ذلك على السواء، كمبدأ التدرج في التشريع الذي يهدف إلى رفع الحرج، ومبدأ الجدل القرآني

للمخالفين الذي يروم الإقناع، ومبدأ الثنائيات الذي يقوم على الزوجية، ويدفع للامتنال وفق قناعة كلية تتأسس على معرفة الشيء بنفسه وبضده، حتى تحصل للمكلف المقابلة بين مقصود الشارع من حيث الجلب، ومقصوده من حيث الدفع، أو المقابلة بين المراتب المتفاوتة للمصالح والمفاسد، كما ترفع الاشتباه الذي قد ينشأ عن عدم معرفة الممنوع منه في مقابل المطلوب -في نفس الأمر- والعكس، لأنها تقوم على بيانها معاً، فيندفع بذلك إشكال الإجمال أو اللبس والاختلاط، وعلى هذا المبدأ -أعني مبدأ الثنائيات القرآنية- مدار البحث، من حيث تتبع أدلتها، وجزئياتها، ومجالاتها، والغايات المتوخاة منها، وبعض نماذجها في القرآن الكريم.

إن الغرض من هذه الدراسة استنباع هذا المنهج في تبليغ الدين لعموم المسلمين وغيرهم، ذلك أنه منهج ثبتت فاعليته من حيث التأثير والإقناع الداعي للامتنال، حيث أسهم -في تكامل مع غيره من المناهج- في تربية جيل من المتدينين الممثلين المحققين لهناء العيش الدنيوي والفوز الأخروي. وهكذا فهذا المبدأ يتخذ من البلاغ القرآني مرتبة جزء من جواب كلي على الأسئلة الآتية: - كيف يمكن أن نُحيّد الهوة بين الدين والتدين في حياة الناس، بحيث يمثلون بتعاليم الدين في واقعهم المعيش؟

- إلى أي مدى يتم اعتماد الأسلوب القرآني في عملية التبليغ من حيث الاستفادة من منهج المقابلة الثنائية فيما يبلغونه للناس قصد تحقيق امتثال أفضل؟

هذه الأسئلة وغيرها، ما سنحاول الإجابة عنه في هذا البحث، وذلك وفق الخطة الآتية:

- مقدمة.

- المحور الأول: بين يدي المنهج القرآني والثنائيات القرآنية.

- المحور الثاني: نماذج من الثنائيات في البلاغ القرآني.

- خاتمة، وتتضمن خلاصات ونتائج.

المحور الأول: بين يدي المنهج القرآني والثنائيات القرآنية.

نهدف من خلال هذه المقدمات إلى كشف اللثام عن مفهوم كل من المنهج والثنائية في الاستعمال اللغوي والاصطلاحي والقرآني، مع بيان الأغراض التي تحقّقها الثنائيات من حيث هي واحد من المناهج المعتمدة في البلاغ القرآني، وتفصيل هذا الإجمال وفق ما يأتي من البيان:

أولاً: بين يدي المنهج القرآني

1. المنهج في الاستعمال اللغوي

المنهج بفتح الميم وكسرها وجمعه مناهج، والنَّهَج وجمعه نُهْج ونِهَاج، والمنْهَاج بمعنى واحد، وهو الطريق الواضح المستقيم، «والنون والهاء والجيم أصلان متباينان: الأول النهج، الطريق. ونَهَج لي الأمر: أوضحه. وهو مستقيم المنهاج. والمنهج: الطريق أيضاً، والجمع المناهج. والآخر الانقطاع. وأتانا فلان ينهج، إذا أتى مبهوراً منقطع النفس. وضربت فلانا حتى أنهج، أي سقط¹».

فدل هذا على أن هذه المادة تدور حول عدة معانٍ، وهي:

- الطريق الواسع الواضح البين، يقال طريق نهج، وطرق نهجة²، ويقال: نهج الطريق، أي استبان³.

- الطريق العام وهو المنهاج⁴. وهذا المعنى قريب جداً من المعنى الأول.

- التشقق والبلى، يقال: قد نهج ونهَج ونهَج ونهَج. وأنهجه البلى⁵.

- القهر والضبط، يقال: تنهجه تنهج، أي قهرته وضبطته⁶.

- الربو وتواتر النفس من شدة الحركة أو فعل متعب⁷.

وقد وردت كلمة المنهاج في القرآن الكريم، في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾⁸، والمعنى كما قال ابن عباس رضي الله عنه: «شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً معناه سبيلاً وسنة⁹».

1 أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون (الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399 هـ - 1979 م) م، مادة: ن هـ ج.

2 الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، المحقق: د مهدي الخزومي، د إبراهيم السامرائي، (الناشر: مكتبة الهلال، دون طبعة ودون تاريخ النشر)، مادة: ن هـ ج.

3 أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، معجم ديوان الأدب، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، (طبعة: مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة، عام النشر: 1424 هـ - 2003 م)، مادة: ن هـ ج.

4 (أبو عبيد، القاسم بن سلام الهروي البغدادي، غريب الحديث، المحقق: د. محمد عبد المعيد خان، (الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، الطبعة: الأولى، 1384 هـ - 1964 م)، مادة: ن هـ ج.

5 الفراهيدي، كتاب العين، مادة: ن هـ ج.

6 كافي الكفاة، إسماعيل بن عباد، المحيط في اللغة، المحقق: محمد حسن آل ياسين، (الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، 1414 هـ - 1994 م)، مادة: ن هـ ج.

7 مجد الدين أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، (الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، دون طبعة، عام النشر: 1399 هـ - 1979 م)، مادة: نهج.

8 سورة المائدة، الآية: 50.

9 ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1422 هـ)، 201/2.

وذهب ابن عطية رحمه الله إلى أنه يحتمل أن الشرعة والمنهاج في الآية بمعنى واحد وهو الطريق، ويحتمل أن الشرعة هي الأحكام، والمنهاج هو المعتقد¹.

وقد وردت في حديث العباس حيث قال: "فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى ترككم عن حجة بينة، وطريق ناهجة". والمعنى: «واضحة بينة»².

ومع تعدد هذه المعاني إلا أن المقصود بالمنهج في هذا السياق الخاص هو: الطريق الواضح البين المستقيم، مع تقييده بمعنى الضبط والقهر، ذلك أن من خواص المنهج - كما سيظهر في المعنى الاصطلاحي - كونه منضبطاً في قواعده وطريقته، وكما هو بين، فإن لفظ المنهج أبلغ من الطريق أو السبيل أو المسلك، نظراً لاختصاصه بالوضوح والاستبانة والاستقامة.

2. المنهج في الاستعمال الاصطلاحي.

يرد المنهج وصفا للطرق التي يسلكها الباحثون في إطار معين، من أجل الوصول لنتائج معينة، وتتغير المناهج باعتبار مقصدها، وبالنظر لطبيعة المادة المبحوثة، ولكن الجامع المشترك بينها بأنواعها أنها لا بد أن تكون وفق المسالك العلمية والتسلسل المنطقي العقلي نظرياً وعملياً، مما بوأ المنهج مرتبة الضابط والمعياري في كل بحث أيا كان تخصصه، علماً بأن قضية المنهج كانت وما زالت من الإشكالات التي ترد على العلوم الإنسانية عموماً والعلوم الشرعية على وجه الخصوص، نظراً لعدد من العوائق التي تعترضها، ليس هذا أوان بيانها.

وهكذا، فالمنهج في عموميه هو: "طريق مؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة، تهيم على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"³، أو هو: "مجموعة من العمليات العقلية الاستدلالية تستخدم في حل مشكلات العلم وبناء العلم نفسه في مرحلة من تاريخه"⁴. إن المنهج بهذا المعنى عملية تنظيمية لمجموعة من المعارف، تتم عبر اتباع مقدمات عقلية أو عادية أو وضعية، وإعمال النظر الاستدلالي فيها من حيث هو: مجموعة من الأقيسة المنطقية، واستدلال بالأثر على المؤثر، حتى نصل إلى نتائج معلومة، وهو هنا أشبه بما يعرف في علم المنطق من الانتقالات من أمورٍ حاصلة في ذهن الإنسان، إلى أمورٍ مستحصلة.

كما أن وظائف المنهج تتلخص في إيجاد حلول لإشكاليات معرفية، وبناء العلم نفسه.

1 ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، 201/2.

2 أبو السعادات، النهاية، مادة: ن ه ج.

3 عبد الرحمن بدوي، منهاج البحث العلمي، (الناشر: وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثالثة، 1977م)، ص: 6.

4 د. قاسم عبده قاسم، تطور منهاج البحث في الدراسات التاريخية، (الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، 2000م)، ص: 95.

3. المنهج في السياق القرآني.

إن ما يجب التنبيه عليه هنا هو أن الحديث عن نوع مخصوص من المناهج، يكتسب خواصه من نسبته، أي إنه قرآني، فهو بالتالي منهج كامل بكمال مصدره، وهو -طبعاً- لا ينافي القواعد المنطقية ولا النظر العقلي السليم.

وهكذا فالمنهج القرآني هو: الطرق والوسائل المتبعة لتبليغ مضامين الرسالة القرآنية، وهي سبل منضبطة تامة كاملة مطلقة، لا تتطرق إليها احتمالية النسبية بأي حال، كما أنها طريقة لبناء العلم نفسه، والمعلوم هنا هو القرآن الكريم بمضامينه.

أما إذا أردنا معنى عرفياً خاصاً للمناهج القرآنية فنقول: المناهج القرآنية هي: مجموعة الأنساق التامة والكاملة التي سلكها القرآن الكريم في تبليغ مضامينه.

ويمتاز هذا النوع من المناهج بالشمولية والعلمية والغيبية والوحدة الموضوعية بشكل دقيق يرفع عنها أي نوع من أنواع التناقض، كما يدفع عنها احتمالية الاستدراك. وهي تشتمل على مجمل وسائل وأركان وشروط وكيفيات ومقاصد وغايات التبليغ، كالتردد ومرعاة حالات المخاطب، والتنويع في التكليف، والجدل مع المخالف، والمقابلات بين الثنائيات وغيرها... وكون التبليغ يقتضي تعدية رسالة إلى مبلغ إليه بواسطة مبلغ، وما يشترط في هذا الأخير من الصدق والأمانة والتبليغ والفتانة... وكل هذا يروم مقصداً أسمى، هو مراعاة مصالح العباد في العاجل والآجل، من أجل تحقيق حياة طيبة، حيث لا فرق فيها بين الدين والدين.

ثانياً: بين يدي الثنائيات القرآنية

1. الثنائية في الاستعمال اللغوي

الثنائيات في المعنى اللغوي جمع ثنائية، وأصل المادة هو الثاء والنون والياء وهي: "أصل واحد وهو تكرير الشيء مرتين، أو جعله شيئين متوالين أو متباينين، وذلك قولك: ثَنَيْتُ الشَّيْءَ ثَنِيًّا"، وثني الشيء ثنياً: رد بعضه على بعض، وقد ثنّى واثنى، إذا أراد الرجل وجهاً فصرفته عن وجهه قلت ثنيته ثنياً، وجاء القوم مثنى مثنى أي اثنين اثنين، وصلاة الليل: مَثْنَى مَثْنَى أي رَكَعَتَانِ رَكَعَتَانِ بِتَشَهُدٍ وَتَسْلِيمٍ، فَهِيَ ثُنَائِيَّةٌ¹.
والمادة واردة في القرآن الكريم، في آيات متعددة، بألفاظ متنوعة، ومن ذلك:

1 ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة: ث ن ي.

محمد بن منظور، لسان العرب، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، (الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414هـ)، مادة: ث ن ي.

-قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾¹، أي يخفون ما في صدورهم من العداوة والبغضاء له صلى الله عليه وسلم.

-قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الثَّمَانِيَةِ وَالْفُرْعَانَ الْعَظِيمَ﴾²، فعلى تفسير السبع المثاني هنا بسورة الفاتحة، يكون سبب تسميتها بالمثاني "لأنها ثلثي في كل ركعة"³.

2. الثنائية في الاستعمال الاصطلاحي.

«تعد فرضية الثنائية (Assumption Binary) من الموضوعات التي أثارت دهشة الإنسان في مسيرة تاريخ الفكر البشري»⁴، إذ يمكن ملاحظتها في الكون بكليته، ما ألقى بتأثيره على العلوم باختلاف أنواعها، وأدى بالعلماء للبحث في مظاهرها، كل من جهته.

ويدل على هذا أنه حين «درس العلماء -على سبيل المثال- المغناطيسية وارتباطها بالملاحة بواسطة البوصلة اعتمدوا على تقسيم ثنائي، إلى قطبين شمالي وجنوبي، وهي نفسها الفكرة التي قامت عليها الفلسفة الصينية القديمة، ثنائية الين واليانغ، فالكون حسب هذه الفلسفة يتشكل من ثنائيات ضدية تجتمع في مقام واحد»⁵.

وهكذا: «الثنائي من الأشياء ما كان ذا شقين، والثنائية هي القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون...»⁶. ويظهر من التعريفين؛ اللغوي والاصطلاحي: أن الثنائيات كأبي معقولين، لا بد أن يكون بينها واحد من أربع نسب، وهي: العموم والخصوص المطلق، أو العموم والخصوص من وجه، أو المساواة أو التباين، ذلك أن منها ما يقوم على التكرار، ومنها ما يتخذ من التوالي والعطف المنطلق الأساسي، ومنها ما يعتمد على التباين، بمعنييه؛ المعنى العام ويقصد به مطلق التنوع، أي أن المتباينين لا يجتمعان وقد يرتفعان؛ والمعنى الخاص ويقصد به التناقض بين معقولين، بحيث لا يجتمعان ولا يرتفعان.

إلا أن العلاقة التي سرصدها فيما سنعرضه من نماذج منهج الثنائيات القرآنية هي التباين، فهي علاقات خاصة تقوم على التكرار والطباق والمقابلة، ويمكن تحديد معناها بأنها: مجموعة من المقابلات بين عدد من المكونات التي تجمعها منظومة واحدة، على نسق علمي يستقي مادته من القرآن الكريم.

1 سورة هود، الآية: 5.

2 سورة الحجر، الآية: 5.

3 المحرر الوجيز، ابن عطية، 373/3.

4 سمر الديوب، الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالاته، (الناشر: المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، الطبعة الأولى، 1439هـ - 2017م)، ص: 11.

5 الديوب، الثنائيات الضدية، ص: 11.

6 جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (الناشر: دار الكتاب اللبناني، دون طبعة، تاريخ النشر: 1982م)، 379/1.

3. الثنائيات في السياق القرآني

يأتي استعمال القرآن الكريم لمنهج الثنائيات تماشياً مع مبدأ الطبيعة التي خلق الله تبارك وتعالى الكون عليها، وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾¹، أي صنفين، فغني عن البيان -إذن- أن كل الكون قائم على هذا المبدأ، حركة وسكوناً، ذكراً وأنثى، خيراً وشراً، إيماناً وكفراً، زيادة ونقصاناً... وهذا المبدأ يعكس نوعاً من التكامل الذي يؤدي ضمن نتائجه إلى الوحدة بين مجموعة من المكونات، كالوحدة الموضوعية للأحكام الشرعية التكليفية، والتي يمكن أن نسميها وحدة الطلب أو الاقتضاء، وهي قائمة على ثنائية طلب الفعل وطلب الترك، وكتاهما قائم على ثنائية أخرى هي: الطلب الملزم للفعل أو الترك، والطلب غير الملزم للفعل أو الترك.

وإذا تتبعنا الخطاب القرآني، نخلص إلى أن هذا المنهج من الطرق المتبعة في تبليغ التكليف الشرعية، وهو يتخذ صوراً عديدة متنوعة، كلها تهدف إلى وضع المكلف في سياق كلي، يقوم على معرفة الشيء ومقابله، ما يفضي به إلى الاقتناع التام بأن ما يأتي به من التكليف أو ما ينتهي عنه، هو منظومة شاملة تتحدد أولاً من خلال ثنائية الخالق والمخلوق، فيحدد مرتبته -أي أنه مخلوق-، ثم يؤدي به ذلك أن المخلوق تتوارد عليه ثنائية الإيمان والكفر، فإما أن يكون شكوراً أو كفوراً، ويعرض للإيمان ثنائية الامتثال بالأوامر والنواهي، وهي جالبة لثنائية الوعد بالثواب والوعيد بالعقاب، ويندرج الوعد والوعيد في ثنائية الترغيب والترهيب، فإذا أثيب أو عوقب فذلك نتيجة لثنائية الأفعال والأقوال، وهي قد تتنوع إلى ثنائية التكليف بالأبدان، أو التكليف بالأموال، كما تتنوع التكليف في عمومها إلى ثنائية الحلال والحرام، وكل ذلك في سياق يروم مصلحة المكلف في ثنائية العاجل والآجل، ومصلحته قائمة على ثنائية جلب المنافع ودفع المضار، وهذا يضمن له الحياة الطيبة المطمئنة له مع مراعاة ثنائية المادة والروح.

فبان بذلك أن الثنائيات من المناهج التي اعتمدها القرآن في بلاغ الرسالة، إن لم تكن الأساس لمجمل المناهج التي تأتي بالتبع، إذ يمكن أن نلاحظ هذا المنهج في عمومات التشريع وفي جزئياته، ذلك أن كل ما سيق من الثنائيات يشهد له عدد كبير من الآيات، سنعرضها في المحور الثاني في معرض الحديث عن النماذج.

1 سورة الذاريات، الآية: 49.

المحور الثاني: نماذج من الثنائيات في البلاغ القرآني

إذا كانت الثنائيات منهجا مبثوثا في القرآن الكريم، فإنه يعم جميع مناحي الحياة، ومجمل مجالات التكليف، إيمانيا وعقديا، وعبادات ومعاملات، وأخلاقا وسلوكا، وتفصيل ذلك يأتي عبر عرض نماذج من كل هذه المجالات، مع ذكر ما يؤدي إليه من الغايات المقصودة للشارع.

1. ثنائيات في مجال الإيمان، وتتضمن مجموعة كبيرة، كالإيمان والكفر، والاختيار والاضطرار، والترهيب والترغيب، والوعد والوعيد، واللجنة والنار، والإلهية والإنسانية، وسنتوقف هنا على النماذج الآتية:

أ. ثنائية الإله والعالم¹.

يُقصد بهذه الثنائية ما يتصف الله تبارك وتعالى وما يتصف به سواه، ومعنى ذلك أن الله تبارك وتعالى يتصف على وجه الإجمال بكل صفة من صفات الكمال، وعلى وجه الخصوص بالوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والوحدانية، والقدرة والإرادة والعلم والحياة، والسمع والبصر والكلام، وأنه يستحيل في حقه على وجه الإجمال كل صفات النقص، وعلى وجه الخصوص كل ما يقابل الصفات الواجبة التي ذكرنا، وهي صفات غير مكتسبة ولا ممنوحة من أحد، ولها أدلة عقلية ونقلية، ومن أدلتها في القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ بِأَدْعَاةٍ بِهَا﴾²، وقوله تعالى: ﴿بَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾³، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾⁴، وغيرها من الآيات التي توجب لله كل صفات الكمال، وتنزهه عن كل صفات النقص.

في المقابل: كل ما سوى الله مخلوق، بما يقتضي جريان عدد من الصفات عليه، وأظهرها صفة التغير، وهي صفة تستتبع صفات أخرى كالحدوث والفناء والمثابرة للحوادث وعدم القيام بالنفس، والقدرة النسبية، والإرادة النسبية، والعلم المكتسب، والحياة النسبية. وظاهر أنها إن لم تكن صفات نقص، فهي تتصف بالنسبية وعدم الإطلاق. وهو ما يشهد له عدد من الآيات، ومنها: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾⁵، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ

1 نقصد بالعالم هنا كل ما سوى الله تبارك وتعالى من المخلوقات.

2 سورة الأعراف، الآية: 180.

3 سورة الشورى، الآية: 9.

4 سورة الذريات، الآية: 58.

5 سورة النساء، الآية: 28.

هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ¹، وغير هذا من الآيات التي تظهر عجز الإنسان وحاجته ونقصه وعدم استغنائه عن خالقه.

إن الغاية المتوخاة من هذه الثنائية تحديد مرتبة المخلوق، ومضمونها: أنه عبد لله، مكلف بالامتثال لأوامر الله تبارك وتعالى واجتناب نواهيه، ويجب عليه ألا ينازع الله صفاته، لأنه ليس إلهًا ولا خالقًا، وإنما هو مخلوق، والمراد من المخلوق أن يمثل لخالقه.

ب. ثنائية الوعد والوعيد.

والمراد بهذه الثنائية التبشير بخير أو التحذير من شر، فأما الوعد "فيكون بخير وشر، وأما الوعيد فلا يكون إلا بشر"²، وقد ذهب ابن الفرس إلى أن أصل هذه الثنائية قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾³، فقال: "هذه الآية أصل في الوعد والوعيد، وهي الحاكمة ببيان ما تعارض من الآيات في ذلك، وتهذيب القول فيها أن الناس أربعة أصناف؛ كافر مات على كفره، فهذا مخلد في النار بإجماع. ومؤمن لم يذنب مات على إيمانه، فهذا في الجنة بإجماع. وهذا كله في هذين الصنفين بحسب ما أخبر الله تعالى عنهم، وتائب من ذنبه مات على توبته، فهذا عند أهل السنة والجمهور الفقهاء لاحق بالمؤمن المتقدم ذكره؛ إلا أن مقتضى مذهب المتكلمين أنه في المشيئة. ومذنب مات قبل توبته، فهذا اختلفت فيه الفرق"⁴.

وهي ثنائية غالبًا ما تأتي متعاقبة في القرآن الكريم، لإظهار نوع من المقابلة بين ما يترتب على الامتثال وعدمه، من الثواب والعقاب، ومن أمثلتها بهذا النسق⁵:

- قوله تعالى: ﴿بَلِ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَسْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾⁶، وقوله تعالى بعدها: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُمْتَلِئِينَ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁷، فقابل الله تبارك وتعالى بين وعيد الكفار بالنار، ووعد المؤمنين بالجنة، مع ذكر صفات كل منها.

1 سورة فاطر، الآية: 15.

2 ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة: وع د.

3 سورة النساء، الآية: 47.

4 أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم، المعروف بابن الفرس الأندلسي، أحكام القرآن، تحقيق الجزء الأول: د/ طه بن علي بو سريج - تحقيق الجزء الثاني: د/ منجية بنت الهادي النفري السواحبي - تحقيق الجزء الثالث: صلاح الدين بو عفيف، (الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1427 هـ - 2006 م)، 77/1.

5 المصدر نفسه.

6 سورة البقرة، الآية: 24.

7 سورة البقرة، الآية: 24.

-قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرٍ﴾¹، وقوله تعالى بعدها: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَنُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾²، وما قيل في الآية السابقة يقال في هذه، بل يمكن القول إن مجمل الوعود والمواعيد نظائر، لأن المكلفين صنفان، ممثّل وغير ممثّل، والنتيجة صنفان، ثواب أو عقاب، وأعظم الثواب الجنة، وأعظم العقاب النار.

وهذه الثنائية تدرج في علم التذكير وهو واحد من أقسام علوم القرآن الثلاثة، وهي: "توحيد وتذكير وأحكام، فالتوحيد تدخل فيه معرفة المخلوقات، ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتذكير، ومنه الوعد والوعيد، والجنة والنار، وتصفية الظاهر والباطن، والأحكام، ومنها التكليف كلها وتبيين المنافع والمضار، والأمر والنهي والندب"³، والتذكير كما يقول ابن العربي: "هو معظم القرآن، فإنه ينبني على معرفة الوعد والوعيد، والخوف والرجاء والقرب، والذنوب وما يرتبط بها ويدعو إليها ويكون عنها"⁴.

إن الهدف من الوعد والوعيد يمكن تلخيصه فيما يأتي:

-التذكير، أي ترغيب المكلف في الامتثال، وترهيبه من عدمه، فيسلك إلى الله طريق الرغبة والرغبة، راجيا في ثوابه، خائفا من عقابه، وهو ما يؤسس لنوع من التوازن في الإتيان بالمأمورات التي تجلب الوعد وتدفع الوعيد، والانتفاء عن المنهيات التي تجلب الوعيد وتدفع الوعد، فإذا حصل له العلم كان أدعى إلى الامتثال، وإلا كان معاندا، و"العالم بالحق المعاند فيه أبعد من الرشد، لأنه علم الوعد والوعيد، ولم ينه ذلك عن عناده"⁵.

-إقامة المحجة عليه، فقد علم مسبقا أن للأفعال نتائج تؤدي إليها، وأنها منوطة بالثواب والعقاب، فإذا علم ذلك ولم يمتثل واجه عواقب أفعاله، ذلك أن "الموعد والمتوعد إذا عرف قدر النعمة والعقوبة وقف ذهنه مع ذلك المعين"⁶.

1 سورة آل عمران، الآية: 55.

2 سورة آل عمران، الآية: 56.

3 أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (الناشر: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة: الأولى، 1376هـ - 1957م)، 17/1.

4 أبو بكر القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي، قانون التأويل، دراسة وتحقيق: محمد السليمان، (الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة: الأولى، 1406هـ - 1986م)، ص: 628.

5 ابن الفرس الأندلسي، أحكام القرآن، 215/2.

6 أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، التبيان في إعراب القرآن، المحقق: علي محمد البجاوي، (الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه، دون طبعة ودون تاريخ النشر)، 135/1.

2. ثنائيات في مجال العمل، ومدارها على التكليف بما هي مطلوبات شرعية، ولكنها تتنوع إلى أوامر ونواهي، وعبادات ومعاملات، ومطلوبات بدنية ومالية وما اطلع على علته وما لم تعرف أسباب تشريعه... وسنقتصر هنا على النماذج الآتية:

أ. ثنائية الحسن والقبح (الشرعيين).

تتنوع الأحكام الشرعية إلى ما فيه طلب وما لا طلب فيه. ويتنوع الطلب إلى مطلوب فعله ومطلوب تركه، والأولى تتعدد إلى مطلوب فعله جزماً بحيث لا يجوز تركه، وهو الواجب، ومطلوب فعله دون جزم بحيث يجوز تركه وهو المندوب، والثانية تتعدد إلى مطلوب تركه جزماً بحيث لا يجوز فعله، وهو الحرام، ومطلوب تركه دون جزم بحيث يجوز فعله، وهو المكروه.

وأما ما لا طلب فيه فتستوي ثنائته وهي: الفعل والترك.

ومن هنا تبرز ثنائية الحسن والقبح من حيث إن الحسن: ما أذن فيه، أو ما لم ينه عنه، فيدخل فيه الواجب والمندوب والمباح، والقبح وهو ما لم يؤذن فيه أو ما نهى عنه، فيدخل فيه الحرام والمكروه. يقول ابن السبكي: "الحسن: المأذون واجبا ومندوبا ومباحا، (...) والقبح: المنهي ولو بالعموم". وهذه الأحكام بهذه المعاني كلها تُستقى من القرآن الكريم، نظراً لكونه الأصل الأول لها، ومن الآيات الدالة على ذلك بعمومه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾². وتشكل آيات الأوامر كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾³، وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾... وآيات النواهي، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ - وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ - وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾⁴... أو آيات الإذن: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾⁵، أمثلة شاهدة على هذه الثنائية.

وهكذا يمكن القول: تشكل ثنائية الحسن والقبح المنهج القرآني لمبدأ كلي عام، يقوم عليه تدين الناس وامتثالهم، إذ لا تخرج كل أفعالهم عن حسن - حسنه الشرع وأذن فيه - أو قبح - قبحه الشرع ونهى عنه -.

1 تاج الدين ابن السبكي، جمع الجوامع في أصول الفقه، علق عليه ووضع حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم، (الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 1424هـ - 2003م)، ص: 16.

2 سورة النحل، الآية: 90.

3 سورة البقرة، الآية: 109.

4 سورة الإسراء، الآية: 31-32-33.

5 سورة البقرة، الآية: 28.

وهي ثنائية تقوم على ما فيه مصلحة المكلف عاجلا وآجلا.

والنتيجة التي تؤديها هذه الثنائية:

-رفع الحرج عن المكلف وهو ما يظهر في تنوع التكاليف، وهو أمر بدهي، إذ لا يمكن أن تكون التكاليف كلها أوامر، ولا كلها نواهي، ولا أن يكون كل شيء مباحا، وهذا يرفع عن المكلف حرج أن يكون كل ما طلب منه واجب الفعل ممتنع الترك، أو العكس.

-الاختبار والابتلاء، ويظهر ذلك في أن الامتثال للواجبات يكون أحيانا أسهل من الانتهاء، خصوصا إذا تعلق الأمر بما يوافق الفطرة أو العرف أو العادة، كنفقته على زوجته وعياله... كما يكون أحيانا الانتهاء أسهل من إتيان الواجب، إذا تعلق الأمر بمنهي تنفر منه الفطرة، أو لم يحصل للمكلف العلم به، فلزم أن تكون التكاليف ذات طرفين، الإقدام والإحجام، حتى يقوم مبدأ الاختبار.

ب. ثنائية التعبد والتعليل.

نقصد بهذه الثنائية ما أورده العز بن عبد السلام في كتابه قواعد الأحكام، حيث قال: "المشروعات ضربان: أحدهما ما ظهر لنا أنه جالب لمصلحة أو دارئ لمفسدة، أو جالب دارئ لمفسدة، أو جالب دارئ لمصلحة، ويعبر عنه بأنه معقول المعنى. الضرب الثاني: ما لم يظهر لنا جلبه لمصلحة أو درؤه لمفسدة، ويعبر عنه بالتعبد¹."

ومعنى هذا النص أن الأعمال منها ما هو تعبدى لا يهتدى إلى حكمته، ولا يعقل معناه، ونحن هنا إنما نقصد المعنى الخاص للتعبد وهو جملة الأحكام الشرعية لا يلتفت فيها إلى المعاني، بحيث ثبتت برسم الشرع لها دون أن يكون إدراك المعنى مقصودا فيها، "كورود الشرع بالتكبير عند التحريم والتسليم عند التحليل، ومن هذا القبيل اتحاد الركوع وتعدد السجود، فمن أراد أن يعتبر غير التكبير بالتكبير مصيرا إلى أنه تجيد وتعظيم فقد بعد بعدا عظيما، وزال من القاعدة الكلية، فإن إيجاب الذكر عند التحليل ليس معقول المعنى²."

وخواص هذا القسم أن مناطه هو التعبد، ولا يدخله القياس، وتمتاز العبادات فيه بأنها تستمد حكمها من ذاتها، دون علة خاصة مُعرِّفة للحكم أو موجبة له، كما أن المحافظة على صورتها دون زيادة أو نقصان هو المطلوب فيها، والحكمة العامة فيها كما أورد الشاطبي هي: "الانقياد لأوامر الله تعالى، وإفراده بالخضوع، والتعظيم لجلاله والتوجه إليه، وهذا المقدار لا يعطي علة خاصة يفهم منها حكم خاص؛ إذ لو

1 قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، (الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، (وصورتها دور عدة مثل: دار الكتب العلمية - بيروت، ودار أم القرى - القاهرة) طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، 1414 هـ - 1991 م)، 22/1.

2 عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، الملقب بإمام الحرمين، البرهان في أصول الفقه، المحقق: صلاح بن محمد بن عويضة، (الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى 1418 هـ - 1997 م)، 93/2.

كان كذلك؛ لم يحد لنا أمر مخصوص، بل كنا نؤمر بمجرد التعظيم بما حد وما لم يحد، ولكان المخالف لما حد غير ملوم إذا كان التعظيم بفعل العبد المطابق لنيته حاصلًا، وليس كذلك باتفاق، فعلبنا قطعاً أن المقصود الشرعي الأول التعبد لله بذلك المحدود، وأن غيره غير مقصود شرعاً¹.

وأما القسم الثاني فهو ما هو معقول المعنى، بحيث يطلع على معنى التشريع فيه، وهي جملة الأحكام المعللة، التي تتوقف على معرفة العلة، وتكون فيها مثبتة للحكم أو رافعة له، على اختلاف الأصولين في العلة هل هي «المعرف أو المؤثر بذاته أو المؤثر بإذن الله أو الباعث»².

وأصل هذه الثنائية: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ ³ وَمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مَرِزًا وَلَا نُرْزَقُ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ⁴، وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرَ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعُفْيَةُ لِلَّهِ﴾ ⁵، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

فيفهم من هذه الآيات أن المكلف قد لا يدرك المعنى وهذا لا ينتهز عذراً لعدم الامتثال، وقد يدرك المعنى، فتقوم عليه حجة التبليغ وحجة معرفة الأسباب، والموالملة بين هذين الضربين، تعطى الامتثال فيهما نسقاً تكاملياً تتركب منه العبادة بمعناه العام، بما يشمل أفعال المكلف كانت معقولة المعنى أو لا. إن الغاية من هذه الثنائية في شقها الأول هو: اختبار المكلف في امتثاله، ومعنى ذلك أنه مأمور أو منهي عن أمور لا يدرك أسبابها ولا دواعيها، وهو مطالب بالاستجابة لما لا يفهم المقصود منه سوى أنه تعبدى، فيحصل له بذلك مقصود الشرع من وضع الشريعة وهو: "إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً"⁶.

والغاية من شقها الثاني: حصول الاقتناع التام المفضي إلى الاستجابة، حيث إن معرفة العلل والأسباب والمعاني تكون أدعى للامتثال، ولهذا كان "من شروط الإلحاق بها -أي العلة- اشتغالها على حكمة تبعث المكلف على الامتثال، وتصلح شاهداً لإناطة الحكم".

3. ثنائيات في مجال الأخلاق.

الثنائيات الأخلاقية في القرآن الكريم تركز على الأمر بحسن الأخلاق، والنهي عن سيئها، ويصلح قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

1 أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الخمي الشاطبي، الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1997م)، 514/2.

2 هي مسألة خلافية في أصول الفقه، قال ابن السبكي: العلة، قال أهل الحق: المعرف، وحكم الأصل ثابت بها لا بالنص خلافاً للحنفية، وقيل: المؤثر بذاته، وقال الغزالي: بإذن الله، وقال الأمدى: الباعث، جمع الجوامع، ص: 83-84.

3 سورة الذاريات، الآية: 56-57.

4 سورة البقرة، الآية: 184.

5 الشاطبي، الموافقات، 289/2.

6 ابن السبكي، جمع الجوامع، ص: 84.

وَالْبَغْيَ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ¹ أن يكون أصلاً للأمر بكل خصال الخير، والنهي عن كل مساوئ الأخلاق، ويعضد هذا ما قاله عبد الله بن مسعود: «إن أجمع آية في القرآن للخير والشر في سورة النحل»، هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

كما أن ثنائيات الأخلاق تتخذ عدة صور:

- الأمر بخلق معين، بما يقتضيه الأمر من النهي عن ضده، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾².

- النهي عن خلق معين، بما يقتضيه النهي عنه من الأمر بضده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾³.

- الإرشاد إلى خلق معين من خلال الترغيب فيه وتحبيبه إلى القلوب، بما يقتضيه ذلك من الترهيب عن ضده، وتنفير النفوس منه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْبُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾⁴، فبين سبحانه أن العفو أَدْعَى لأن يتصف به المتقي.

والآيات بهذه الأنساق وغيرها كثيرة جداً، لكن ما نستحضره هنا هو ثنائيتان؛ الأمانة في مقابل الخيانة، والتبليغ في مقابل الكتمان، وهو ما يشكل كلياً يمكن أن نعبر عنها بكلي: أمانة التبليغ. فأما ربط الأمانة بالأخلاق فواضح، وأما التبليغ فإنه هنا من الأخلاق والأدبيات العلمية، ذلك أن زكاة العلم -وهو مادة التبليغ- الإنفاق منه، والإنفاق منه تبليغه، فهو وجه من أسمى وجوه العطاء، فيكون خلقاً علمياً لا بد من التحلي به لمن قامت به صفة العلم والمعرفة.

وأما وجه تركيب هذه الكلية من الأمانة والتبليغ، فلأن أهم ما يشترط في التبليغ الأمانة، بما هي باعث للمبلغ أن يكون عدلاً ضابطاً، بحيث يكون في أفعاله قدوة في الامتثال وعدم التلبس بالمنهيات، -وهو معنى كونه عدلاً-، وفي منقوله ورسالته ومبلغه حافظاً له مما قد يلحقه من التغير واللبس والتشكيك، -وهو معنى كونه ضابطاً-، ومرده إلى التكوين العلمي والمعرفي، وتفصيل ذلك كما يأتي:

أ. ثنائية الأمانة والخيانة.

مما يستجلبه المقام هنا أن الأمانة من الصفات الواجبة في حق رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، وتبعا لذلك فهي من الأخلاق الواجبة في حق كل مبلغ لدين الله، إلا أنها في حق الأنبياء من

1 سورة النحل، الآية: 90.

2 سورة التوبة، الآية: 120.

3 سورة الأنفال، الآية: 27.

4 سورة البقرة، الآية: 235.

دلائل العصمة، وفي حق العلماء من أمارات الصلاح، وفي حق كل الناس دليل على الاستجابة التي أمر الله بها عموم المكلفين.

إن المراد بالأمانة ما يشمل معناها العام بما هي مطلق: «الأمن والأمان... ويجعل الأمان تارة اسماً للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسماً لما يؤمن عليه الإنسان»¹ ويطلب منه حفظه، حسياً كان كالودائع المادية، أو معنوياً كما استودع الله الإنسان من التكليف والتعاليم الشرعية وأمره بالحفاظ عليها من جانبي وجودها وعدمها، ومنه قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾²، أي لا تخونوا ما ائتمنكم الله عليه. ويدخل في المعنى العام معنى خاص يحدده سياق اتصاف المبلغ بها، ونعني بها أنها: وصف يبعث من قامت به عن حفظ ظاهره وباطنه من التلبس بالمنهيات، اجتناباً للكبائر، واتقاء للصغائر.

والآية السابقة الذكر - وهي من أدلة الثنائية قيد التحليل - نص في النهي عن الخيانة والأمر بحفظ الأمانة بطريق المفهوم، فإن النهي عن خيانة الأمانة أمر بالحفاظ عليها، على عظم ذلك على الإنسان، بدليل إباء السماوات والأرض حملها، وتحمله لها، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾³. والغاية المرجوة من هذه الثنائية عامة وخاصة؛ فأما العامة فهي تشمل الغاية من كل الأخلاق، المتمثلة في طلب التحلي بمحاسنها، وطلب التخلي عن مساوئها، وأما الخاصة فهي دعوة للاستجابة لأوامر الله ونواهيه فعلاً وتركاً، إلا أنها تختص بالاستجابة في الأمور الخفية، لأن قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ﴾⁴، "خطاب للمؤمنين يحذرهم من العصيان الخفي، بعد أن أمرهم بالطاعة والاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، حذرهم من أن يظهرُوا الطاعة والاستجابة في ظاهر أمرهم ويبطنوا المعصية والخلاف في باطنه"⁵.

فبان أن هذه الثنائية تختص بمراعاة الجانب الخفي الباطني من الأخلاق والتصرفات على السواء، سواء كان مطلوب الفعل أو مطلوب الترك، كما أنها تروم إصلاح الأحوال والأعمال، إذ "الخيانة الاستبطان بخلاف ما يؤمل منك بحق التعويل، بخيانة الله بتضييع ما ائتمنك عليه، وذلك بخالفة النصيح في دينه، وخيانة الرسول بالاتصاف بخالفة ما تبدى من مشايعته، والخيانة في الأمانات بترك الإنصاف،

1 الراغب الأصفهاني، المفردات، مادة أ م ن.

2 سورة الأنفال، الآية: 27.

3 سورة الأحزاب الآية: 72.

4 سورة الأنفال، الآية: 27.

5 محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، (الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، دون طبعة، سنة النشر: 1984م)، 321/9.

والاتصاف بغير الصدق، وخيانة كل أحد على حسب ما وضع عنده من الأمانة¹.

ب. ثنائية التبليغ والكتمان.

إن التبليغ بما هو إيصال الرسالة بواسطة مرسل ومرسل إليه، وعدم كتمان أي شيء من مضامين البلاغ، هو ما يمكن أن نطلق عليه ثنائية التبليغ والكتمان، جلبا للأول ودفعاً للثاني، وأصله أمر الله تبارك وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ بَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾²، ومع أن الخطاب موجه له عليه الصلاة والسلام إلا أن قاعدة أفعال النبي صلى الله عليه وسلم أن ما كان منها على وجه القربة فالأصل فيه الاقتداء به عليه الصلاة والسلام. فالتبليغ إن كان واجبا في حق الرسل أصالة، وفي حق العلماء تبعاً، وفي حق عموم الناس تفرعاً عن تبعية العلماء للأنبياء، فإن الكتمان في حق الرسل مستحيل، وفي حق غيرهم ممنوع، إذ عدم الكتمان من العهود التي أخذها الله على كل من أوتي علماً، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا ضَلِيلًا قَبِيسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾³، والآية قيل في تفسيرها إنها وردت في اليهود؛ علمهم الله أمر النبي صلى الله عليه وسلم فكتموه، وقيل إنها في اليهود والنصارى، وقد ذكر ابن عطية أن "جمهور العلماء على أنها عامة في كل من علمه الله علماً، وعلماء هذه الأمة داخلون في هذا الميثاق"⁴.

وهكذا فثنائية التبليغ والكتمان تستهدف ما يأتي:

- الغاية الأساسية من إنزال القرآن الكريم، وهي: تبليغه للناس، وتعليمهم إياه، لأن إنزاله دون تبليغ من العبث الذي نزهت عنه الشريعة الإسلامية.

- إشراك المكلف في عملية تبليغ الرسالة، إذ من المطلوب منه الانتقال من التلقي إلى التبليغ، وهو ما يؤسس للتخلي عن أنانية الامتثال الفردي والعيش الطيب الفردي، إلى تعدية ما تعلمه إلى غيره حتى يحقق بذلك غيره ما حققه هو لنفسه، فيكون المكلف صالحاً في نفسه مصلحاً لغيره، وهذا مما يبرز وجه إيراد التبليغ في ثنائيات السلوك، نظراً لوظيفتها الأخلاقية، التي تتمثل في عطاء وإنفاق وإيثار معنوي لا مادي، على حساب الأنانية وحب الذات الذي قد يدعو الإنسان إلى الانفراد بالعلم، ومضامين الرسالة الربانية التي تهدف إلى تحقيق حياة طيبة لكل من تمثل بمقتضياتها الواردة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ

1 عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، لطائف الإشارات = تفسير القشيري، المحقق: إبراهيم البسيوني، (الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر، الطبعة: الثالثة، دون تاريخ النشر)، 618/1.

2 سورة المائدة الآية: 69

3 سورة آل عمران الآية: 187.

4 ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، 551/1.

صَالِحاً مِّسْ ذَكْرٍ أَوْ اُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹.

خاتمة/ خلاصة ونتائج.

من أهم ما توصل اليه البحث:

- أن الثنائيات كما درسها البحث هي منهج قرآني شامل كامل، يقوم على تتبع طرق القرآن الكريم في عرض مجموعة من المقابلات بين عدد من المكونات التي تجمعها منظومة واحدة، على نسق علمي منطقي.

- أن الثنائيات يمكن ملاحظتها في مجمل تعاليم البلاغ القرآني، في كلياته وجزئياته، وعلى جميع المستويات، إيمانياً وعقدياً، وعبادات ومعاملات، وأخلاقاً وسلوكاً.

- أن أعظم غاية يتواخاها منهج الثنائيات هي امتثال أفضل للمكلف، كما يظهر في تبليغ الرسالة على وجه يبين له المصلحة الجالبة للنفع، في مقابل المفسدة الجالبة للضرر، وهذا يؤدي به إلى تدين قائم على الاقتناع والفهم، مع إقامة الحجّة عليه... وهذه كلها وسائل للتوصل إلى الهدف الأسمى وهو: تحقيق حياة طيبة تنفع المكلف في العاجل والآجل.

- إذا علم هذا، فإن كل مبلغ عليه أن ينتهج مناهج القرآن الكريم، إذا أراد إحداث الأثر والفعالية في عملية تبليغه لمضامين الرسالة القرآنية.



أثر مشروع خطة تسديد التبليغ في تخليق الحياة العامة

ذ. عبد الحميد ازميز

إمام مرشد بالمجلس العلمي المحلي لأزيلال

مقدمة

إن من الأهداف الكبيرة التي جاء من أجلها مشروع خطة تسديد التبليغ الذي يقوده العلماء تحت القيادة الرشيدة لمولانا أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله، هو تخليق الحياة العامة، بمعنى أن تكون حياة الناس ومعاملاتهم اليومية كلها مبنية على أخلاق الدين السمحة، ولا يكون ذلك إلا من خلال تقريب الشقة الكبيرة التي حدثت بين الدين والتدين، أو بين المدنية والقيم الإسلامية الأصيلة، والناظر في مراجع خطة تسديد التبليغ سيجد هذا المقصد حاضرا وبقوة، وإن كان ليس هدفا في حد ذاته، وإنما هو هدف وفي الآن نفسه وسيلة لتحقيق الحياة الطيبة التي هي مبتغى كل إنسان، بله كل مؤمن، بيد أن تخليق الحياة العامة لا يكون بأية وسيلة كانت، وإنما يكون بالطرائق المنهجية الصحيحة التي استنبطها العلماء من سير الأنبياء والصالحين.

وأما أهمية موضوع تخليق الحياة العامة فلا تخفى على أي باحث بله العلماء، ويكفي إيماء لتلك الأهمية أن نشير إلى أن أربعة دروس حسنية على الأقل في عهد مولانا أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله قد خصصت لهذا الموضوع وحده، وهي: أولا: «القدوة الحسنة وأثرها في تخليق الحياة العامة» من إلقاء الدكتور محمد جميل مبارك، ثانيا: «خطبة الجمعة ودورها في تخليق الحياة العامة» من إلقاء الدكتور محمد المصلح، ثالثا: «استثمار قيم الدين في نموذج التنمية» من إلقاء معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السيد أحمد التوفيق، رابعا: «المجتمع المدني في خدمة القيم الدينية» من إلقاء الدكتور محمد يسف الأمين العام للمجلس العلمي الأعلى. وعليه فليس من المستغرب أن نجد العلماء قد اعتنوا بهذا الموضوع في مشروع خطة تسديد التبليغ اعتناء بالغا.

وانطلاقا من أهمية هذا الموضوع وما يثيره من إشكالات علمية وعملية نفصح عن جوهر الإشكالية التي سيعالجها هذا المقال في الصيغة التالية: إلى أي حد اهتم مشروع خطة تسديد التبليغ بموضوع تخليق الحياة العامة؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية أسئلة فرعية عديدة من قبيل: ما مفهوم تخليق الحياة العامة في مشروع خطة تسديد التبليغ؟ وما هي المسالك التي توصل بها القائمون على هذا المشروع الرائد لتحقيق هذا الهدف؟ وما علاقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بموضوع تخليق الحياة العامة؟ إلى غير ذلك

من الأسئلة الجزئية التي سيأتي الجواب عنها في هذا المقال، على أن نتوسل لتحقيق هذا الهدف بمنهجين أساسيين وهما: المنهج الوصفي، ثم المنهج الاستقرائي، قصد دراسة واستقراء أثر مشروع خطة تسديد التبليغ في تخليق الحياة العامة من خلال الوثائق المرجعية لهذا المشروع.

ومن أجل الجواب عن الإشكالية السابقة وكذا الأسئلة الفرعية عنها، سنبسّط الكلام عن هذا الموضوع في مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة. المطلب الأول نخصه لمجموعة من المفاهيم المركزية في المقال، أما المطلب الثاني فنخصه لعرض أهم مسالك تخليق الحياة العامة في مشروع خطة تسديد التبليغ، وأما المطلب الثالث فنفصل الكلام فيه حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتباره طريقاً لتخليق الحياة العامة في مشروع خطة تسديد التبليغ، وأما الخاتمة فنوجز الكلام فيها عن أبرز النتائج التي تم التوصل إليها من خلال هذا المقال.

المطلب الأول: المدخل المفاهيمي للموضوع

إن القضية الكبرى التي نريد أن نقف عندها في هذا المقال هي مدى حضور مقصد تخليق الحياة العامة في مشروع خطة تسديد التبليغ، ومدى علاقة ذلك بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي أصل لها القرآن الكريم، وفصلتها السنة النبوية الشريفة، ثم رصد أثر مشروع خطة تسديد التبليغ في تخليق الحياة العامة، وللوقوف على هذا كله لابد من إبراز المقصود بمجموعة من المصطلحات ذات الارتباط بموضوع المقال، مع بيان مفاهيمها، وهي: مفهوم مشروع تسديد التبليغ، ومفهوم تخليق الحياة العامة، وفيما يلي تفصيل لهذين المصطلحين المكونين لعنوان المقال.

أولاً: مفهوم مشروع خطة تسديد التبليغ

المقصود بمشروع خطة تسديد التبليغ هو ذلك المشروع الإصلاحي الذي ابتكرته مؤسسة العلماء في المملكة المغربية الشريفة برعاية أمير المؤمنين حفظه الله تعالى، وذلك من أجل تقريب الشقة بين الدين والتدين، أو «تجسير الهوة بين الحياة المدنية والقيم الإسلامية»¹ قصد تحقيق الحياة الطيبة للمؤمنين والمؤمنات كما وعدهم الله تعالى بذلك في القرآن الكريم، وقد انطلق هذا المشروع في يوم الجمعة 28 يونيو 2024م في مرحلة تجريبية، وكان لي شرف المشاركة في هذه المرحلة، على أمل نيل ذات الشرف في مرحلته الثانية إن شاء الله تعالى.

هذا عن مفهوم مشروع خطة تسديد التبليغ بصفة عامة، وأما إذا أردنا أن نتعمق في أهدافه الكبرى فسنجد أنه مشروع إصلاحي بامتياز، يروم إصلاح الحياة العامة من داخل المؤسسة

1 أمانة التبليغ، لمصطفى بن حمزة، منشورات المجلس العلمي الأعلى، الطبعة الأولى 2024م، ص 141.

العلمية التي هي مؤسسة العلماء، والتي يمثلها المجلس العلمي الأعلى، ومما يؤكد قصدية حضور هذا المعنى تلك الندوة العلمية التي نظمها المجلس العلمي الأعلى في موضوع: [العلماء ورسالة الإصلاح في المغرب الحديث]¹ وهذا يؤكد أن مؤسسة المجلس العلمي الأعلى تسعى من خلال مشروع خطة تسديد التبليغ أن تقود مشروعا إصلاحيا شاملا، فقد جاء في أرضية هذه الندوة: «اهتدت المؤسسة العلمية بعد نظر ومدارسة، وبتنسيق مع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، إلى خطة إصلاحية أطلق عليها [خطة تسديد التبليغ]²». كما أكد المجلس العلمي الأعلى في كتاب سبيل العلماء الذي يعبر عن منهج المؤسسة العلمية في التبليغ أن مشروعها التنزيلي «يقصد به مشروعها الإصلاحي»³ الذي تستهدف به المجتمع، وأن «أفقها الارتقاء بالصالح في المجتمع كل من زاويته»⁴.

ثانيا: مفهوم تخليق الحياة العامة

التخليق مشتق من فعل خَلَقَ، ويطلق في أصله على معنيين، قال ابن فارس: «الخاء واللام والقاف أصلا: أحدهما تقدير الشيء، والآخر ملاسة الشيء»⁵ فالخلق إذا كان من الله تعالى فهو إخراج الشيء من العدم إلى الوجود، وإذا كان من الإنسان فهو إخراج الشيء من الوجود، والخلق بسكون اللام وضمها: السجية⁶، والأخلاق نوعان: مذمومة ومحمودة، وتطلق غالبا إما مقيدة بالحسن أو السيئ، ومن ذلك قوله ﷺ: «بعثت لأتمم حسن الأخلاق»⁷، وقوله ﷺ: «خيركم إسلاما أحاسنكم أخلاقا إذا فقهوا»⁸. هذا من حيث المدلول اللغوي، أما من حيث المدلول الاصطلاحي فيطلق مصطلح تخليق الحياة العامة في الفكر القانوني والإداري والحقوق على محاربة الفساد والرشوة والوقاية منهما في الإدارة على وجه الخصوص، ومن ذلك ما جاء في الفصل 167 من دستور 2011م: «تتولى الهيئة الوطنية للنزاهة والوقاية من الرشوة ومحاربتها، المحدثه بموجب الفصل 36 على الخصوص، مهام المبادرة والتنسيق والإشراف، وضمان تتبع تنفيذ سياسات محاربة الفساد، وتلقي نشر المعلومات في هذا المجال، والمساهمة في تخليق الحياة العامة». فمن خلال هذا الفصل يتضح بأن تخليق الحياة العامة يتحقق بمحاربة الفساد والرشوة والوقاية منهما في المجال الإداري على وجه الخصوص.

1 نظمت هذه الندوة بمقر المجلس العلمي الأعلى يوم الأحد 28 جمادى الأولى 1446هـ / 1 دجنبر 2024م.

2 العلماء ورسالة الإصلاح في المغرب الحديث، ص 11.

3 سبيل العلماء، منشورات المجلس العلمي الأعلى، الطبعة الأولى 2016م، ص 68.

4 المرجع نفسه.

5 مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، طبعة 1979م، (213/2).

6 مختار الصحاح، لأبي أبي بكر الرازي، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية ببيروت، الطبعة الخامسة 1999م، ص 95.

7 رواه الإمام مالك في الموطأ برواية يحيى الليثي، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، الحديث رقم 686.

8 رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة، الحديث رقم 10066.

يبد أن مفهوم تخليق الحياة العامة في مشروع خطة تسديد التبليغ أعم وأوسع؛ لكونه يشمل جميع قطاعات الحياة المشمولة بمفهوم الدين¹، وعليه فالمقصود بتخليق الحياة العامة في مشروع خطة تسديد التبليغ هو إفشاء التعامل بالأخلاق الحسنة كالصدق والأمانة والإيثار والشكر والصبر وغيرها في حياة الناس جميعاً، سواء في الإدارة أو في المسجد أو في السوق أو في الطريق أو في غيرها من المرافق العمومية التي يحدث فيها التعامل بين الناس، بل إن تخليق الحياة العامة يشمل كذلك الشروط الضرورية والظروف المساعدة على فعالية أكبر لوازع القرآن الذي يستخدمه العلماء لتوفير الحياة الكريمة للمواطن²، ويتضح هذا المعنى جلياً من خلال ربط العلماء بين الشروط الخارجية للتخليق والمتمثلة أساساً في تحسين الحاجة المادية والمعيشية للإنسان وبين تخليق الحياة العامة، لوجود العلاقة في التراث الإسلامي بين الفقر والحاجة وبين السلوك الإنساني³، ولذلك نرى القائمين على مشروع خطة تسديد التبليغ يخصصون خطبا عديدة للزكاة وللإنفاق وللإحسان في سبيل الله، وبالمقابل يحذرون من الإسراف لأنه يحرم بعض الناس من حقهم في الحد الأدنى من العيش الكريم، كما أنهم يباركون كل سياسة تسعى للتنمية ولحاربة الفقر والحاجة.

المطلب الثاني: مسالك تخليق الحياة العامة في مشروع خطة تسديد التبليغ

إن المستقرئ للوثائق المرجعية لمشروع خطة تسديد التبليغ سيجد أن من أهدافه الكبرى تخليق حياة الإنسان بصفة عامة، وتخليق الحياة العامة بصفة خاصة، ويتضح ذلك جلياً من خلال مجموعة من العناوين التي وردت فيها بهذه العبارة: «تخليق الدين للحياة»⁴، «شمول العبادة لحياة الإنسان»⁵ وغيرهما من العناوين التي يجدها القارئ مفصحة عن هذا المقصد بعبارة جلية، بيد أن تخليق الحياة العامة ليس هدفاً ومقصداً في حد ذاته، ولكنه وسيلة لهدف أسمى، وهو الذي جاء من أجله أساساً مشروع خطة تسديد التبليغ ألا وهو: «تحقيق السعادة باعتبارها هدفاً للتبليغ، ومطلباً لكل إنسان»⁶. ولذا فإن القائمين على المشروع ارتأوا اختيار المصطلح القرآني: «الحياة الطيبة» بدل المصطلح الفلسفي: «السعادة» ولا يخفى ما في هذا الانتقاء من تحديد مرجعية الخطوة منذ البداية، ولا شك أن هذا الانتقاء يؤول إلى المقاصد الحسنة لهذه الخطوة، وإبعاد حظوظ النفس عنها، بل هي في النهاية عبارة عن ربط الناس بالقرآن الكريم، وبدينهم القويم.

1 ينظر: سبيل العلماء، ص 150. خطة تسديد التبليغ: دليل مرجعي في التأصيل والفهم والتنزيل، ص 17.

2 ينظر: سبيل العلماء، ص 150.

3 المرجع نفسه.

4 خطة تسديد التبليغ، ص 17.

5 الدين للحياة، منشورات المجلس العلمي الأعلى، ص 42.

6 أمانة التبليغ، ص 101.

وقد أخذ موضوع تخليق الحياة العامة مساحة كبيرة في الوثائق المرجعية لخطة تسديد التبليغ، ما يدل دلالة واضحة على أهميته ومركزيته في هذا المشروع، ولذلك نجد العلماء الذين قاموا بصياغة هذه الوثائق لم يكتفوا بالدعوة لهذا الموضوع فقط، وإنما وضعوا مجموعة من الوسائل التي من شأنها أن تحقق هذا الهدف الوَسْلي¹ النبيل، والذي من أجله جاءت الشرائع السماوية كلها.

هذا وإذا كان تخليق الحياة العامة هدفاً من أهداف خطة تسديد التبليغ؛ إذ به تتحقق الحياة الطيبة، فلا بد للوصول لهذه الغاية من وسائل ومسالك توصل لهذا الهدف، فمن المعلوم أن لكل مقصد وسيلة أو وسائل، ولما كان مشروع خطة تسديد التبليغ يقوم أساساً على البيان والبلاغ، ذلك أن العلماء ورثة الأنبياء في وظيفة البلاغ، وهم في الآن نفسه ورثة الأنبياء في منهجية التبليغ كذلك، عملاً بقول الله تبارك وتعالى: ﴿فُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾² وعملاً بقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾³ ووعياً بهذا الملحوظ فقد اتخذ العلماء في مشروع خطة تسديد التبليغ مسالك متعددة لتحقيق الحياة الطيبة، ولتخليق الحياة العامة على وجه الخصوص، ويمكن أن نذكر من تلكم الوسائل والمسالك ما يلي:

أولاً: مسلك تصحيح المفاهيم

إن من أهم الآليات التي توصل بها القائمون على مشروع تسديد التبليغ من أجل إيصال هذه الخطة إلى عموم الناس، ومن أجل تخليق الحياة العامة على وجه الخصوص، مسلك تصحيح المفاهيم، وذلك عن طريق «ضمان التعريف الصحيح بالدين أحكاماً ومقاصد ومنهجاً في التنزيل»⁴ ذلك أن من المعلوم أن أي خطأ في السلوك الإنساني فإنما يرجع أصله إلى خطأ في التصور وفي المفهوم الحاصل في الذهن، ولذا فقد ارتأى القائمون على هذه الخطة المباركة البدء بتصحيح المفاهيم، ومن أهمها: مفهوم الدين والتدين، ومفهوم الإيمان، ومفهوم العبادة، ومفهوم الحياة الطيبة، ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من المفاهيم التي سيلاحظها أي مطلع على الوثائق المرجعية لهذه الخطة، وفيما يلي نظرة موجزة عن بعض المفاهيم المركزية التي لها علاقة بموضوع هذا المقال.

1 الوسْلي نسبة إلى الوسيلة، لأن تخليق الحياة العامة هدف ووسيلة في الآن نفسه لتحقيق مقصد الحياة الطيبة.

2 سورة يوسف الآية: 108.

3 سورة النحل الآية: 125.

4 سبيل العلماء، ص 25.

أ/ مفهوم الدين والتدين

لعل من المفاهيم المركزية في خطة تسديد التبليغ مفهوم الدين والتدين، حيث عمدت هذه الخطة إلى تقديم المفهوم الصحيح لهاذين المصطلحين المهمين، كما دعت إلى: «ضرورة التمييز بين الدين والتدين»¹ حيث إن عدم التمييز بين هاذين المصطلحين يؤدي إلى نتائج سيئة، من قبيل ملاحظة حظ النفس، والاستكبار على الناس، والتبديع والتفسيق والتكفير، وبالمقابل فإن التمييز بين الدين والتدين، وخلع المفهوم الصحيح على كل واحد من المصطلحين ينتج ثمرات إيجابية، وتلك الثمرات لا تقتصر على حياة الفرد فقط، وإنما تتعداه إلى الحياة العامة، وذلك من خلال «حفظ الأمن والنظام، وإقامة العدل، والوفاء بالحقوق، والتعاون على البر والتقوى»². كما يساهم هذا التمييز في الالتزام الفردي والالتزام الجماعي كذلك بقيم الدين السمحة.

ب/ مفهوم العبادة وشمولها للحياة.

يظن كثير من الناس أن العبادة مقتصرة على الشعائر الدينية كالصلاة والزكاة والصيام والحج وقراءة القرآن والذكر... فقط، وهذا مفهوم قاصر، فالمفهوم الصحيح للعبادة أنها تشمل الحياة كلها، بل التصور الصحيح يقتضي أن نعتبر «العبادة برنامج تدير حياة الإنسان»³؛ ولهذا فقد حرصت خطة تسديد التبليغ على تصحيح هذا المفهوم لدى الناس، وأن العبادة ليست مقصودة في حد ذاتها، وإنما هي في الحقيقة وسيلة لتحقيق مجموعة من الثمرات، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁴ والوسيلة هي القربة والعبادة كما قال جماعة من المفسرين، ومن هنا ندرك أن العبادة في الحقيقة ما هي إلا وسيلة لمقاصد وثمرات، وهذه الثمرات ينبغي أن تتجلى على مستوى المعاملات، ذلك أن صحة المعاملة هي التي تصدق العبادة، كما أن العبادة هي التي تصدق الإيمان، فصحة المعاملة من علامة قبول العبادة، «فالعبادة إذن شاملة لحياة الإنسان، وكل شؤونه الفردية والجماعية»⁵.

وأما علاقة تصحيح هذا المفهوم بموضوع مقالنا وهو تخليق الحياة العامة فواضح وجلي، ذلك أن اعتبار شمول العبادة لكل الحياة، من شأنه أن يسهم في تخليق الحياة العامة، وبالتالي فإن ذلك سيؤدي إلى سلامة المجتمع من الآفات، وإلى إخلاص الناس في المعاملات، كما أنه سيجلب التعاون والخير ويعين على أداء الأمانات.

1 الدين للحياة، ص 13. خطة تسديد التبليغ، ص 16.

2 الدين للحياة، ص 18.

3 الدين للحياة، ص 37.

4 سورة المائدة الآية: 37.

ج/ مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من المفاهيم التي حاولت خطة تسديد التبليغ أن تصححها للناس، مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك أن الناس يدركون جيدا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من التكليف الشرعية الفردية والجماعية، انطلاقا من قول الله تعالى مخاطبا الأمة المحمدية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾¹ فأفادت هذه الآية أن استحقاق الخيرية مرهون بشرطين: الإيمان بالله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن كثيرا من الناس لا يعرف أولا ما معنى المعروف وما معنى المنكر، ولا فقه أداء هذه المهمة ومنهجها، ولا مراتبها، كما أن كثيرا من الناس يغفلون عن معنى مهم، وهو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مهمات الإمام أو الدولة بأجهزتها متى تعلق الأمر بالتغيير باليد². وانطلاقا من الوثائق المرجعية لخطة تسديد التبليغ نتلص ملاح مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه من شأن الجماعة وليس من شأن الأفراد³، وخاصة الجانب المتعلق بالتغيير سواء باليد، وقد أصبح في ظل الدولة الحديثة مقتصرًا على المؤسسات المؤتمرة بالقانون، أو باللسان وهذا منوط بالعلماء أصحاب الاختصاص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يتحقق في حياة المسلمين اليوم بإقامة القوانين التي هي تفصيل لمقاصد الشرع ومصلحه⁴، كما أن مقتضيات القانون هي التي أصبحت تنظم جانبا كبيرا مما يدخل في مسمى المعروف والمنكر، وسيأتي مزيد من التفصيل لعلاقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بموضوع تخليق الحياة العامة في المطلب الثالث.

ونخلص من خلال الأمثلة الثلاثة السابقة إلى أن مشروع خطة تسديد التبليغ قد اهتم اهتماما كبيرا بموضوع تصحيح المفاهيم، بل إن ذلك يعد من الركائز الأساسية في هذه الخطة، ولا غرابة في ذلك وموضوع التبليغ يقوم أساسا على البيان الصحيح والسديد، وهم في ذلك إنما طبقوا وراثته العلماء لوظيفة النبي ﷺ، وهي وظيفة قد اهتمت بتصحيح المفاهيم كثيرا.

1 سورة آل عمران الآية: 110.

2 الدين للحياة، ص 156.

3 سبيل العلماء، ص 115.

4 يوميات الإرشاد، ص 155.

ثانيا: مسلك تسديد مناهج التبليغ

إن من الوظائف الكبرى للنبي ﷺ وظيفة التبليغ والبيان، اللذين بهما تكون هداية الإنسان¹، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾² وجدير بالذكر أن الله تعالى لم يكتف بإيجاب التبليغ على النبي ﷺ فقط، وإنما أوجب عليه كذلك منهج التبليغ، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا سَلَ عَس سَبِيلُهُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾³ وقال تعالى: ﴿فُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁴، والعلماء ورثة الأنبياء في التبليغ وفي طريقة التبليغ كذلك، ذلك أن التأسى بالنبي ﷺ يقتضي: «أن نفعل صورة ما فعل على الوجه الذي فعل لأجل أنه فعل»⁵ فلا يكفي أن نفعل مثل ما فعل فقط.

ووعيا من العلماء بأهمية تجديد منهج التبليغ، فقد وضعوا خطة سموها: «خطة تسديد التبليغ» وتومئ كلمة التسديد التي تعني في اللغة الصواب من القول والعمل⁶ إلى أن العلماء قد قاموا بنقد ذاتي لمهمتهم المتمثلة في التبليغ، أو نقول على الأقل قد قاموا بدراسة «أبرز عوائق الاستجابة للإصلاح»⁷ الذي تقوده المؤسسة العلمية والدينية، فوجدوا أنها ترجع إلى أحد أمرين أو إليهما معا: إما للمبليغين من علماء وقيمين دينيين، أو لمنهج التبليغ نفسه، وهو ما جعلهم يطلقون خطة تسديد التبليغ، والتي تهدف إلى تجاوز العوائق السابقة، وفيما يلي تفصيل لهاتين الآليتين:

أ/ مسلك تكوين المبليغين

يعتبر تكوين المبليغين من أهم مداخل الإصلاح في المجال الديني، بل التكوين من أهم مداخل تجويد العمل في كل المجالات، وليس المجال الديني فحسب، ووعيا من المؤسسة العلمية بهذه الأهمية فقد أصدرت بالتنسيق مع وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية مجموعة من الدلائل المرجعية التي تشرح مشروع

1 الدين للحياة، ص32.

2 سورة المائدة الآية: 69.

3 سورة النحل الآية: 125.

4 سورة يوسف الآية: 108.

5 المعتمد في أصول الفقه، لأبي الحسين البصري، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1403هـ، (343/1).

6 الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، تحقيق أحمد عطار، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة 1987م، مادة سدد، (485/2).

7 العلماء ورسالة الإصلاح في المغرب الحديث، ص11.

خطة تسديد التبليغ بتفصيل¹، كما أنها قامت بتقديم مجموعة من الدورات التكوينية لكافة الفاعلين في الحقل الديني، بدءاً من رؤساء المجالس العلمية المحلية، ثم أعضاء المجالس العلمية، والمرشدين والمرشحات، والوعاظ والواعظات، وصولاً إلى الأئمة والخطباء.

وعلى العموم فالمبلغ مطلوب منه أن يكون ملماً بمجموعة من المؤهلات العلمية، وهي: المؤهل الشرعي، والمؤهل الواقعي، والمؤهل النفسي، ثم المؤهل المهاري التواصل²، ومن شأن المبلغ الذي توفر على هذه المؤهلات الأربعة أن ينتج خطاباً دينياً سديداً، وتبقى بعد ذلك الاستجابة مرهونة بأمور أخرى، قد تكون خارجة عن قدرة الإنسان، كالهداية التوفيقية أو الرزق، فالاستجابة للنور المحمدي رزق من الأرزاق.

ب/ مسلك تسديد منهج التبليغ

لقد سبقت الإشارة إلى أن للتبليغ جانبين اثنين: الأول تبليغ ما بلغه النبي محمد ﷺ، والثاني: تبليغ ما بلغه النبي ﷺ بالطريقة التي بلغه بها، فلا بد إذن من فهم مادة التبليغ فهماً صحيحاً، وهذا إنما يكون عن طريق دراسة العلوم الشرعية والعلوم الخادمة لها، وأما منهج التبليغ فإنما يدرك عن طريق الاستنباط والملاحظة لسير الأنبياء والعلماء، مع التمكن من العلوم الحديثة التي تعين على إدراك الواقع والسياق المحيط بواقع التبليغ.

وقد حاول المجلس العلمي الأعلى أن يبرز هذا المنهج المتبع في التبليغ من خلال كتاب: [سبيل العلماء] وتشير كلمة السبيل إلى الطريق والمنهج، أي منهج العلماء في تبليغ الدين، وإنما اختار المجلس العلمي الأعلى كلمة: [سبيل] اقتباساً من قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾³. وهو ما يمكن معه القول بأن علماء المملكة المغربية يتميزون بهذه السمة المميزة، وهي اختيار المصطلحات القرآنية بدقة وعناية فائقة.

ثالثاً: مسلك خطبة الجمعة والموعظة الحسنة

تعتبر خطبة الجمعة من أهم الوسائل الإعلامية في الشريعة الإسلامية، ولن نكون مبالغين إذا قلنا إنها أهم وأبلغ وسيلة إعلامية في الدول الإسلامية، وبالتالي فإن استثمار هذه الوسيلة سيساعد بلا شك في تخليق الحياة العامة، ونظراً لهذه الأهمية فقد بدأت المؤسسة العلمية نشر خطة تسديد التبليغ انطلاقاً من خطبة الجمعة، مع ما يتبعها من الشرح والتفصيل من خلال الدروس الوعظية، وأما إذا استقرينا عناوين

1 وهي: 1 سبيل العلماء 2 أمانة التبليغ تأصيلاً وتنزيلاً 3 دليل المجالس العلمية الجهوية والمحلية 4 خطة تسديد التبليغ: دليل مرجعي في التأصيل والفهم والتنزيل 5 الدين للحياة 6 يوميات الإرشاد 7 دليل عمل المرشدين والمرشحات.

2 العلماء ورسالة الإصلاح، ص 49.

3 سورة يوسف الآية: 108.

خطب الجمعة التي سبقت سواء في موضوع الإيمان أو في موضوع العمل الصالح فسنجد أغلبها يهدف إلى تخليق الحياة العامة، وذلك عن طريق نشر القيم الإسلامية وجعلها أساس التعامل في حياة الناس. وعليه نخلص إلى أن العلماء قد وضعوا مجموعة من الوسائل والمسالك التي تهدف إلى تخليق الحياة العامة، بيد أن من أهم الوسائل التي تميزت بها الشريعة الإسلامية هي آية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالتالي فيمكن اعتباره طريقاً من طرق تخليق الحياة العامة، وهذا ما سنتعرف عليه في المطلب الموالي.

المطلب الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طريق لتخليق الحياة العامة

لقد سبق الحديث فيما قبل أن تخليق الحياة العامة من الموضوعات المركزية في مشروع خطة تسديد التبليغ، وذلك لما لهذا الموضوع من علاقة وطيدة بتحقيق الحياة الطيبة في حياة الناس، إذ لا يمكن أن تتحقق الحياة الطيبة للأفراد إذا لم يتم تخليق الحياة العامة، نظراً للعلاقة الجدلية بين الفرد والجماعة، فالجماعة تتأثر بالأفراد، كما الأفراد يتأثرون بالجماعة أو بالمجتمع باصطلاح علماء الاجتماع¹.

ثم إن تخليق الحياة العامة له مجموعة من الطرق والمسالك، ولعل من أهمها وأكثرها ميزة في التراث الإسلامي ما يسمى ب: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فقد اعتبر القرآن الكريم هذه الوظيفة من سمات «خير أمة أخرجت للناس» بتعبير القرآن الكريم، أو «الأمة النموذجية»² بتعبير المجلس العلمي الأعلى، أو «المدينة الفاضلة»³ بتعبير الفلاسفة، ونظراً لأن مشروع خطة تسديد التبليغ مشروع إصلاحى بامتياز كما سبق بيان ذلك، فقد نظم القائمون على الخطة هذه الآلية تنظيمًا محكمًا، بدءاً من إعادة بناء مفهومه الصحيح، وبيان مراجعه وصوره ومراتبه، «مما يعطي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دلالات مختلفة تؤول إلى معنى الحرص على تحقيق كمال التدين إيماناً وعملاً صالحاً في خاصة النفس، وتواصياً لتحقيقه في الغير»⁴.

بل إن المجلس العلمي الأعلى يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمفهومه الصحيح هو المقياس الذي يجب على العلماء أن ينهوا الناس عليه، وأن يعلموهم كيفية قياس جودة عباداتهم به، وأن يستعملوه مؤشراً للتقويم الذاتي، ومحاسبة النفس؛ لمعرفة مدى انتمائهم للأمة، ومدى تقصيرهم في حقوقها عليهم⁵، وبهذا يكون الإسلام هو النموذج الأمثل الذي يدعو إلى العمل الصالح والحياة الطيبة.

1 علم الاجتماع، لأنتوني غدينز، ترجمة وتقديم فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الرابعة، ص 79.

2 دليل المجالس العلمية المحلية، منشورات المجلس العلمي الأعلى، الطبعة الأولى 2021م، ص 139.

3 ومن هذا الباب كتاباً: المدينة الفاضلة المسمى بالجمهورية لأفلاطون (ت 347 ق.م) والمدينة الفاضلة لأبي نصر الفراءى (ت 339 هـ).

4 الدين للحياة، ص 156.

5 دليل المجالس العلمية المحلية، ص 139.

هذا وتجدر الإشارة إلى أمرين مهمين قد نبهت عليهما الوثائق المرجعية لخطة تسديد التبليغ وهما:

الأمر الأول: علاقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقوانين الحديثة المنظمة لشؤون حياة الأفراد والجماعات، فقد قرر العلماء بأن كل ما يدخل في القانون أمراً ونهياً ينسحب عليه وصف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكل ما أمر به القانون فهو من المعروف ويجب العمل بمقتضاه، وما كان مشكلاً منه يرجع الحسم فيه إلى الإمامة العظمى، باعتبار أن قرار الإمام يحسم الخلاف كما هو مقرر في التشريع الإسلامي، وبالمقابل فما نهى عنه القانون يجب تركه شرعاً لأنه منكر، ويجد هذا القول سنده في قول النبي ﷺ: «من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف»². وهذا الحديث يفيد أن كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطريقة تطبيقه وتنزيله خاضع بدوره للعرف وللمعروف في كل زمان ومكان، وإن كان «المرجع فيما هو معروف وما هو منكر هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم»³.

ويمكن القول بحق أن هذا الاجتهاد الذي قام به المجلس العلمي الأعلى لتحرير مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان صوره ومراتبه يعد اجتهاداً منقطع النظير في هذه الأزمنة، على اعتبار أن كثيراً من العلماء المعاصرين يدعون للتجديد، لكن ذلك يبقى حبيس التنظير فقط، أما المجلس العلمي الأعلى فيمارس التجديد بالفعل وليس بالتنظير له فقط، كما أنه يمارس التجديد من داخل المؤسسات الرسمية، ما يعني أن ذلك سيجد طريقه للتطبيق والتفعيل.

الأمر الثاني: مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث إن المجلس العلمي الأعلى قرر بداية أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «من أمر الأمة وليس من شأن الأفراد»⁴. بدليل التعبير عنه بالأمر، وبناء على هذا فهم سائرون على ما درج عليه العلماء من أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفروض الكفائية، يقول الإمام الشاطبي: «وجامعها (أي جامع أنواع فروض الكفايات) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنظر فيمن يقوم به»⁵. ولذلك فقد قرر المجلس العلمي الأعلى أن «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مهمات الإمام (الدولة الحديثة بأجهزتها)»⁶ وهذا من صميم فقه النص وفقه الواقع؛ ذلك أن الدولة الحديثة التي نعيش في ظلها قائمة على المؤسسات،

1 سبيل العلماء، ص 115.

2 رواه البيهقي في شعب الإيمان، الحديث رقم 7603.

3 يوميات الإرشاد، ص 154.

4 سبيل العلماء، ص 115.

5 الموافقات للشاطبي، تحقيق الحسين أيت سعيد، منشورات البشير بنعطية، الطبعة الأولى 2017م، (4/767-768).

6 الدين للحياة، ص 156.

ومعلوم أن المؤسسات لا ينتظم أمرها إلا بالقانون، وقد أصبح الناس لا يقبلون الائتثار إلا للمؤسسات وللقانون، وهذا معروف بالحس والمشاهدة.

وبناء على هذا الفهم الدقيق فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ثلاث مراتب، أخذاً من قول النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»¹. وتختلف كل مرتبة عن أخرى من هذه المراتب الثلاثة، من حيث جهة الاختصاص، وطريقة التطبيق، ومقاصد التنزيل.

المرتبة الأولى: النهي عن المنكر بوازع السلطان

وهذه المرتبة من اختصاص الإمام، وعليه فلا يجوز الافتيات² عليه فيها، وأما كيفية تطبيق هذه المرتبة فتم عن طريق المؤسسات المختلفة، والتي تضطلع بمهمة إنفاذ القانون بتعبير العصر، كمؤسسة القضاء، ومؤسسة الأمن والشرطة، ومؤسسة الجيش، ومؤسسة الحكومة المكلفة بالتدبير وتنفيذ القانون، وغيرها من المؤسسات، كل واحدة في حدود اختصاصاتها.

المرتبة الثانية: النهي عن المنكر بوازع اللسان

وهذه المرتبة «للعلماء والمبلغين ومن تحقق لديه أمر المنكر»³ ولكن لابد من مراعاة الشروط التي ذكرها العلماء، وهي ثلاثة شروط بعد الإمام القرافي (ت486هـ):

الشرط الأول: أن يعلم ما يأمر به وينهى عنه، فالجاهل بالحكم لا يحل له النهي عما يراه، ولا الأمر به. الشرط الثاني: أن يأمن من أن يكون يؤدي إنكاره إلى منكر أكبر منه، مثل أن ينهى عن شرب الخمر فيؤدي نهيها عنه إلى قتل النفس أو نحوه.

الشرط الثالث: أن يغلب على ظنه أن إنكاره المنكر مزيل له، وأن أمره بالمعروف مؤثر في تحصيله، فعدم أحد الشرطين الأولين يوجب التحريم، وعدم الشرط الثالث يسقط الوجوب، ويبقى الجواز والندب⁴.

وعلاوة على ما سبق فلا بد أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالموعظة الحسنة وبالحكمة،

1 رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، الحديث رقم 49.

2 الافتيات في اللغة: افتعال من الفت، وهو السبق إلى الشيء دون الائتثار، ويقصد بالافتيات عند الفقهاء: فعل شيء مما هو داخل في اختصاصات الإمام، أو مما هو منوط به دون إذن أو تفويض منه، والافتيات: مخالفة وجريمة معروفة في السياسة الشرعية وفي الفقه الإسلامي، وتسمى بتعبير العصر «جريمة انتحال الصفة» وقد نظم القانون الجنائي عقوبات هذه الجريمة في الفصول من 380 إلى 391.

3 الدين للحياة، ص158.

4 الفروق، لشهاب الدين القرافي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثالثة 2009م، (4/435).

وأن يكون في حدود الاختصاص، وطبقا لما هو مسموح به في القانون، لما علم سابقا من أن أمر القانون ونهيه يدخل في مسمى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المرتبة الثالثة: النهي عن المنكر بوازع الإيمان

وهذه المرتبة لعامة الناس، فلا يعذر به مؤمن، ومن لم يستطع أن ينكر بقلبه فلم يترسخ في قلبه حب الله ورسوله، إذ الإنكار بالقلب يقتضي بغض المعصية وطرقها وأشكالها والمصرين عليها¹.

وبعد أن بينا مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراتبه وشروطه في مشروع خطة تسديد التبليغ، يجدر بنا أن نوضح الآن علاقة هذه الآلية بتخليق الحياة العامة، حيث إننا ذكرنا سابقا أن هذه الآلية من أهم الطرق التي يستعان بها للوصول لهذا الهدف، وبيان تلك العلاقة لأن حياة المسلمين اليوم إنما تستقر بتطبيق القوانين، وقد سبقت الإشارة أن أمر القانون ونهيه يدخل في مسمى المعروف والمنكر، ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يسهم في إرساء النظام العام في المجتمع، وهو في الآن نفسه يحقق مقصد تخليق الحياة العامة، ثم إن المعارضة السياسية المشروعة والمنضبطة بالقانون تسهم كذلك بشكل كبير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما تسهم في إرساء التوازن المجتمعي، والتدافع المشروع الذي به يرتفع الفساد².

خاتمة

في الختام نخلص إلى أن مشروع خطة تسديد التبليغ قد اهتم بموضوع تخليق الحياة العامة اهتماما بالغا، حيث إن هذا الموضوع أخذ حيزا كبيرا من الوثائق المرجعية لهذه الخطة، مما يدل على أهمية هذا الموضوع، فهو هدف وفي الآن نفسه وسيلة لتحقيق الحياة الطيبة التي هي المقصد الأسمى من خطة تسديد التبليغ، بل هي المقصد الأسمى من الدين كله، لما ثبت من أن الدين إنما جاء لمصلحة الإنسان. كما نخلص إلى أن آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم مميزات التشريع الإسلامي، وهي في الآن نفسه من أهم الوسائل لتخليق الحياة العامة، ثم إن تخليق الحياة العامة يؤدي إلى مجتمع آمن ومستقر، يتسم بالصدق واحترام الآخر، وهو ما سيؤدي بلا شك إلى تحقيق الحياة الطيبة الموعود بها في القرآن الكريم.

هذا وإن اهتمام الشريعة الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يبرز فلسفة التشريع الإسلامي ونظراته نحو الفرد والجماعة، وهو بذلك سبق علماء الاجتماع إلى بيان العلاقة بين الفرد والجماعة أو المجتمع، كما أنه سبق بذلك النظم القانونية الحديثة التي أقرت المعارضة السياسية من

1 الدين للحياة، ص158.

2 يوميات الإرشاد، ص155.

مؤشرات وجود الديمقراطية في الدولة، بل إن آلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر تقدماً لكونه يكون بعلم، ويمارسه المجتمع كله كل واحد من زاوية اختصاصه.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع بالخط العثماني.
- أمانة التبليغ، للدكتور مصطفى بن حمزة، منشورات المجلس العلمي الأعلى، الطبعة الأولى 2024م.
- أنوار البروق في أنواء الفروق، لأبي العباس شهاب الدين القرافي (ت684هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثالثة 2009م.
- خطة تسديد التبليغ: دليل مرجعي في التأصيل والفهم والتنزيل، منشورات المجلس العلمي الأعلى.
- دليل المجالس العلمية المحلية، منشورات المجلس العلمي الأعلى، الطبعة الأولى 2021م.
- الدين للحياة، منشورات المجلس العلمي الأعلى.
- مختار الصحاح، لأبي عبد الله زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي (ت666هـ)، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الخامسة 1999م.
- المعتمد في أصول الفقه، لأبي الحسين البصري (ت436هـ)، تحقيق خليل الميس، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1403هـ.
- مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس (ت395هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، طبعة 1979م.
- مسند الإمام أحمد، لأحمد بن محمد بن حنبل (ت241هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 2001م.
- موطأ الإمام مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي، محمد مصطفى الأعظمي (ت1339هـ)، مؤسسة زايد ابن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الطبعة الأولى 2004م.
- الموافقات لأبي إسحاق إبراهيم الشاطبي (ت790هـ)، تحقيق الحسين أيت سعيد، منشورات البشير بنعطية، الطبعة الأولى 2017م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل الجوهري (ت393هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة 1987م.
- صحيح مسلم (الجامع الصحيح)، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج (ت261هـ)، تحقيق أحمد بن رفعت وآخرين، دار الطباعة العامة تركيا، طبعة 1334هـ.
- العلماء ورسالة الإصلاح في المغرب الحديث، وهي ندوة نظمت بمقر المجلس العلمي الأعلى يوم

الأحد 28 جمادى الأولى 1446هـ / 1 دجنبر 2024م.
-علم الاجتماع، لأنتوني غدينز، ترجمة وتقديم فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الرابعة.
-سبيل العلماء، للدكتور أحمد آيت إعزة، والدكتور سعيد شبار وآخرين، منشورات المجلس العلمي
الأعلى، الطبعة الأولى 2016م.
-شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد البيهقي (ت458هـ)، تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني
زغلول، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 2000م.
-يوميّات الإرشاد، منشورات معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشّيات، طبعة 2023م.



تسديد التبليغ وبيان مقاصد الاستخلاف

ذة. سعاد رحائم

عضو المجلس العلمي الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين. وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد، إن المبلغين من العلماء والعلماء، هم دعاة الكلمة الطيبة في دنيا الناس، وهم عماد الأمة وأملها المنشود في البناء العقدي والتربوي للمجتمعات والنهوض بالحضارات، وهم بهذا يشكلون الدرع الحصينة في تسديد تبليغ الدين ونشر القيم والمبادئ، بغاية تثبيت الأمن الاجتماعي والاقتصادي والفكري والسياسي للأوطان.

لأجل ذلك أرسل الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، وأمره بالبلاغ والبيان، وإيصال الدعوة إلى كافة الناس بشتى أساليب التبليغ. فكان صلى الله عليه وسلم في دعوته يتلمس أصحاب العقول الوافرة، والأنفس الزكية، والأخلاق الحميدة، فيعرض عليهم دعوته، ويشرح لهم أصولها، ويدعوهم للإيمان بالله.

وبهذا فالمبلغون هم أولى المكلفين باستنهاض همم الناس، بإعادة النظر في استرجاع صدارة القيم والمثل الكفيلة بإرساء قواعد الشهود الحضاري للمجتمعات من منظور قاعدة الاستخلاف.

خاصة في ظل ما يعيشه العالم اليوم من أزمات تربوية واجتماعية وأخلاقية، وفكرية ساهمت في زعزعة كيان الأمن الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والثقافي والفكري للمجتمعات، مما أدى إلى انكسار في القيم، وتصدع في البناء الحضاري لكثير من الأمم.

ولعل السبب المباشر في تفاقم هذه الأوضاع هو فتور الأمة عن الأخذ بأسباب التفاعل الحضاري الكفيل بفك حصار الأزمات والملهات، مما يستدعي من المبلغين إيقاظ الضمائر الحية والغيورة على حرمان المجتمعات، وصيانة حصونها من كل دخيل غث، والدعوة في شتى المناسبات إلى التمسك بالثوابت الدينية والوطنية التي تشد وثاق نسيج الوحدة، وتفضي إلى استمساكها بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

والسبيل إلى استنهاض الهمم في إعادة بناء القيم، يقتضي تجديد الوعي الاستخلافي لدى الناس كسبيل من سبل تسديد التبليغ، وخاصة لدى الشباب؛ لأن الإعداد الواعي أو الفهم الصحيح لمبادئ الاستخلاف، سينتج سلوكاً وقيماً تكون منسجمة مع أصول ومنطلقات هذا الوعي، الذي لا يمكن أن يتأتى إلا بالرجوع إلى ينابيع الحكمة الإلهية والهدي النبوي وفق مقاصد الشرع الحكيم، وما جاء به من

منهاج متكامل ومنسجم مع سنن الله تعالى في الكون والخلق. كما أن السبيل إلى ذلك يقتضي الوقوف على مبدأ السنن الكونية، التي جعلها الله عز وجل دلائل ثابتة للهداية والاعتبار، لأجل السير في الأرض على هدي وبصيرة. وأهم هذه السنن سنة التدافع الحضاري.

ولأجل تثبيت هذه القيم جاءت رسالة الإسلام متدرجة في تبليغ الدعوة للناس، كما تدرجت في تشريع الأحكام وإنزال التكليف، فتجزأ البلاغ على شعب الحياة، ورتب الهموم، وأجناس الناس والأقوام والأمم، على مراتب الرسل والنبئين.

ذلك أن إظهار دين التوحيد على باقي المعتقدات الأخرى، وإعلاء مرتكزات القيم الحضارية، وتحقيق معاني الاستخلاف للإنسان في علاقته مع ربه ومع نفسه ومع الكون، وفي علاقته بيوم المعاد لن يتحقق بالشكل المطلوب إلا عن طريق تسديد التبليغ في الفهم الصحيح للوظيفة الوجودية للإنسان، وهي استخلافه في الأرض وكذلك الوعي الكامل بالسنن الكونية.

ولمعالجة هذا الموضوع سأستعرض المباحث الآتية:

أولاً: ما المقصود بالاستخلاف في الاستعمال القرآني؟

ثانياً: تسديد تبليغ الوعي بمقاصد الاستخلاف وأبعاده

ثالثاً: ركائز تسديد التبليغ من منطق الاستخلاف الإيجابي

رابعاً: المبلغون ومسؤولية تبليغ الناس مراد الله من الاستخلاف

أولاً: ما المقصود بالاستخلاف في الاستعمال القرآني؟

إن المتأمل في الخطاب الإلهي من خلال العديد من نصوص القرآن الكريم سيجد تفسيراً واضحاً لمعنى الاستخلاف، فالدلالة المستنبطة من كلمة خلف واستخلف في الاستعمال القرآني لم تخرج عن نطاق الإيجابية؛ أي أن المستخلف من لدن الله عز وجل ينبغي أن يكون إنساناً إيجابياً فاعلاً في الأرض، متفاعلاً مع حركتها على ضوء توجيهات الوحي، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ بَعْلَغِيهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾¹ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾². (يونس: 14)، وهذه هي سننه سبحانه في خلقه.

1 سورة فاطر الآية: 39.

2 سورة يونس الآية: 14.

فحينما يعم الفساد في قوم من الأقسام، ويحذون بآيات الله ويكفرون بها، يلحق بهم عذاب الرحمان ثم يستخلف قوما آخرين، كما استخلف كثيرا من الأمم بعد قوم نوح قال تعالى: ﴿بَكَدَّبُوهُ فَتَجَنَّبْنَاهُ وَمَسَّ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾¹.

والاستخلاف يشكل بداية الوجود الإنساني على الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾²، وبموجب هذا الاستخلاف زود خالق الوجود سبحانه الإنسان بما يكفل له القيام بهذه المهمة. وفي مقدمة ذلك العلم الذي شكل أعلى مقامات التكريم الإلهي للإنسان وميزه به عن باقي المخلوقات قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾³.

وكذلك زود مكان الاستخلاف -وهو الأرض- بكل ما يحتاجه الإنسان لعيش كريم، فقدّر فيها أوقاتها وبارك فيها، قال تعالى: ﴿فَلْ أُنَبِّئُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمْوَاطَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلْسَائِلِينَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾⁴.

واستكمل الله عز وجل قيمة الاستخلاف ببعثة الأنبياء والرسل، وجعل القصد من بعثهم إقامة العدل في الأرض والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، قال تعالى مخاطبا داود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾⁵.

1 سورة يونس الآية: 72-73.

2 سورة البقرة الآية: 92.

3 سورة البقرة الآية: 30-32.

4 سورة فصلت الآية: 9-10.

5 سورة ص الآية: 26.

ثانيا: تسديد تبليغ الوعي بمقاصد الاستخلاف وأبعاده

إن الإنسان مستخلف في هذه الأرض لأجل أداء مهمة محددة، بينتها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾¹. «والعبادة هنا لا تعني فقط الشعائر التعبدية، من صلاة وزكاة وصوم وحج وغيرها، مما يسمى بالعبادات في كتب الفقه الإسلامي، بل تعني الانقياد والانصياع التامين للمنهج، الذي شرعه الله عز وجل بالكفايات والاستعدادات اللازمة لكشف بعض السنن، التي تعين الإنسان على أداء هذه الأمانة، وتفتح أمامه الطريق لفهم هذا العالم وفك رموزه والتعامل معه»².

هكذا نفهم أن استخلاف بني آدم في الأرض إنما كان لأجل إعمارها بالحق وإخلاص العبودية لله، وهذا هو منتهى قمة الشهود الحضاري لكل أمة حققت مراد الله من الاستخلاف، قال تعالى مبينا ذلك: ﴿قُلْ أَعِيزَ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾³.

أي أن الاستخلاف متبوع بالحساب يوم الدين عما كسبت كل نفس من أمرها. وفي هذا السياق أيضا يذكر رب الخلائق الإنسان بمقامه في الحياة الدنيا مركز الاستخلاف قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ بَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَبُورٌ رَّحِيمٌ﴾⁴.

ويحقق وعد الله تعالى لفئة المؤمنين بالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم إن هم آمنوا، وسارعوا إلى فعل الخيرات وأقبلوا على العمل الصالح، قال تعالى معللا كلمة الحق في وعده الصادق: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْبَاسِفُونَ، وَأَفِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾⁵ (النور: 54 - 56).

1 سورة الذاريات الآية: 65.

2 أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق للدكتور أحمد كنعان / كتاب الأمة، العدد 26 المحرم 1411هـ، منشورات الدوحة قطر، ص: 96.

3 سورة الأنعام الآية: 164.

4 سورة الأنعام الآية: 167.

5 سورة النور الآية: 54-56.

وأما من بدل وغير مقاصد الاستخلاف ومعانيه واتبع السبل، فلا بد أن تكون الثمرة من جنس العمل، وقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغي والبغي والظلم: فعن عبد الله بن عمر قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»¹.

فمن سننه عز وجل في إبقاء الحياة على الأرض عدلاً، أن يبدل المستخلف المفسد بالمستخلف المصلح، وأولى أمارات الإفساد في الأرض إضاعة الصلاة واتباع للشهوات، وفي اتباع الشهوات استكبار في الأرض وعلو على نعمائها وجمود بخيرات المنعم. وهذه آيات كريمات توضح ديمومة الاستخلاف الإيجابي :

- ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾².

- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾³.

- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾⁴.

- ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾⁵.

إن صيرورة استبدال المستخلفين إذا ما أخلوا بشروط الاستخلاف سنة ثابتة توضح من خلال منطوق الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿بِإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَضِيَ عَنْكُمْ كُلِّ شَيْءٍ حَمِيْطٌ﴾⁶، وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْعَنِّيْ ذُو الرِّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾⁷.

1 رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (5 / 61 - 62)، وفي «مسند الشاميين» (2 / 390)، والحاكم في «المستدرک» (4 / 540) وهو حديث صحيح الإسناد من طريق الهيثم بن حميد، قال: أخبرني أبو معبد حفص بن غيلان، عن عطاء بن أبي رباح، قال: كنت مع عبد الله بن عمر، فذكر الحديث /. كما أخرجه ابن ماجه الحديث رقم 4019.

2 سورة الأعراف الآية: 129.

3 سورة الأعراف الآية: 69.

4 سورة الأعراف الآية: 74.

5 سورة النمل الآية: 62.

6 سورة هود الآية: 56.

7 سورة الأنعام الآية: 134.

كما عبر القرآن الكريم عن معنى الاستخلاف، أحيانا، بلفظ التوريث: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾¹.

ثالثا: ركائز تسديد التبليغ من منطق الاستخلاف الإيجابي:

لما كان الاستخلاف في المفهوم القرآني ذكر في سياق الإيجابية والفعل الحضاري وإحقاق الحق في الأرض، فما حظ الناس من هذه الإيجابية في سياق تسديد التبليغ؟
إن رسالة التبليغ وتسيده من لدن المبلغين ينبغي أن يروم في سياق الأولويات الاهتمام بمرحلة الشباب، فهي أغنى مرحلة عمرية في حياة الإنسان، لأنها تحمل في معانيها العطاء والإبداع والإيجابية والفعالية. وقد ورد ذكر الشباب في القرآن الكريم بمعنى الفتوة، وكل الاستعمالات القرآنية لمفرد «فتوة» ذكر في سياق الإيجابية والفعالية، قال تعالى واصفا نبيه إبراهيم عليه السلام في حبه للخير ودفعه للباطل: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ وَإِبْرَاهِيمُ﴾²، وفي شأن فتية وشباب أهل الكهف قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾³.
كما شكل فتية أصحاب الكهف الطفرة النوعية والمتميزة في مجتمع الظلم والفساد، فثل هؤلاء الشباب بمفردهم أمة قانتة تحق الحق وتبطل الباطل، ومثلت فتوتهم أيضا رمزا للقوة والأمانة، وصفة من صفات كمال البناء القيمي في مجتمعهم وزمانهم، وهم بالنسبة لشبابنا قدوة مميزة في معاني الاستخلاف الراشد لبني الإنسان، قال تعالى في حقهم: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾⁴.

وكذلك كان يوسف عليه السلام في مقام العفة وحفظ العرض، نفد نموذجا للفتى الصالح الذي كابد وجاهد نفسه عن الاستسلام لما دعت إليه صاحبة الجمال والسلطان امرأة العزيز، قال تعالى يصف ذلك: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾⁵.

وبهذا المعنى نفهم أن الفتوة والشباب هما مهد البناء الصحيح لمرتكزات حقيقة الاستخلاف والشهود الحضاري في الأرض، تستدعي من العلماء والعلماء ترشيد التبليغ وتسيده من أجل ملازمة قضايا

1 سورة الأنبياء الآية: 104.

2 سورة الأنبياء الآية: 66.

3 سورة الكهف الآية: 10.

4 سورة الكهف الآية: 13.

5 سورة يوسف الآية: 30.

التغيير نحو إنتاج الفضيلة وبناء القيم.
والشباب في الذكر النبوي يحمل المعنى نفسه من الصلاح والفلاح وكل أفعال الخير، فهم الذين بنوا أمة البعث النبوي الحضاري خلال ثلاثة وعشرين سنة، فساهموا في الإعداد التربوي للمجتمع، وحملوا لواء التبليغ والتغيير والحق والتوحيد لله، وهدموا لواء الشرك والضلال، ونصروا دين الحق بجانب الرسول صلى الله عليه وسلم.

رابعاً : المبلغون ومسؤولية تبليغ الناس مراد الله من الاستخلاف

إن المبلِّغ هو الركن المهم في عملية التبليغ، من حيث موضوع التبليغ وأثره في المبلغين، والنتائج المحصلة من التبليغ، وأيضاً من جهة إدارة العملية التبليغية وتحديد المكان والزمان والظرف المناسب لها، وهو المعنى باختيار الوسيلة والأسلوب الأكثر ملاءمة من غيره. وبقدر ما تكون اختيارات المرتكزات التبليغية مسددة ومرشدة يكون التبليغ أكثر وقعاً وأثبت في نفوس المخاطبين.

إذاً تمكن المبلغون من تبليغ الناس حقيقة الكينونة الوجودية وبينوا المراد الحقيقي من استخلافهم في الأرض، جاءت بعدها مرحلة النظر في أساليب التبليغ السديدة للتجسيد العملي للقيم الحضارية في الفعل السلوكي وفي الممارسة الإيجابية لهذا السلوك.

ومن ثم فإن من بين أهم المرتكزات الأساسية، في الممارسة الإيجابية للفعل الحضاري لدى المبلغين تتجلى في الآتي:

أولاً: في تبليغ الناس كيفية تجديد الصلة بين الإنسان وخالقه: وذلك في اتجاه تصحيح العلاقة الروحية بين الإنسان وربّه وتقويتها بالقربات، من أجل بلوغ تحقيق العبودية الكاملة لله. وسبيل ذلك هو ربط الناس بخالقهم وجعل اتصالهم به اتصالاً مباشراً في إنتاج القيم والمبادئ الصالحة، وكذلك إرشادهم إلى نهج طريق تزكية النفس والارتقاء بها إلى مدارج الفضيلة والسمو الكفيلين بجعل الفرد ضمن عباد الرحمان، كل ذلك من أجل إعمار الأرض بما يليق بمقام الاستخلاف. وإذا أدرك الناس وجهتهم الصحيحة التي توصلهم إلى تجديد الصلة بينهم وبين خالقهم، علموا يقيناً أن كل أفعالهم ينبغي أن تكون لله كما أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾¹.

والعلم هو السبيل المفضي إلى تجديد الصلة المتواصلة بين الإنسان وخالقه، فكم من عالم ينتمي إلى مجتمع غربي يتفوقه العلمي عرف طريقه إلى الله، وأرشدته روحه العالمة إلى البحث عن الحقيقة الكونية،

1 سورة الأنعام الآية: 162.

فكانت النتيجة الإيمان بالله والتصديق بوحدانيته، والنماذج عبر التاريخ على ذلك كثيرة، تؤكد دور العلم في الارتقاء بالنفس إلى مدارج الفضيلة وسمو السلوك. ولا بأس هنا أن ندرج بعض الأسماء اللامعة في التاريخ القريب نضعها بين يدي الشباب المسلم كي يأخذ العبرة ومن ثم يساهم في الاستخلاف الإيجابي: تقول عالمة الذرة «جونان التوت» والتي أسلمت من بين 250 رجلاً وامرأة أشهروا إسلامهم في اليوم نفسه: «المسألة ليست انتقالاً من دين إلى آخر، ولا هي تحد لمشاعر وطقوس توارثناها، إنما هي الحرية المنشودة والفردوس المفقود الذي نشعر بأننا أشد الحاجة إليه، نحن الشباب في الغرب نرفض واقع الدين الروماني والواقع المادي للحياة، وحل هذه المعادلة الصعبة هي أن نشعر بالإيمان بالله... وبعض الشباب غرق في الرقص بحثاً عن الله، وفي الشيطان، في المخدرات، وفي الهجرة إلى الديانات الشرقية القديمة. وخاصة البوذية، وقليلون هم الذين أعطوا لأنفسهم فرصة التأني والبحث والدراسة. وهؤلاء وجدوا في الدين الإسلامي حلاً للمعادلة الصعبة، وإذا كان عددهم لا يزال قليلاً...»¹. وفي هذا الصدد نشير أيضاً إلى أحد كبار الأطباء المتخصصين في علم التشريح الدكتور «موريس بوكاي» الفرنسي الأصل، والذي ترعرع في أسرة تدين بالنصرانية، وكان جراحاً كبيراً في فرنسا. فكان من مهارته في الجراحة قصة عجيبة غيرت حياته من النصرانية إلى الإسلام... ففي عام 1991م، طلبت فرنسا من دولة مصر استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية على الجثة.

وكان البروفيسور موريس بوكاي حينها هو رئيس الجراحين، بل المسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية، ففي الوقت الذي كان فيه المعالجون مهتمون بترميم المومياء، بينما كان اهتمام موريس بوكاي محاولة اكتشاف كيف مات هذا الملك الفرعوني، ولما ظهرت نتائج تحليله النهائية.. تم العثور على بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقاً، وأن جثته استخرجت من البحر بعد غرقه فوراً، ثم أسرعوا بتحنيطها لينجو بدنه.

ومما زاد حيرة موريس أنه كيف بقيت هذه الجثة دون باقي الجثث الفرعونية المخبأة أكثر سلامة من غيرها رغم أنها استخرجت من البحر... كان موريس بوكاي ينجز تقريراً نهائياً عما كان يعتقد أنه اكتشافاً جديداً في انتشار جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة، حتى همس أحدهم في أذنه قائلاً: لا تتعجل فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء.. ولكنه استنكر بشدة هذا الخبر، واستغربه معتقداً أن مثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث، وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة.

1 - انظر: الرسول صلى الله عليه وسلم في عيون غربية منصفة للمؤلف الحسيني الحسيني معدي/ دار الكتاب العربي مصر سنة 2006م الطبعة الأولى، ص: 72.

وتساءل كيف يمكن أن يكون هذا، وهذه المومياة لم تكتشف أصلاً إلا في عام 1898م ميلادية أي قبل مائتي عام تقريباً، بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام؟! وكيف يستقيم في العقل هذا، والبشرية جمعاء وليس العرب فقط لم يكونوا يعلمون شيئاً عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط.

وبدأ يتساءل كيف ورد ذكر ذلك في قرآن العرب، ولم يرد ذكره على هذا الوجه في التوراة والإنجيل. لم يهنأ له قرار ولم يهدأ له بال، حتى سافر إلى إحدى الدول العربية لحضور مؤتمر طبي يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين.. وهناك كان أول حديث تحدّثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق.. فقام أحدهم وفتح له المصحف وقرأ عليه قوله تعالى: ﴿بَالْيَوْمِ نَنْجِيكَ بَيْنَكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾¹. لقد كان وقع الآية عليه شديداً.. ورجت له نفسه رجة جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته: «لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن».

وكان من ثمرة إيمانه بالله والتصديق بكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أن عكف على دراسة القرآن الكريم، ثم قام بتأليف كتاب عن القرآن الكريم دراسة مقارنة مع التوراة والإنجيل سماه «القرآن والتوراة والإنجيل والعلم.. دراسة في ضوء المعارف الحديثة»، هذا الكتاب الذي ترجم إلى لغات العالم، ولقي قبولا لدى القراء المنصفين من مختلف الأجناس والديانات. يقول موريس بوكاي في مقدمة كتابه: «لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكانني اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدقة بموضوعات شديدة التنوع، ومطابقتها تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص قد كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً»².

ثانياً: تبليغ الناس كيفية تجديد الصلة بين الإنسان والقُدوة النبوية: وذلك من خلال إرشاد الناس إلى إعادة قراءة السيرة النبوية العطرة قراءة واعية، ترشد إلى المقاصد التربوية النبوية الكبرى في إعداد أمة الوسط التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم هو النموذج الحضاري لمبدأ الاستخلاف الحقيقي المرجو من خلق الإنسان واستعمارهِ في الأرض. لذلك فكل خبر أو أثر أو سلوك قولي أو فعلي أو عملي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لم تنقله كتب السيرة والسنن عبثاً، وإنما شكلت تلك الثروة النبوية الكريمة الأداة المحركة للفعل الحضاري،

1 سورة يونس الآية: 92.

2 - القرآن والتوراة والإنجيل، دراسة في ضوء العلم الحديث: تأليف موريس بوكاي، ترجمة عادل يوسف، الطبعة الأولى: 2009م/ الناشر مكتبة الأهلية الأردن، ص: 11.

الذي يرسم للناس طريق السواء في علاقة الحياة الدنيا بالآخرة، وفي بيان تام للعلاقة السننية بين الخلق والاستخلاف.

لأن مواجهة التحديات والأزمات النفسية والسلوكية تفرض على المبلغين امتلاك المؤهلات اللازمة لإرشاد الناس إلى الحياة الطيبة، والتي من شروطها أن تكون في مستوى ما يتطلبه الوضع الإنساني الحالي، وخاصة شبابه الذي أصبح يعيش أزمات نفسية واجتماعية، وأخلاقية وفكرية وثقافية. وإذا أردنا أن نحقق هذا المستوى من الفعل الحضاري المتمثل في القدوة النبوية في سياق تسديد التبليغ وانتقاء مفرداته المناسبة، لا بد أن نجد فهمنا وتطبيقنا لسنة صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته، من أجل بلوغ حياة طيبة في دنيا الناس على عين الوحي والسنة النبوية المطهرة.

فإذا كان النبي الكريم قد أسس مركات الدولة الإسلامية وبنى قواعدها على عين الرحمن كما ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَاصِرٌ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾¹، فإننا باتباع هديه صلى الله عليه وسلم سنكون من عباد الرحمن الذين يتفاعلون مع الكون وفق منهج الرحمان وعلى عينه وبصيرته سبحانه كذلك.

وسيرته صلى الله عليه وسلم العطرة كانت لها رياحين عطرة، جعلتها محط اهتمام الدارسين من علماء الغرب المنصفين للحقيقة العلمية التاريخية بمنطق العقل الواعي الذي يزن الأمور بميزان العدل والإنصاف وفيه صلى الله عليه وسلم يقول العالم الإنجليزي كارليل في كتابه الأبطال: «إن العار أن يصغى الإنسان المتمدن من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين أن دين الإسلام دين كذب، وأن محمدا لم يكن على حق، لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ظلت سراجا منيرا أربعة عشر قرنا من الزمن لملايين كثيرة من الناس، فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين، وماتت أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع، لو أنه الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفا، وعبثا وكان الأجدر بها أن لا توجد.

إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتا من الطوب لجهله بخصائص البناء، وإذا بناه فما ذلك الذي يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد، فبالك بالذي يبني بيتا دعائمه هذه القرون العديدة وتسكنه مئات الملايين من الناس .

فما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق، وما كلمته إلا صوت حق صادر من العالم المجهول، وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. إلى أن قال: «كان عادلاً، صادق النية، كان ذكي اللب، شهم الفؤاد، لَوَدَعِيَّاً، كأنا بين جنبه مصايح

1 سورة الطور الآية: 74.

كل ليل بهيم، ممتلئاً نوراً، رجلاً عظيماً بفطرته، لم يتقفه مدرسة، ولا هذبه معلم، وهو غني عن ذلك»¹.
 ثالثاً: تبليغ الناس آليات التفاعل الإيجابي مع الفعل الحضاري: وأقصد بذلك الوعي التام بواقع المرحلة الراهنة، وما أنتجته العولمة من الوسائل والتقنيات الحديثة، والتكنولوجيا ووسائل الإعلام والاتصال والتواصل، وما يتبع ذلك من تغيرات في أحوال الناس في المجال العقدي والفكري والتربوي والاجتماعي العام، بما يحمله هذا الفعل الحضاري من رياح التغيير والانجراف الذي قد يهوي بأفئدة الناس إلى الانسلاخ عن هويتهم الوطنية وثوابتهم الدينية، والتي إن هم تمسكوا بها يحافظون على وحدتهم وتماسكهم الاجتماعي، ومن ثم فيها يشكلون سدا منيعاً ضد أي تيار مفسد للوحدة العقدية والوطنية.

فالمبلغون من العلماء بهذا يكونون أهم الواقفين على حصون الممانعة في توعية الناس بعظمة دينهم، ثم السعي في الأرض بما يحقق استخلافاً إيجابياً، يتأسس على نصره الدين والعقل والمال والعرض والنفس، وكذلك يتأسس على نصره الوحدة التكاملية بين الإنسان وأخيه الإنسان، في استشعار دائم بوحدة المسؤولية في الحفاظ على وحدة الأمة والتمسك بثوابتها. وفي نكران تام لحدود الأنا النفعية إلى مجتمع الخيرية، المراد من قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾².

وبهذا «ففضيلة شهادة الأمة التي جعلها الله تعالى وسطاً كي تشهد على الناس، وقرن شهادتها بشهادة الرسول عليها، أهم وأعمق من الثناء بالخير أو الذكر بالسوء، لأن شهادة الأمة الوسط على الناس تتعلق أساساً بأن تبلغ هذه الأمة بدورها، وبصورة متواصلة لا انقطاع ولا فتور فيها ما بلغها الرسول، فهو يشهد علينا أن بلغنا، ونحن بدورنا نشهد من بعده أننا بلغنا الناس ما بلغنا... فشهادة الرسول عليه السلام مقترنة بالتبشير والنذير والدعوة إلى الله حتى يكون لجميع الناس سراجاً منيراً، ذلك فحوى شهادته عليه السلام، وشهادة أمة الوسط هي أن يكون كل فرد من أفرادها بقوله وسلوكه، سراجاً منيراً بدوره... إن الشهادة تقتضي الارتفاع بالإنسان إلى أسمى معاني إنسانيته، وتوطد الصلة بينه وبين خالقه»³.

رابعا: تبليغ الناس كفايات تجديد الوعي الكامل بسنن الله تعالى في كونه وخلقه:

ذلك أن العمل الصالح طريق إلى الحياة الطيبة قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّمَّ دَكْرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁴.

- ومنه أن العمل الصالح طريق إلى الجنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

1 كتاب الأبطال لتوماس كارليل / تعريب محمد السباعي / المطبعة المصرية الأزهر سنة 1930م / الطبعة الثالثة / ص: 75.

2 سورة آل عمران الآية: 110.

3 انظر: أمة الوسط التحديات والعصر لمحمد الطالب / تونس سراس للنشر 1996م، ص: 29.

4 سورة النحل الآية: 97.

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ
فِيلاً¹.

- ومنه أن تجاوز حدود الله هو ظلم للنفس، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾²
وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾³.

وجملة القول في الوعي الكامل بالسنن الإلهية، أن هذا الكون مبني على سنة التدافع والتداول
الحضاري بين الأقاليم، وفقه هذه السنن يضيء درب المسلم نحو الصلاح ويمده بالقدرة اللازمة على التمييز
بين صالح الأشياء وفاسدها. ولعل سنة التدافع الحضاري هي المحور الرئيس في الإبقاء على صفة الخيرية
لأمة الوسط واستمرار الفعل الحضاري الإيجابي.

ذلك أن الحق في صراع وتدافع دائم مع الباطل، والنصرة تكون دائماً في جانب الحق، قال تعالى:
﴿وَلَوْلَا دِفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾⁴.
وبانتصار الحق يمكن الله تعالى لعباده المخلصين، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي
ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾⁵.

والحمد لله رب العالمين

1 سورة النساء الآية: 122.

2 سورة الطلاق الآية: 1.

3 سورة البقرة الآية: 229.

4 سورة البقرة الآية: 251.

5 سورة النور الآية: 55.

خطة تسديد التبليغ: الأهداف والمقاصد

ذ. ابراهيم الوافي

رئيس المجلس العلمي المحلي لإنزكان آيت ملول

بادرت مؤسسة العلماء مشكورة، تحت رئاسة ورعاية مولانا أمير المؤمنين، دام له النصر والتمكين، إلى تبني مشروع دعوي، يعد من الأهمية بمكان، اختارت له عنوان: «خطة تسديد التبليغ»، مؤصلة له من قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّسْ ذَكَرٍ أَوْ انْثَبَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾¹؛ فما هي هذه الخطة، وما أهدافها ومقاصدها؟

1- مفهوم الخطة: الخطة بضم الخاء؛ تطلق على الأمر، والقضية، والطريق؛ يقال فلان يبني خطط المكارم؛ أي يمهّد لها بالتخطيط لنشرها².

2 - مفهوم التسديد: هو القصد إلى السداد وإصابته في القول والفعل، ومنه قول كعب ابن زهير:

ماذا عليها وماذا كان ينقصها *** يوم الترحل لو قالت لنا سَدَدًا؟!³

والقول السداد والسديد، بمعنى. وسدّده الله: وفقه للقصد والرشاد⁴. وفسر مجاهد القول السديد في

قوله تعالى: (وقولوا قولاً سديداً)⁵ بمعنى صادقاً⁶.

وشرح القاضي عياض قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سدّدوا وقاربوا»⁷؛ بمعنى: «اقصدوا السداد، واطلبوه واعملوا به في الأمور، وهو القصد فيها، فوق التفريط ودون الغلو»⁸، كما شرح قوله صلى الله عليه وسلم في الدعاء: «اللهم اهدني وسدّدني»⁹ بمعنى: «وفّقني للقصد واستعملني به».

3 - مفهوم التبليغ: التبليغ؛ الإيصال، يقال: بلّغت القوم الخبر تبليغاً، إذا وصلته إليهم، وبلّغ المكان:

1 سورة النحل، الآية: 67.

2 أساس البلاغة للزمخشري، ومختار الصحاح، والمصباح المنير، مادة: خ ط ط.

3 العين للخليل بن أحمد، مادة: س د د.

4 العين للخليل بن أحمد، مادة: س د د.

5 سورة الأحزاب، الآية: 70.

6 تفسير مجاهد بن جبر، ص: 552.

7 صحيح البخاري: كتاب الدعوات، باب القصد والمداومة على العمل. ح. 6467. صحيح مسلم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى. ح. 78 - (2818).

8 مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض (2: 210).

9 صحيح مسلم، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل. ح. (2725).

وصل إليه أو شارف عليه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِّغْهُمْ رِسَالَتِي﴾²؛ أي: لا أجد منجى؛ إلا أن أبلغ ما أرسلت به³.

4 - مرادفات التبليغ: للتبليغ مرادفات تحمل معناه أو تتكافأ معه، أو تدل على موضوعه، ومنها: الإيصال والبيان، والوعظ، والإرشاد، والدعوة، والنصح، والتوجيه، والترغيب، والتأدية، وغيرها. وأقرب دلالة إلى التبليغ هي البيان؛ والبيان: ملكة يعرف بها إيراد المعنى الواحد في صور مختلفة، وهو إفهام الغير بالتعبير عما في الضمير؛ قال الكفوي: «وقد يطلق البيان على نفس التبليغ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾⁴».

ويشهد لدلالة البيان على التبليغ قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾⁵؛ كما يشهد لدلالة الوعظ عليه أيضاً، قوله تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾⁶، وقوله سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِّ لَهُمْ يَاتِيَةً هِيَ أَحْسَنُ﴾⁷، وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾⁸، وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلِّغْكُمْ رِسَالَتِي رَّبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾⁹. ومع ذلك فإن لفظ التبليغ يبقى هو اللفظ الكلي الجامع للدلالة عما سواه، مما يقاربه أو يدور في معناه.

يقول الكفوي: «الإبلاغ: الإيصال، وكذا التبليغ؛ إلا أن التبليغ يلاحظ فيه الكثرة في المبلغ، وفي أصل الفعل أيضاً، على ما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ الْمُبِينِ﴾¹⁰، ومن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾¹¹».

5 - خطة تسديد التبليغ: وأما «خطة تسديد التبليغ»، فهي عنوان المشروع الذي تبناه المجلس العلمي الأعلى بالمملكة المغربية، من أجل النهوض برسالة العلماء، وأداء أمانة تبليغ الدين المنوطة بهم؛ لتحقيق

1 البقرة، الآية: 234.

2 البقرة، الآية: 234.

3 مشارق الأنوار (2: 210).

4 الكليات لأبي البقاء الكفوي (ت. 1094هـ)، ص: 230.

5 سورة إبراهيم، الآية: 54.

6 سورة النساء، الآية: 62.

7 سورة النحل، الآية: 125.

8 سورة فصلت، الآية: 32.

9 سورة الأعراف، الآية: 67.

10 سورة العنكبوت، الآية: 17. / سورة النور، الآية: 52.

11 الكليات، ص: 33.

مقومات الحياة الطيبة في المعيش اليومي للناس، بحيث يكون لإيمانهم بالله تعالى وعبادتهم له، أثر في سلوكياتهم ومعاملاتهم، وصلاح ظواهرهم وبواطنهم؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَتَّبَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ¹.

6 - تبليغ الدين من سنن المرسلين: من المعلوم من الدين بالضرورة، الإيمان بالله تعالى وبرسوله، وما يجب وما يجوز وما يستحيل في حقهم، وأن مهمتهم الأساسية هي أمانة التبليغ، وما جاء فيه من الوعد والوعيد؛ وقد هياهم الله تعالى لهذه المهمة خَلَقَهُ وَخَلَقَا، وعدم كتمان ما أمروا بتبليغه؛ وقد أخبر القرآن الكريم بوجود الرسل في كل الأمم بدون استثناء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾²، كما أخبر عن الغاية والقصد من إرسالهم، في قوله سبحانه: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾³.

وأما النداء المخصوص بأفضلهم وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتِي﴾⁴؛ فهو نداء رفعة وتشريف، وإعلاء مقام وتكليف، لتبليغ الرسالة المنزلة عليه إلى الناس كافة؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾⁵ وقد عصمه الله من الناس، ليوفر له فرصة التبليغ، مخاطباً إياه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾⁶، ولم يتوان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يضعف، حتى أدى المهمة على أحسن وجه وأتمه، وتركها سنة باقية في أمته، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأوصى أمته بالاستقرار في التبليغ عنه، فقال صلى الله عليه وسلم: «بلغوا عني ولو آية»، وأخذ عنه العلماء ورثة الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾⁷؛ ولقوله: ﴿وَمَا يَعْفَلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾⁸. وأقام صلى الله عليه وسلم الحجة على الناس في خطبة حجة الوداع بتكرار قوله: «ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!»؛ ليؤكد لهم أن التبليغ هو هدف الرسالة الأعلى، ومقصدها الأسمى، وغايتها المثلى.

1 سورة الذاريات، الآية: 55-56.

2 سورة فاطر، الآية: 24.

3 سورة النساء، الآية: 164.

4 سورة المائدة، الآية: 69.

5 سورة سبأ، الآية: 28.

6 سورة المائدة، جزء من الآية: 69.

7 سورة فاطر، الآية: 32.

8 سورة النعكوت، الآية: 43.

المنهج الأسد، في التبليغ المعتمد: من المعلوم أن المنهج الأسد في التبليغ هو منهج الرسول صلى الله عليه وسلم؛ الذي يقوم على النموذج الأمثل في التبليغ؛ لما رسمه الله تعالى له في كتابه العزيز بقوله: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾¹، وما خصه به من أمور خاطبه بها، من مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَئِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطٍ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾²، وقوله عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾³ ووصفه تعالى بأنه على خلق عظيم فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾⁴، وتكرّم عليه بأن آلانهُ برحمته لخلقه بقوله جلّ ذكره: ﴿بِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾⁵. ولما قدر الله تعالى أن يكون هذا الدين خاتمة الأديان، كان من الحكمة إمهال المعاندين له والجاحدين؛ ولم يُعجل باستئصالهم رجاء إيمانهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾⁶، وأما ما كان من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل، فما هو إلا استصلاح لحالهم، وهو مظهر من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثته صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾⁷؛ فاشتملت هاتاه الآيات على إيجاز ألفاظها مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ومدح رسالته، بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة. وفوق هذا وذاك، فقد ألهمه الله المنهج المزكي في التبليغ، ألا وهو المنهج الفطري، الذي يخاطب فطرة الإنسان التي فطره الله عليها بهذا الدين الفطري؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنفِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيبًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾⁸، ودليل نجاعة منهج الفطرة المنتج للإقناع والاعتناع؛ أنه لا يشق على المخاطب به الأخذ به، ولا يكلفه فوق طاقته، فهو المنهج الفعال، الذي يؤتي أكله بأقل جهد، وفي أقصر وقت، بخلاف غيره من المناهج الأخرى، التي تحتاج إلى مجهود كبير في استيعابها، وتكييفها وتنزيلها.

1 سورة النحل، الآية: 125.

2 سورة الشورى، الآية: 49-50.

3 سورة النساء، الآية: 112.

4 سورة القلم، الآية: 4.

5 سورة آل عمران، الآية: 159.

6 سورة الأنفال، الآية: 33.

7 سورة الأنبياء، الآية: 106.

8 سورة الروم، الآية: 29.

ويرتكز هذا المنهج التبليغي النبوي على أربعة مرتكزات وهي:

أ - تلاوة آيات الله.

ب - تزكية النفوس بتطهيرها ظاهرا وباطنا.

ج - تعليمهم الكتاب .

د - تعليمهم الحكمة.

ويجمعها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنبَأَهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾¹.

أهداف خطة التبليغ: لا يختلف المنصفون، والمدركون للحقائق وأثرها في الواقع، أن مؤسسة العلماء برئاسة وتوجيهات مولانا أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله، تنهض بكل إخلاص بالمهام المنوطة بها، وتسعى جاهدة إلى القيام بواجبها؛ للرفع من مجال الشأن الديني بالبلاد، وجعله قاطرة لتحصين المجتمع بدين الوسطية والرحمة والاعتدال، فضلا عن جهدها المتواصل في ترسيخ الثوابت الدينية والوطنية، والاختيارات المذهبية المتمسك بها منذ قرون؛ ثم نظرت إلى التفكير في تفعيل عملية التبليغ، ووضعت مشروعا لسيده وفق خطة مسددة، ألا وهو: مشروع خطة تسديد التبليغ، ورسمت له أهدافا ومقاصد، تسعى جادة لتحقيقها وتنزيلها على أرض الواقع، ويمكن إجمالها فيما يلي:

1 - الحرص على ربط الناس بخالقهم ورازقهم ومدير أمرهم، والمتحكم في مصيرهم بالإيمان به حق الإيمان، والامتثال لأوامره، واجتناب نواهيه.

2 - السعي إلى تضييق الهوة الحاصلة بين الدين والتدين، بجعل العبادات تثمر الأهداف والمقاصد المرجوة منها، وهي تزكية النفس وجعلها نفسا مطمئنة، ترجع إلى ربها راضية مرضية، فيدخلها في عباده وفي جنته.

3 - القيام بالعمل الصالح الخالص لوجه الله، الموافق لشرع الله، المحقق لمرضاة الله.

4 - ربط الناس بالقرآن وبوازع القرآن، إيمانا به، وتلاوة له، وفهما وتدبرا لمعانيه، وعملا بما جاء به، ونشرا له، وتبليغه لمن لم يبلغه.

5 - الوصول عبر الانقياد الطوعي للأوامر والنواهي الإلهية، إلى الشعور بدافع محاسبة النفس، وإلزامها بخلق التقوى الذي يقياها شر جميع الآفات الدنيوية والأخروية.

6 - الحرص على حفظ وازع السلطان، كالحرص على حفظ وازع القرآن، حماية للنظام والأمن العام؛ لقول سيدنا عثمان: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

1 سورة آل عمران، الآية: 164.

- 7 - السعي في نشر ثقافة الإيثار، والإنصاف، والعدل، وحرمة الأنفس، والأموال، والأعراض، جمعاً بين وازع القرآن، ووازع السلطان، في صون الحقوق والواجبات، المتعلقة بالخالق والمخلوقات.
- 8 - التحفيز والتشجيع على البذل والإنفاق، وعلى فعل الخير والإحسان، بما يحقق التكافل والتعاون والتضامن بين الناس، ويقوي الصلات والأواصر والتماسك الاجتماعي، ويحد من أثر الخصاصة بين الأفراد والأسر والمجتمعات.
- 9 - استحثاث أهل العلم والصلاح للقيام بالواجب المنوط بهم في تبليغ الدين أحسن قيام، من أجل أن يحيي الناس حياة طيبة.

10 - تجديد صلة الناس بربهم، والتزامهم بما فرضه عليهم من دين؛ لتزكية نفوسهم، وتقويم سلوكهم، وصلاح أحوالهم، بهدف إسعادهم في دنياهم وأخراتهم؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحاً مِّمَّا ذَكَرْ أَوْ انْتَبَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾¹.

خاتمة:

إن المغاربة بحمد الله، يحملون في صدورهم إيماناً قوياً بالله، وتقديراً كبيراً لكتاب الله، وحباً صادقاً وتلقائياً لخاتم رسل الله، وتعلقاً بثوابتهم ومقدساتهم، وهم من أجل ذلك سعداء أقوياء بإيمانهم وإخلاصهم، يحيون دوماً حياة طيبة، وهم يتلون آيات الله آناء الليل وأطراف النهار، وملائكة الرحمن تحفهم، وتغشي مجالسهم الذكورية والتذكيرية، وتشهد لهم بإقامة الصلوات الخمس جماعة في المساجد، وتكتبهم من عمارها، وهذا والله الحمد والمنة، في كل يوم وليلة، فمهارتهم بالقرآن، وشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بذلك بأنهم مع السفارة الكرام البررة، وأنهم أهل الله وخاصته؛ لحبهم للقرآن، وولعهم بإتقان حفظه، وتعليمه لأولادهم في الصغر؛ ليكون تحصيناً لهم في كبرهم، فهم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم؛ فكل هذه الإيجابيات الدينية والإيمانية والروحية، تجعل المغاربة بإذن الله، في وقاية من أنواع ضغوطات الحياة؛ وإن كانوا كغيرهم يعترهم ما يعترى بني الإنسان، من السهو والنسيان، فإنهم يحتاجون إلى التذكير، الذي هو منهج قرآني رباني، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِإِنَّ الذِّكْرَ لَئِنْ تَتَّبَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾²، ومن أجل تحقيق هذا المقصد النبيل، والعمل الجليل، تم التفكير في مشروع خطة تسديد التبليغ، المرجو لها نجاحاً وتنزيلاً كامل التوفيق.

1 سورة النحل، الآية: 97.

2 سورة الذاريات، الآية: 55.

سبل تبليغ الدين لما ينفع الناس في البلدان الإفريقية

ذ. رقية أحمد منيه

عضو فرع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة
بالجمهورية الإسلامية الموريتانية

مقدمة

الحمد لله الذي امتن على عباده المؤمنين بإرسال الرحمة المهداة للعالمين، فجعله نورا يهدي به إلى صراط الله المستقيم، وأمره بتبليغ الدين لمن أراد الوصول إلى أسنى المطالب وأفضل الرغائب، فقال في الكتاب العزيز: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾¹، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على النبي المختار، القائل في الصحيح عنه: «لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُلَبِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»²، وعلى آله الأخيار، وصحبه الأبرار، صلاة تغفر بها الذنوب، وتستر العيوب، وتكفيها بها همي الدنيا والآخرة.

وبعد؛

فإنه لا يخفى على ذي لب التباين الحاصل بين ما يدعو إليه الدين القويم من إصلاح الأقوال والأفعال، وبين واقع الناس الذي يتردى في المهالك، فلا تخطئ العين مظاهر رقة الدين، وابتعاد فئات كثيرة من المجتمعات عن تعاليم الإسلام الرامية إلى تحقيق السعادة في الدارين، والحرص على ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، وليس السياق الإفريقي نشازا، من واقع الأمة مع ما يبذل من جهود طيبة، نرجو أن تغرس غراس خير، تكون شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ومن ذلك تدارس أنجع السبل للوصول إلى ما ينفع الناس في البلدان الإفريقية، ولعل الجهد الطيب الذي أنتج وثيقة «ميثاق العلماء الأفارقة»، يعتبر من السبل السالكة، إذ يبين مهام العلماء وقيامهم بأمانة التبليغ؛ «إن لعالم الأمة مشروعية كبرى توجب عليه أن يؤدي حق علمه في أي مكان أوجده الله فيه، بإحسان تبليغه، وإجادة تقرّبه، وتحصيل النفع الممكن به النيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم في تلقينه، والافتداء به في تمثيله، مع الحرص على الدعوة إلى الخير وتحقيق الهداية المرجوة لأتباع ملته صلى

1 الأنبياء: 106.

2 صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم رب مبلغ أوعى من سامع، (حديث رقم: 67).

الله عليه وسلم»¹، ولرفع اللبس عن المعاني المقصودة، كان من المناسب سبر المحاور الأساسية لتقريب الفهم لما ينبغي تصويره لإنجاز خطة متكاملة لسبل التبليغ.

المحور الأول: أساس تبليغ الدين وتحقيق ثماره الطيبة

إن مهمة التبليغ من أعظم وأخطر المهام، لذلك كان اختيار صفوة البشر لحمل أمانة ناءت بها السماوات والأرض، فاختار الله تعالى الرسل عليهم السلام مبشرين ومنذرين لإقامة الحجّة والهداية إلى المَحجّة، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿رُسُلًا مَّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾²، قال صاحب الجامع لأحكام القرآن³: «وَمُنْذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» فيقولوا ما أرسلت إلينا رسولا، وما أنزلت علينا كتابا، وفي التنزيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾⁴.

هذا من فضل الله على الناس، أن تكون البشارة لمن أطاع الله ليسلك سبيل الهدى، بالسعادة الدنيوية والأخروية، والندارة لمن عصى وخالف ونكص على عقبيه، بالحذر من الشقاوة والخسران المبين في الدارين، ولما كان شأن أمر التصديق موجبا للنجاة وطريقا للفوز والفلاح، ترتب عنه مزيد عناية بالمبلغين، إذ ليست الغاية إخراج المكلفين من دائرة الدين، وإنما المطلب الأقصى أن يدخل الناس في دين الله أفواجا، ولا يكون شيء من ذلك إلا بالتمسك بالأصول والحرص على هداية كل الناس إلى دين الرحمة. وتسديد التبليغ يكون بوسائل تبين الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، يقول الله تبارك وتعالى في الكتاب العزيز: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾⁵، قال صاحب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن⁶: «قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أمر الله - جلّ وعلا - نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة: أن يجادل خصومه بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة: من إيضاح الحق والرفق واللين»، إن كان هذا حال الأمر مع المخالف في الملة، فما بالكم بالأخ في الملة، وهذا المعنى بينه النبي صلى

1 ميثاق العلماء الأفارقة، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، نص الميثاق، الطبعة الأولى 1445هـ/2023م، (2) مهام العلماء، ص 27.

2 النساء: 165.

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (18/6).

4 الإسراء: 15.

5 النحل: 125.

6 محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (465/2).

الله عليه وسلم: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»¹، قال صاحب فتح الباري²: «الرفق هو لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف، وقوله: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله». في حديث عمرة عن عائشة عند مسلم: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»³، والمعنى أنه يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده، وقيل: المراد يثيب عليه ما لا يثيب على غيره».

على الراغب الذي يريد أن يبين للناس أمر دينهم، ليعلموا ما يجلب رضا الرب جل جلاله فيتبعوا رضوانه، وما يدفع سخطه فيجتنبوه، وليس القصد تنفير الناس ولا التعسير عليهم عملاً بمبدأ رفع الحرج، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾⁴، قال صاحب تفسير القرآن العظيم⁵: «وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء فشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً»، وقاعدة رفع الحرج من أعظم القواعد التي تؤسس لمظاهر الرفق في دين الرحمة، وفيها من بيان سماحة الشريعة والتخفيف على الناس بالرخص الشرعية، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إني أرسلت بحنيفية سميحة»⁶.

أولاً: تسديد التبليغ باليسير على الناس

إن الحديث عن رد مسألة سبل التبليغ إلى الأصول الشرعية، يعني النظر في موارد الشريعة بشأن الغاية من البلاغ، والتقييد بمبدأ التيسير دون التعسير، وهو ما أكد عليه ميثاق العلماء⁷: «والمراد به النأي عن كل ما يخرج الناس ويعسر عليهم مسائل معاشهم، ويكرههم في قبول أحكام دينهم، وهو من كليات الدين القطعية التي تعدد فيها التناقل قرآناً وسنة، ومن ثم مقصداً، وقد تعددت الآيات الرافعة للعسر والرافضة للحرج في أحكام الشريعة التي جاءت أصالة لمصلحة العباد وإسعادهم، مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾⁸، وقد أكدت السنة هذا المقصد، وأوجبت التيسير حتى لا يكلف الناس ما لا يطيقون، وحتى لا ينقر الناس عن تنفيذ أحكام الدين، ومما ورد في ذلك قول

1 صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، (حديث رقم: 5678).

2 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (10/464).

3 رواه مسلم حديث رقم 2593

4 الحج: 78.

5 ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (5/456).

6 مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، (حديث رقم: 24334).

7 ميثاق العلماء الأفارقة، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، نص الميثاق، الطبعة الأولى 1445هـ/2023م، (2) مهام العلماء، ص 30.

8 البقرة: 184.

النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»¹، قال صاحب فتح الباري²: «قوله: (فإنما بعثتم) إسناده البعث إليهم على طريق المجاز لأنه هو المبعوث - صلى الله عليه وسلم - بما ذكر لكنهم لما كانوا في مقام التبليغ عنه في حضوره وغيبته أطلق عليهم ذلك إذ هم مبعوثون من قبله بذلك أي مأمورون، وكان ذلك شأنه - صلى الله عليه وسلم - في حق كل من بعثه إلى جهة من الجهات يقول: «يسرُوا ولا تعسرُوا»».

وأولاهما بالتناول القول السديد المفضي إلى تغيير الأوضاع من صلاح الأعمال، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾³، قال صاحب الجامع لأحكام القرآن⁴: «والقول السداد يعم جميع الخيرات»، وقال صاحب التحرير والتنوير⁵: «ويشمل القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء، وما هو تبليغ لإرشاد غيره من ماثور الأنبياء والعلماء، فقراءة القرآن على الناس من القول السديد، ورواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من القول السديد، وفي الحديث: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا»، وكذلك نشر أقوال الصحابة - رضي الله عنهم - والحكماء وأئمة الفقه، ومن القول السديد تجويد الله والثناء عليه مثل التسبيح».

ثم إن القول السديد يشمل الكلام الطيب الذي يرفعه الله ويتقبله في كفة الأعمال الصالحة، وهو يعم كل ذكر ودعاء، وتلاوة للقرآن، وتعليم العلم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾⁶. قال صاحب الدر المنثور⁷: «وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، أداء الفرائض، الذكر، القرآن، الدعاء، يرفع الله العمل الصالح لصاحبه».

أما في السنة النبوية المطهرة، فمظاهر رفع الإصر عن الأمة بادية، وتسديد التبليغ بالسماحة واليسر والحض على لزوم الصواب وما يحقق النفع، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الدِّينَ يَسُرُّ وَلَنْ يَشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا

1 صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، (حديث رقم: 220).

2 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (387/1).

3 الأحزاب: 70-71.

4 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (229/14).

5 ابن عاشور، التحرير والتنوير، (122/23).

6 فاطر: 10.

7 السيوطي، الدر المنثور، (258/12).

بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّجَّةِ»¹، قال صاحب فتح الباري²: «قوله: «فسددوا» أي: الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط، قال أهل اللغة: السداد التوسط في العمل، قوله: «وقاربوا» أي: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكل فاعملوا بما يقرب منه»، ولما في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَالْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا»³، قال صاحب فتح الباري⁴: «أي الزموا الطريق الوسط المعتدل»، ولما في الصحيح من حديث أبي بردة عن أبيه عن جده قال: لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ بن جبل قال لهما: «يَسْرًا وَلَا تَعْسَرًا وَبَشْرًا وَلَا تَنْفَرًا وَتَطَوَّعًا»⁵.

ثانيا: الثمار الطيبة لتسديد التبليغ

إن العمل على تبليغ الدين بما ينفع الناس، يقتضي تقريب المفاهيم والمعاني الحاملة لروح الشريعة الغراء، إذ بها تحصل العدة لمباشرة مهمة البلاغ، وما رأينا سابقا من إيضاح لتسديد التبليغ من جهة التأصيل، لا بد أن يعقبه تناول بعض المصطلحات التي ينبغي أن يتناولها العالم عند تصدره لتنوير العقول، لما فيها من ثمار طيبة؛ طمأنينة القلب، وسكون النفس، وعدم الالتفات إلى بَنِيَّات الطريق، والشعور بالسعادة المفضي إلى الإحسان في القول والعمل.

الحياة الطيبة:

من ثمار تسديد التبليغ تنبيه الغافلين على سلوك سبيل العارفين، حيث السعي إلى تحقيق ما وعد الله به عباده الذين يعملون الصالحات من حياة هنيئة لا تنغصها الشواغل، ولا يكدر صفوها اللهث وراء الملمات والمشغلات، يعيش صاحبها بنفس مطمئنة لا يساورها قلق لقوة اليقين بوعد الله الصادق لا يخلف الله وعده، يقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ وَأُتِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾⁶، قال صاحب تفسير القرآن العظيم⁷: «والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت»، وقال صاحب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن⁸: «وفي الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بالحياة الطيبة في الآية: حياته في الدنيا حياة طيبة؛ وتلك القرينة هي أننا لو قدرنا أن المراد بالحياة الطيبة: حياته في الجنة في قوله: ﴿لَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً

1 صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، (حديث رقم: 39).

2 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (117/1).

3 صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، (حديث رقم: 6098).

4 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (301/11).

5 صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: يسروا ولا تعسروا وكان يحب التخفيف واليسر على الناس، (حديث رقم: 5773).

6 النحل: 98.

7 ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (602/4).

8 محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (441/2).

طَيِّبَةً»، صار قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، تكراراً معه؛ لأن تلك الحياة هي أجر عملهم، بخلاف ما لو قدرنا أنها في الحياة الدنيا؛ فإنه يصير المعنى: فلنجزيه في الدنيا حياة طيبة، ولنجزيه في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، وهو واضح.

2. السعادة الدنيوية والأخروية:

من الثمار اليانعة لتسديد التبليغ؛ أن يلفت المبلغ نظر السامعين إلى قاعدة قرآنية عظيمة، تضمنتها سورة البقرة، فيها دعوة لتحقيق التوازن بين العمل الدنيوي والأجر الأخروي، إذ تغليب أحدهما على الآخر يجلب الإفراط أو التفريط، وكلاهما مذموم في عرف الشارع، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾¹، قال صاحب الجامع لأحكام القرآن²: «وَمِنْهُمْ» أي من الناس، وهم المسلمون يطلبون خير الدنيا والآخرة»، وهذا هو الاعتدال المحمود، وهو من صفات الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وقد نص عليه ميثاق العلماء الأفارقة³: «الاعتدال: أي بين طرفي الإفراط والتفريط؛ لأنه وصف الرسالة، ونعت صاحبها الذي بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وميزة هذه الأمة المرحومة، وعلامتها المتفردة التي نص عليها في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾⁴. ووضح النبي صلى الله عليه وسلم أن الاعتدال من خصائص النبوة الموروثة في قوله: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد؛ جزء من خمس وعشرين جزءاً من النبوة»⁵.

وقال صاحب تفسير القرآن العظيم⁶: «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ». فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر فإن الحسنه في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنه في الدنيا، وأما الحسنه في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.

1 البقرة: 201.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (400/2).

3 ميثاق العلماء الأفارقة، مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، الطبعة الأولى 1445هـ/2023م، (2) مهام العلماء، ص 30.

4 البقرة: 142.

5 مسند الإمام أحمد، (حديث رقم: 2698)، سنن أبي داود، (حديث رقم: 4776).

6 ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (558/1).

3. الفلاح بتزكية النفس:

من ثمار تسديد التبليغ السعي إلى بلوغ أعلى مراتب الإحسان، وذلك بتزكية النفس بالتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل؛ زكى نفسه بتطهيرها من رجس الذنوب أولا، ثم تميّتها بالأخلاق الفاضلة ثانيا، وسبيل هذين العلم النافع والعمل الصالح، ليحصل السالك على الفلاح الذي هو من أسنى رغائب أهل الإيمان، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا فَلَاحَ مَنْ رَزَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾¹، قال صاحب الجامع لأحكام القرآن²: «أفلح: فاز من زكاها»، وقال صاحب التحرير والتنوير³: «والفلاح: النجاح بحصول المطلوب، والخيبة ضده، أي يحرم الطالب مما طلبه، فالإنسان يرغب في الملائم النافع، فمن الناس من يطلب ما به النفع والكمال الدائم، ومن الناس من يطلب ما فيه عاجل النفع والكمال الزائف، فالأول قد نجح فيما طلبه فهو مفلح، والثاني يحصل نفعاً عارضاً زائلاً وكمالاً مؤقتاً ينقلب انخراطاً، فذلك لم ينجح فيما طلبه فهو خائب، وقد عبر عن ذلك هنا بالفلاح والخيبة كما عبر عنه في مواضع أخرى بالربح والخسارة».

ثم إنه من تزكية النفس استشعار مقام المراقبة، وحضور القلب بالذل والانكسار، ورؤية التقصير في جنب العليم الخبير، وتطهير القلب من درن العجب والتكبر والرياء، قال صاحب مطهرة القلوب⁴:

فَقُلْتُ بَادِئًا بِقَلْبِ الْبَدْءِ * إِذْ هُوَ أَشْرَفُ مَعَالِي الْبَدْءِ
فَادُبْ مَعَ اللَّهِ عَلاَ وَجَلًا * بِأَنْ تُلَازِمَ الْحَيَا وَالذُّلَّ
مُنْكَسِرًا تَحْتَ الْحَيَا وَخَاضِعًا * تَحْتَ الْمَهَابَةِ إِلَيْهِ ضَارِعًا
مُلْجٍ مُرَادَكَ إِلَى مُرَادِهِ * خَالٍ مِنَ الطَّمَعِ فِي عِبَادِهِ

قال في نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب⁵: ««فأدب» أمر من أدب كظرف أي تأدب «مع الله علا وجلًا»، وذلك «بأن تلازم الحياء» بالمد وهو تغير يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وشرعا خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذوي الحق، وقد عده في نور البصر

1 الشمس: 9-10.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (69/20).

3 ابن عاشور، التحرير والتنوير، (371/31).

4 محمد مولود بن أحمد فال يعقوبي الموسوي، مطهرة القلوب.

5 أحمدو الخديم، محمد الحسن، نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب، (20/1).

مما يبعث على التقوى.. قال: وهو مقام المراقبة، وقال الجنيد: رؤية الآلاء، - أي النعم - ورؤية التقصير تتولد من بينهما حالة تسمى الحياء».

المحور الثاني: سبل تبليغ الدين في السياق الإفريقي

إن تفعيل منظومة قيم الدين وأخلاقه في مجالات حياة الناس، وتقوية عرى العلائق بين العلماء وعامة المجتمع، يمثل صمام أمان لضمان تبليغ سديد، ولا يتحقق ذلك إلا بتضييق مساحة التواصل، ووجود مقدمات ممهّدة لعملية التبليغ، ولعل من خصوصيات السياق الإفريقي، توفر أرضية صالحة للتبليغ، ومحبة فطرية للتدين وثواب دينية مشتركة، وجهات تتولى تدبير الشأن الديني في جل البلدان الإفريقية، ويمكن تنسيق العمل وتنظيم المبادرات، والحرص على عدم إضاعة الجهود، يعين على ذلك وسائل التبليغ والتكوين المختلفة، ووضع برامج تتناسب مع القدرات المعرفية للمخاطبين، والحرص على توجيه خطاب يراعي أحوال المكلفين، وتفاوت مستوياتهم التعليمية وخصوصياتهم الجبلية والمجتمعية، فما يناسب الشباب الجامعي مثلاً، قد لا يناسب الفئات ذات التعليم المحدود، وما يناسب ربّات الأسر، قد لا يتلاءم مع الفتيات واحتياجاتهنّ نحو فقه الواقع، يضاف إلى ذلك ما تعاني منه القارة من نزاعات تحتاج إلى التصدي لها بأنموذج يراعي الخصوصية ويحفظ الثوابت.

أولاً: العناية بنشر تعليم الوحيين بين فئات المجتمع

إن العناية بتعليم القرآن الكريم والسنة المطهرة من توفيق الله تعالى لعباده في التبليغ، إذ لا يسع المؤمن جهل أصول الشريعة من كتاب وسنة، وفيهما ما ينفع الناس من العلم الشرعي المفضي إلى السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، وبتمكين المبلغين من ناصية العلم ينتفي دخن الجهل والتنطع والغلو والشطط في الفهم، إذ كلما استنار الفهم بنور الوحي تراجع ظلام الجهالة حتى ينقشع عن بصيرة الهداية، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾¹، قال صاحب التحرير والتنوير²: «ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل».

ومن معالم تسديد التبليغ، ونشر معاني الحياة الطيبة بين فئات المجتمعات الإفريقية، ما تسعى إليه مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة من أهداف سامقة³، لتحقيق عناية فائقة بالأصول الشرعية،

1 الإسراء:9

2 ابن عاشور، التحرير والتنوير، (40/16).

3 مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، التقرير السنوي 1446هـ/2023م، ص 56.

وأولها الكتاب والحكمة؛ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف¹، وكل جهد يبذل في سبيل التحفيظ والفهم، هو عمل محمود وسعي مشكور، وبه يحصل الأرب بالتبليغ المأمور به شرعاً، وبه تنال الرغائب، قال صاحب فتح الباري²: «أولى ما صرفت فيه نفائس الأيام، وأعلى ما خص بمزيد الاهتمام: الاشتغال بالعلوم الشرعية المتلقاة عن خير البرية، وهذه لا يرتاب عاقل في أن مدارها على كتاب الله المقتفى، وسنة نبيه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وأن باقي العلوم آلات لفهمها، وهي الضالة المطلوبة، أو أجنبية عنها وهي الضارة المغلوبة».

وتجلى مظاهر نشر تعليم الوحيين في تنظيم المسابقات الكبرى في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وتحفيز المتسابقين من جميع البلدان الإفريقية على المشاركة فيها، وذلك بواسطة تنوع فروع المسابقات لتوائم مختلف الفئات العمرية والمستويات المعرفية³.

أولا المسابقة القرآنية (صنف الحفظ الكامل مع الترتيل برواية ورش عن نافع، صنف الحفظ الكامل مع الترتيل بباقي الروايات، صنف حفظ خمسة أحزاب على الأقل مع التجويد).

ثانيا المسابقة الحديثية (صنف حفظ أربعين حديثاً سنداً ومتناً، دون السؤال عن روايتها ومعاني ألفاظها، صنف حفظ ثلاثين حديثاً مع ذكر من انتهت إليه رواية الحديث وفهم دلالة ألفاظها، صنف حفظ عشرين متناً من أحاديث الأحكام مع بيان ما تضمنته من فوائد فقهية).

ثم إنه من الأصول المعتمدة في المذهب المالكي وغيره من المذاهب السنية المعتمدة؛ الأعلان المتفق عليهما؛ وهما الكتاب العزيز والسنة المطهرة، إذ كل المذاهب السنية تنهل من معين الوحي الصافي⁴، وهما جماع المشترك الأصولي، قال صاحب البحث في المشترك الأصولي لدى المذاهب السنية⁵: «وما درج عليه سلف هذه الأمة مما نطق به القرآن أو ورد في بيان سيد المرسلين والعلماء الصالحين»، ومن أصول الإمام مالك - رضي الله عنه - التي ذاع صيتها في الآفاق ما أدرك عليه أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ فيها أخذ الصحابة - رضي الله عنهم - دقائق أفعاله الشريفة، قال صاحب ترتيب المدارك⁶: «قال ابن القاسم وابن وهب: رأيت العمل عند مالك أقوى من الحديث»، ويقتضي ذلك مزيد عناية بقراءة أهل المدينة، وهي أكثر القراءات امتداداً في البلدان الإفريقية، حيث كان إشعاع سناها من مميزات التدين الإفريقي، ربما لاقتربها بالمذهب المالكي المكين في الربوع الإفريقية؛ وهي قراءة الإمام

1 مجلة العلماء الأفارقة، العدد 7، جهود العلماء الأفارقة في خدمة الحديث النبوي الشريف، ص 281.

2 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المقدمة.

3 مجلة العلماء الأفارقة، (279/7-282).

4 منيه، رقية، تحرير المسألة في فقه المرأة، (36/1).

5 العلي، عبد الحميد، المشترك الأصولي لدى المذاهب السنية، (2/1).

6 القاضي عياض، ترتيب المدارك، (45/1).

نافع المدني الذي كان يفوح من فمه الطيب، قال صاحب مفاتيح المعاني لحرز الأمانى¹: «لقد نعتته الشاطبي بكريم السر في الطيب لما ورد أنه كان يفوح من فمه العطر حينما يقرأ القرآن وقد ذكر هو نفسه أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم فتفل في فمه، ومن ذلك الحين صار الطيب ملازماً له»، وقال صاحب حلقات في مقرأ الإمام نافع²: «الإمام نافع هو أحد القراء السبعة وهو قارئ المدينة توفي عام 169 هـ وقد صلى في الحرم النبوي مدة ستين سنة، وأخذ عن سبعين من القراء، والإمام نافع كان معاصراً للإمام مالك، وقد ذكر الإمام مالك أن قراءته سنة، وقد أخذ عن الإمام مالك الفقه وأخذ عنه الإمام مالك القراءات»، من أجل ذلك على العلماء بذل مزيد من الجهد لنشر قراءة الإمام نافع بين فئات المجتمع.

ثانياً: مراعاة المصلحة والحال والمآل

من السبل القويمة للتبليغ وفق ما يحقق النفع للمخاطبين، مراعاة أحوال المكلفين، واعتبار السياق والحال والمآل، لما تضافرت عليه نصوص الشرع من مراعاة الحال في تنزيل النص الشرعي، من ذلك الآيات الدالة على التخفيف لوجود عذر شرعي، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾³.

فعلى المصدرين لتعليم الناس اختيار الألفاظ المناسبة، والنظر الدقيق في المناط الخاص والحذر من إطلاق الأحكام، إذ قد تخرج الكلمات دون عرضها على مسبار المصلحة المعتبرة، فتأتي النتائج على خلاف المراد؛ فكل ما يجلب المصلحة المعتبرة شرعاً مأذون فيه، وكل ما يدفع المفسدة المعتبرة شرعاً منهي عنه، والفيصل في الأمر عرض المصالح والمفاسد على حقائق الشرع، قال صاحب الموافقات⁴: «فالمصلحة إذا كانت هي الغالبة عند مناظرتها مع المفسدة في حكم الاعتیاد، فهي المقصودة شرعاً؛ ولتحصيلها وقع الطلب على العباد، ليجري قانونها على أقوم طريق وأهدى سبيل، وليكون حصولها أتم وأقرب وأولى بنيل المقصود، على مقتضى العادات الجارية في الدنيا، فإن تبعها مفسدة أو مشقة فليست بمقصودة في شرعية ذلك الفعل وطلبه».

ثم إن السياق المجتمعي قد يتحكم فيه عرف معين فلا ينبغي تجاوزه عند إعمال أدوات التبليغ، فعلى سبيل المثال، في بعض المجتمعات لا يستساغ حضور النساء لبعض الأنشطة العلمية، ما يتطلب شيئاً من التؤدة في تنفيذ خطة تسديد التبليغ لاختلاف البيئات والعادات.

أما النظر في المآلات فينبغي أن يكون باعثاً على التريث في الإقدام والإحجام معاً، لما في عدم ضبط

1 أباه، محمد المختار، مفاتيح المعاني لحرز الأمانى، (10/1).

2 أباه، محمد المختار، حلقات في مقرأ الإمام نافع، (18-17/1).

3 التوبة: 91.

4 الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، (21/2).

تعامل العلماء مع الوقائع من مزالِق قد لا تحمد عقباها، والأصل في اعتبار المآل قول الحق تبارك وتعالى في الكتاب العزيز: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾¹، قال شيخ المفسرين²: «قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به: ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله من الآلهة والأنداد، فيسب المشركون الله جهلاً منهم بربهم، واعتداء بغير علم»، فلا بد من مراعاة المآل الجاري على مقاصد الشريعة³؛ «ويراد به الحذر من الاكتفاء بحال حاضر الفعل من خلال إجراء الأحكام على مقتضى ظاهرها، دون لحاظ آثار الحكم في الآجل التي قد تكون على خلاف المقصود منها عند التنزيل».

المحور الثالث: استعمال أساليب البيان والإيضاح لتسديد التبليغ

إن حياة العقول بالعلم، وحياة القلوب بالتزكية، وحياة البصائر بالفهم، وكل ذلك يجتمع في تبين الحق وتبليغ الدين بالوسائل المرضية، لهذا أولت الشريعة أهمية قصوى لأفنان الإيضاح، ليسهل على السامع استيعاب الخطاب، من أجل ذلك رفع الشرع من شأن العلم وأعطاه عناية خاصة لما فيه من إحياء العقول والأرواح، فكانت أول آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تحث على القراءة، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ 1 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ 2 اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ 3 الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ 4 عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁴، قال صاحب الجامع لأحكام القرآن⁵: «هذه السورة أول ما نزل من القرآن؛ في قول معظم المفسرين». ولما رفع الإسلام من شأن العلم، جعل الوسائل المستخدمة في تبليغه للناس تحوز مكانة خاصة، وقد ثبت في السنة الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبين أقواله وينبّه أصحابه رضي الله عنهم، تارة بوسائل بصرية وسمعية وتارة بالإشارة، وأخرى بالحركة، وما ذلك إلا للحض على الأوامر والنواهي بشتى الطرق، ليستقر ذلك في أذهانهم وتحفظه العقول قبل الأسماع، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»⁶، قال صاحب فتح الباري⁷: «والمراد: رب مبلغ عني أوعى-أي: أفهم- لما أقول من

1 الأنعام: 108.

2 الطبري، تفسير الطبري، (34/12).

3 مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، ميثاق العلماء الأفارقة، ديباجة، الباب الأول علماء الأمة: مواصفات ومهام، ص 29.

4 العلق: 1-5.

5 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (105/20).

6 صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم رب مبلغ عني أوعى من سامع، (حديث رقم: 67).

7 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (191/1).

سامع مني»، وهذا المعنى حسن لما فيه من طلب الفهم قبل الحفظ، لأن انقذاح المعنى في الذهن معين على إدراك المراد، وقد تعددت وسائل التعليم النبوية للصحابة الكرام رضوان الله عليهم بحسب ما يقتضيه المقام.

أولاً: الهدي النبوي في البيان بوسائل الإيضاح

كان من هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- الحرص على هداية كل الناس، وبذل الجهد في تبليغ الدين والفهم عن الشارع، حتى أنه يلزم نفسه الشريفة المشقة لأجل أن يؤمن بهذه الدعوة الجميع، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾¹، قال صاحب الجامع لأحكام القرآن²: «﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ أي قاتل نفسك ومهلكها، ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لتركهم الإيمان»، من أجل ذلك بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، فما ترك سبيلاً للبيان إلا وسلكه - صلى الله عليه وسلم-.

ثم إن تصرفه بالتبليغ يعم الأمة، قال صاحب الفروق³: «فكل ما قاله صلى الله عليه وسلم أو فعله على سبيل التبليغ، كان ذلك حكماً عاماً على الثقلين إلى يوم القيامة»، ومن ذلك ما ثبت في الصحيح عنه من التعليم بتشبيك الأصابع، والبيان باليد، والتعليم بإمساك اللسان، والبيان بالحركة، وغير ذلك من صنوف التعليم والبيان، ولكل سائر على نهجه أن يقتدي بمنهجه في التبليغ للحرص على ما ينفع الناس.

1. البيان بتشبيك بين الأصابع:

إن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو المبين عن الله تعالى، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁴، قال صاحب الجامع لأحكام القرآن⁵: «لتبين للناس ما نزل إليهم في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك؛ فالرسول - صلى الله عليه وسلم- مبين عن الله - عز وجل - مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يفصله»، ومن صنوف البيان توضيح بعض المعاني بالإشارة أو فعل مبين، مثل تشبيك الأصابع للدلالة على قوة الرابطة الإيمانية، يشهد لهذا المعنى حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»⁶، قال صاحب فتح الباري⁷: قوله: «(ثم

1 الشعراء:3.

2 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (89/13).

3 القرافي، الفروق، القواعد السنية في الأسرار الفقهية، (221/1).

4 النحل:44.

5 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (98/10).

6 صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، (حديث رقم: 5680).

7 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (465/10).

شبك بين أصابعه) هو بيان لوجه التشبيه أيضا أي يشد بعضهم بعضا مثل هذا الشد، ويستفاد منه أن الذي يريد المبالغة في بيان أقواله يمثلها بحركاته ليكون أوقع في نفس السامع».

2. البيان بإمساك اللسان:

من حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية الخلق ما أودع الله فيه من الرحمة والرفقة بالمؤمنين، فكان لا يدخر جهدا لتبليغهم ولو بمزيد من الحض على الفعل أو الترك، يستدل على هذا المعنى بحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، جزء من حديث طويل اشتمل على العديد من الوصايا النبوية الكريمة، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكَ ذَلِكَ كُلِّهِ، قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كَفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ، فَقَالَ: ثَكَلْتُكَ أَمَّا يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»¹، قال صاحب تحفة الأحوذى²: «وإنما أخذ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بلسانه وأشار إليه من غير اكتفاء بالقول، تنبيها على أن أمر اللسان صعب، والمعنى لا تكلم بما لا يعينك، فإن من كثر كلامه كثرت سقطه ومن كثرت سقطه كثرت ذنوبه، ولكثرة الكلام مفاسد لا تحصى».

3. البيان بالحركة:

من الهدى النبوي الشريف تقريب جوامع الكلم للمخاطبين لئلا يذهب السامع إلى غير المقصود، من ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكره عن أبيه رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مَتَكًّا، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، قَالَ: فَمَا زَالُ يَكْرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ»³، قال صاحب فتح الباري⁴: «قوله: (وجلس وكان متكئا) يشعر بأنه اهتم بذلك حتى جلس بعد أن كان متكئا».

ثانيا: البيان لمعاني النصوص الشرعية:

الأصل أن يكون تبليغ النصوص الشرعية بغير واسطة بمعنى تحفيظ الألفاظ وبيانها باللغة العربية؛ لكونها وعاء الشريعة ولغة القرآن، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾⁵، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾⁶، ولما في الصحيح⁷ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

1 سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، (حديث رقم: 2616).

2 المباركفوري، تحفة الأحوذى، (304/7).

3 صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، (حديث رقم: 2510).

4 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (310/5).

5 الشعراء: 195.

6 الرعد: 37.

7 صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لا نكتب ولا نحسب، (حديث رقم: 1814).

(عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ الشَّهْرَ هَكَذَا وَهَكَذَا»، يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين)، قال صاحب فتح الباري¹: «أراد أمة العرب لأنها: لا تكتب». وبسبب ما تنطوي عليه من معهود العرب في كلامهم، وهو الفیصل في فهم المعاني القرآنية والحديثية، قال صاحب الموافقات في أصول الشريعة²: «ومنها: أنه لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين - وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم - فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثم عرف فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه». إذ أن كل العلوم الشرعية تعود إلى طبيعة اللغة العربية من حيث فهم الدلالات والألفاظ، ومنها علم أصول الفقه وما تفرع عنه، قال صاحب نشر البنود على مراقي السعود³: «يعني: أن غير الشافعي من المجتهدين كالصحابة فمن بعدهم كان معرفة علم الأصول سليقة له، أي مركوزا في طبيعته كما كان علم العربية من نحو وتصريف وبيان خليقة أي مركوزا في طبائع العرب فطرة فطرهم الله عليها، والألقاب كاسم المبتدأ والخبر والفاعل والمفعول وغير ذلك اصطلاحات وضعها أئمة النحو، وكذلك وضع أئمة الأصول الذين صنفوا فيه اسم المنطوق والمفهوم والفحوى، والمخالفة والعام والخاص والمطلق والمقيد وغير ذلك».

ولكن قد يتعذر على غير الناطقين بالعربية الأخذ بذلك، ولرفع الحرج والعمل بقاعدة التيسير، لا مناص من ترجمة المعاني إلى اللغات الإفريقية، ولعل الجهود المضنية لمؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة في سبيل تبليغ الدين باللغات المحلية لكل بلد تدخل ضمن هذا العمل العظيم النفع بإذن الله تعالى، وبأساليب تناسب العصر وتقدم المعلومة بالصوت والصورة⁴. ولما كان جل المخاطبين من غير العرب أو من أصحاب الألسن العجمية كان لزاما توجيه خطاب يراعي خصوصيات المجتمعات الإفريقية، يحدد المعالم ويرفع الغشاوة عن البصائر، ولعل المبادرة إلى إعداد دليل للمسابقة الحديثة يتضمن ملحقا لشرح بعض المعاني، يكون لبنة صلبة في بناء خطة تسديد التبليغ، وسبيلا راشدا يحقق ما ينفع الناس.

1 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (152/4).

2 الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، (62/2).

3 ابن الحاج إبراهيم، سيدي عبد الله، نشر البنود على مراقي السعود، (14/1).

4 مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، اجتماع المجلس الأعلى، مشاريع اللجان الدائمة برسم سنة 2025م، اللجنة الرابعة لجنة التواصل والتعاون والشراكات، ص 17.

خاتمة

وصفوة القول، إن سبل تبليغ الدين بما يحقق النفع العميم في السياق الإفريقي، يقتضي أولاً: تسديد التبليغ بالتيسير على الناس، وثانياً: تقريب المفاهيم والمعاني الحاملة لروح الدين القويم، وثالثاً: استعمال أساليب الإيضاح والبيان بما يتناسب مع كل مجتمع. والمتتبع لسبر أغوار المحاور السابقة، يلحظ بكل يسر بعض الملاحظات، من أبرزها:

أهمية تسديد التبليغ بالتأصيل والنظر في الأدلة الشرعية.

استثمار البيئة الإفريقية المحبة للدين.

إزالة اللبس عن بعض المفاهيم وتقديم المادة العلمية بأسلوب يراعي تفاوت الأفهام.

العناية بنشر الوحيين، والتركيز على قراءة الإمام نافع المدني.

استعمال وسائل الإيضاح والبيان لتسهيل مهمة التبليغ.

العمل على التشجيع على تعلم وتعليم لغة القرآن الكريم.

ترجمة المعاني العامة للنصوص الشرعية بقصد انتفاع غير الناطقين بالعربية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبحاث ودراسات



مقاصد الإيمان بالله عز وجل عند الإمام نخر الدين الرازي

ذة. يامنة هموري

باحثة في الدراسات الإسلامية - الرباط

مقدمة:

عاش الإمام أبو عبد الله محمد، بن عمر، بن الحسين، بن الحسن بن علي، القرشي التيمي البكري، الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، الملقب بفخر الدين الرازي، والمعروف بابن الخطيب، الشافعي المذهب، الأشعري العقيدة في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، وهي الفترة التاريخية الحرجة في حياة المسلمين سياسياً، واجتماعياً، وعلمياً، وعقدياً لكونها اجتمعت فيها معاول الاجتياح والهزيمة، مع عوامل المقاومة والنصر، إذ كانت هذه الحقبة زيادة على اقتراق وحدتها السياسية، متباينة عقدياً وفكرياً بسبب اشتداد الخلافات والجدالات، سواء بين المسلمين وأهل الملل، أو بين الطوائف، أو بين المتكلمين والمحدثين، أو بين أصحاب المذاهب الفقهية أنفسهم، مما يشكل تهديداً لوحدة الأمة الإسلامية آنذاك، فتحركت مؤسسة العلماء والمؤسسات الأهلية لترأب هذه التصدعات القائمة، فنشطت الحركة العلمية والفكرية والثقافية، التي ساهم فيها -إلى حد كبير- اهتمام وتنافس الحكام ببناء المدارس، وتشجيع العلماء، واقتناء الكتب والمؤلفات.

فالإمام نخر الدين الرازي، وهو المعاصر لكل هاته الأحداث، لم يكن مفكراً هامشياً عابر التأثير، بل كان في صلب هموم أمته وعلوم حضارته، عمل على جبهات الإصلاح الفكري الاجتماعي لينافح بها عن الإسلام من خلال محاربة البدع المذهبية والفرق الباطنية، وانبرى لمجادلة كل المخالفين، ونقد الأفكار المنحرفة، والربط بين التوحيد ووحدة الأمة، وترسيخ آلية الإجماع. وقد تلقى العلوم المختلفة في عصره، وبرع في عدد من الجوانب العلمية أبرزها الفلسفة، والمنطق، إلى جانب العلوم الشرعية من أصول الفقه، والتفسير وعلم الكلام وغيرها.

ويبدو أن الرازي كان واعياً بإسهامه المفصلي في إعادة توظيف مباحث المنطق والفلسفة، وتشذيب علم الكلام من شوائبها الخاطئة، ثم إعادة استخدام الجميع في الدفاع عن عقائد الإسلام، فهذا هو الرازي نخبرنا بنفسه -في رسالته: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» - عن مشروع مواجهته لتراث الفلاسفة اليونانيين، فيقول: «كان أعظمهم قدراً أرسطاليس وله كتب كثيرة، ولم ينقل تلك الكتب أحد أحسن مما نقله الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا..، وجميع الفلاسفة يعتقدون في تلك الكتب

اعتقادات عظيمة، وكنا نحن -في ابتداء اشتغالنا بتحصيل علم الكلام- تشوقنا إلى معرفة كتبهم لنردّ عليهم، فصرنا شطرا صالحا من العمر في ذلك حتى وفقنا الله تعالى في تصنيف كتب تتضمن الرد عليهم ككتاب نهاية العقول، وكتاب الملخص.. وكتاب البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان، وكتاب المطالب العالية من العلم الإلهي... وهذه الكتب بأسرها تتضمن شرح أصول الدين، وإبطال شبهات الفلاسفة وسائر المخالفين، وقد اعترف الموافقون والمخالفون أنه لم يصنّف أحد من المتقدمين والمتأخرين مثل هذه المصنفات»⁽¹⁾.

فلئن كانت الظروف التي عاشها الفخر الرازي في عصره، من أجل الدفاع عن العقيدة، جعلته يهتم بالمسائل العقلية، مما حمله على إيلائها فائق العناية فيما كتب، فإن كتبه الكلامية من الكتب الهامة الشاهدة على ذلك، وفي هذا السياق يقول ابن خلدون حاثا الدارسين على اعتماد كتب الرازي الكلامية في محاجاتهم العقديّة: «إن من أراد إدخال الرد على الفلاسفة في عقائده فعليه بكتب الغزالي والإمام ابن الخطيب»⁽²⁾. وبذلك ينبه ابن خلدون على ضرورة التفرقة بين مقاصد المتكلمين -من أمثال الرازي- ومقاصد الفلاسفة، وهو الأمر الذي لم يتحرّه كثيرون في مأخذهم على الرازي وتراثه الكلامي.

وعليه، فالإمام نحر الدين الرازي بعلمه الغزير، وعمله الدؤوب في الدفاع عن العقيدة الإسلامية وبيانها، ورد الشبه عنها، يعتبر نموذجا لعلماء متقدمين، ننفي عنهم ما يقال من تقصيرهم في بيان مقاصد العقيدة. ومن أجل مزيد من التوضيح، أسوق اعتبارين اثنين، لإبراز اهتمام الرازي ببيان مقاصد العقيدة، الأول، أن الرازي يصرح في أكثر من مناسبة في مؤلفاته بضرورة العناية بالمقاصد العقديّة، ومنها كتابه «المطالب العالية من العلم الإلهي»، الذي يقول فيه: «إن المصالح المعتبرة إما مصالح المعاش، أو مصالح المعاد، أما مصالح المعاش فلا تنتظم إلا بمعرفة المبدأ والمعاد، وذلك لأنه لو لا استقرار الشرائع الحقّة لزال النظام، واختلت المصالح وحصل الهرج ولم يأمن أحد على روحه ومحجوبه، وأما مصالح المعاد، فلا يتم شيء منها إلا بمعرفة الله تعالى، وبمعرفة ملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وذلك لا يحصل إلا بهذا العلم. فظهر بهذه المباحث التي قررناها: أن مبدأ الخيرات ومطلع السعادات، ومنبع الكرامات، هو هذا العلم. فمن أحاط به على ما ينبغي كان في آخر مراتب الإنسانية، وأول مراتب الملكية»⁽³⁾.

والاعتبار الثاني، تأليفه المتنوعة في الدرس العقدي، التي تتضمن في عناوينها إما عبارات، أو دلالات على تقصيده لمباحث العقيدة، أو ما تحتويه أخرى من مقاصد عقديّة، أوردتها مجملة في مواضيع،

1 اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للفخر الرازي، ص: 14.

2 مقدمة، ابن خلدون، ص: 348.

3 «المطالب العالية من العلم الإلهي للفخر الرازي. لمن أرد المزيد من التفاصيل، انظر 38 وما بعدها.

وفصلها في أخرى، وأهمها أركان الإيمان الستة، وإيلاؤه لهذه المباحث العقديّة الأهميّة الكبرى بالشرح، وتقسيمه لها كغيره من علماء الكلام إلى ثلاثة أقسام: الإلهيات، والنبوات، والسمعيّات، مصرّحا بذلك في أكثر من مناسبة، قال «مدار أمر القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد»⁽¹⁾، وفي موضع آخر قال: «المقصود من كل القرآن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد»⁽²⁾.

ثمّ ينقلنا الفخر الرازي إلى مستوى معرفي آخر، أكثر عمقا ودلالة، وهو تعليله للمراتب الأربعة من ضرورات الإيمان كما حددها بنفسه، وتفصيله لها، وهي الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وملائكته، ووحيه ورسله، ثمّ إقراره أن في ترتيبها حكما وأسرارا، قال مفسرا قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرَ الرَّسُولِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة 285]، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذه الآية دلت على أن معرفة هذه المراتب الأربعة من ضرورات الإيمان. فالمرتبة الأولى: هي الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وذلك لأنه ما لم يثبت أن للعالم صانعا قادرا على جميع المقدورات، عالما بجميع المعلومات، غنيا عن كل الحاجات، لا يمكن معرفة صدق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكانت معرفة الله تعالى هي الأصل، فلذلك قدم الله تعالى هذه المرتبة في الذكر. والمرتبة الثانية: أنه سبحانه وتعالى إنما يوحى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بواسطة الملائكة، فقال ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: 2]... فإذا ثبت أن وحي الله تعالى إنما يصل إلى البشر بواسطة الملائكة، فالملائكة يكونون كالواسطة بين الله تعالى وبين البشر، فلهذا السبب جعل ذكر الملائكة في المرتبة الثانية، ولهذا السر قال أيضا ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 81].

والمرتبة الثالثة: الكتب، وهو الوحي الذي يتلقفه الملك من الله تعالى ويوصله إلى البشر.... والمرتبة الرابعة: الرسل، وهم الذين يقتبسون أنوار الوحي من الملائكة، فيكونون متأخرين في الدرجة عن الكتب، فلهذا السبب جعل الله تعالى ذكر الرسل في المرتبة الرابعة، واعلم أن لترتيب هذه المراتب الأربعة على هذا الوجه أسراراً غامضة، وحكماً عظيمة لا يحسن إيداعها في الكتب والقدر الذي ذكرناه كاف في التشریف»⁽³⁾.

1 مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، 34/28.

2 نفس المصدر.

3 مفاتيح الغيب، 139/7.

فحق لنا أن نتساءل عن هذه الأسرار، والحكم العظيمة التي تحتويها مراتب الإيمان، والتي هي من ضرورة الدين عند الرازي.

وسأكتفي في هذا البحث بالمرتبة الأولى من ضرورات الإيمان، أو الركن العظيم في الإيمان كما يسميه الفخر الرازي، بقوله: «والركن العظيم في الإيمان هو الإيمان بذات الله وصفاته»⁽¹⁾. وتبعا لذلك، فإن البحث سيهتم بدراسة «مقاصد الإيمان بالله عز وجل عند الإمام فخر الدين الرازي» بناء على ما أقره من خلال مصنفاته التي ستكون مرجعا للبحث. لهذا سأتناول الموضوع من خلال ثلاثة مباحث وهي:

المبحث الأول، مرتبط ببيان مقاصد البحث في الذات الإلهية عند الإمام فخر الدين الرازي،
المبحث الثاني، ينصب لبيان مقاصد التوحيد عند الإمام فخر الدين الرازي،
المبحث الثالث، متعلق ببيان مقاصد أسماء الله الحسنى وصفاته العلى عند الإمام فخر الدين الرازي.

المبحث الأول: بيان مقاصد البحث في الذات الإلهية عند الإمام فخر الدين الرازي.

إن أهم موضوع شغل عقل الإمام فخر الدين الرازي في مباحث علم الكلام، هو البحث في الذات الإلهية، يظهر ذلك جليا في تصانيفه المتعددة، أو فيما ألف حوله في الموضوع، أو ما تتناقل عنه الروايات، بأنه رجع بسببه خلق كثير إلى مذهب أهل السنة، مصححا كثيرا من المعتقدات الفاسدة، والتي ما كان -رحمه الله- ليخوض في تفاصيلها لولا إيمانه، بأن معرفتها داخلية في المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات. قال وهو يعدد وجوه فضائل سورة الفاتحة: «الوجه الأول: اشتهر في الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل ثلث القرآن، ولعل الغرض منه، أن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات، معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات، فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن»⁽²⁾. وكونها على هاتى الدرجة من الاعتبار، فإنني سأحاول تلمس رأي الرازي في المسائل المتعلقة بمعرفة الذات الإلهية بما يخدم مقصود البحث.

والحق أن الرازي كثيرا ما كان يغرق في البحث في مسائل متعلقة بالذات الإلهية⁽³⁾، معتمدا على الدلائل الإقناعية العقلية لتقوية الاعتقاد بالله عز وجل، إلا أنه دعا في مؤلفاته الأخيرة إلى طريقة القرآن

1 نفس المصدر، 23/1.

2 مفاتيح الغيب، 162/32.

3 انظر «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» للفخر الرازي، ص: 213-299، وكذلك «لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات» للفخر الرازي، ص: 19-92.

قال: «ولقد اخترت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التي وجدتها في القرآن، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله...». وهكذا يعتبر الرازي أن التعامل مع القرآن الكريم هو أفضل الطرق الموصلة إلى الله عز وجل، وهو الطريق المستقيم الذي يقتضي الإقرار بالتنزيه والإثبات، وعدم الخوض في التفاصيل، لأنها ليست مقصودة لذاتها، بل المقصود هو المبالغة في التعظيم، أكد ذلك في وصيته المشهورة، حيث أوضح أن القرآن جمع بين آيات التنزيه والإثبات، قال: «وما علينا نحن إلا المبالغة في التعظيم من غير خوض في التفاصيل»⁽¹⁾.

كما نبه على أنه «من توغل في التنزيه فقد وقع في التعطيل... ومن توغل في الإثبات فقد وقع في التشبيه والتجسيم، والصراط المستقيم يقتضي الإقرار بأن كل أنواع هذه الآيات من عند الله دون تشبيه أو تجسيم»⁽²⁾. ويظهر ميل الرازي إلى طريقة القرآن بشكل واضح، في قوله «إني بعد التوغل في هذه المضايق والتعمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق، رأيت الأصوب والأصلح في هذا، طريقة القرآن العظيم والفرقان الكريم... من غير خوض في التفاصيل»⁽³⁾.

فالرازي كما هو واضح من تتبع بعض مؤلفاته، وإن أقر باختياره التوقف في المسائل التي توحى بالتشبيه، وقال بعدم الخوض فيها، بل واعتبره طريق الصواب، فإنه عملياً التجأ إلى التأويل كمنهج، خصوصاً عند تعارض الظواهر المقتضية للجسمية والجهة، مع الأدلة العقلية كإثبات الجوارح والأعضاء لله عز وجل، أو الموهمة بكونه تعالى مختصاً بالحيز والحركة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وقد علل عمله هذا بتأديبه في حق الله عز وجل، قال: «إن الطريق لتأويل تلك الألفاظ، كان تأديباً في حق واجب الوجود»⁽⁴⁾.

وعطفاً على ذلك، فإن من القضايا الفكرية الهامة التي شغلت اهتمام الرازي، مسألة التأويل لظواهر القرآن والأخبار على حد سواء، واعتماده منهجاً قرآنياً لإيقاف تيارات التشبيه والتجسيم، التي أغرقت الأمة في ضلالات تمس من مقام الذات الإلهية.

ومن أبرز مؤلفاته التي أودع فيها الرازي هذه الإشارات والتنبيهات، كتابه «أساس التقديس في علم الكلام»، فقد خصص القسم الثاني منه للحديث عن تأويل المتشابهات من الأخبار والآيات⁽⁵⁾. مؤكداً على أن حل مشكلة تخيل الإنسان المسلم للذات الإلهية، لا يكون إلا بتأويل نصوص الآيات القرآنية

1 مفاتيح الغيب، 11/1.

2 نفس المصدر. 206/1.

3 «أساس التقديس في علم الكلام» للفرارزي، ص: 142.

4 أساس التقديس في علم الكلام، ص: 142.

5 انظر التفصيل في «أساس التقديس في علم الكلام»، من الصفحة 27 إلى الصفحة 113.

والأحاديث النبوية^(١).

كما تضمن كتابه «مفاتيح الغيب» أمثلة كثيرة، وسأقتصر على نموذج من تأويلاته لبعض الظواهر الجسمية، التي تبرز تعمق الإمام نحر الدين الرازي في استكشاف أسرارها، دون الخوض في الأمور الفلسفية المرتبطة بها.

وأوضح مثال في هذا المجال، «حديث النزول»، الذي استفاد - رحمه الله - في الحديث عنه، مخصصا الفصل التاسع من كتابه «أساس التقديس في علم الكلام» لهذه المسألة تحت عنوان: «في المجيء والنزول»، استهله بذكر الآيات المشتملة على هاتين اللفظتين المضافتين إلى الله عز وجل، ثم انصرف إلى الأخبار المروية عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي الشاهد عندي، فقال: «روى صاحب شرح السنن رحمه الله في باب إحياء آخر الليل وفضله عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وتنزل عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده، ثم إن الله تعالى يمهّل حتى إذا كان ثلث الليل الأخير ينزل إلى هذه السماء الدنيا فينادي هل من مذنّب يتوب هل من مستغفر هل من داع هل من سائل إلى الفجر»^(٢).

قال صاحب هذا الكتاب: هذا حديث متفق على صحته. وفي هذا الباب أيضا، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعوني فأستجب له، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له»^(٣). ثم قال: هذا حديث متفق على صحته. وروي أيضا عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث المذكور، وزاد فيه: «ثم يبسط يديه تبارك وتعالى فيقول: من يقرض غير عديم ولا مظلوم». وروى صاحب هذا الكتاب في باب ليلة النصف من شعبان عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فقدت رسول الله صلى الله عليه

1 نفس المصدر، ص: 67 بتصرف.

2 لم أجد هذا الحديث بهذه الألفاظ بل هما حديثان مختلفان عن بعضهما أما الأول: «ما اجتمع قوم ... عنده» فأخرجه الإمام مسلم في كتاب «التوبة والاستغفار» باب «فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر». حديث رقم: 8684 عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ورواه أبو داود كتاب «الصلاة» باب «في ثواب قراءة القرآن» حديث رقم: 3421. والترمذي كتاب «القرارات» باب «ما جاء أن القرآن أنزل على ثلاثة أحرف». أما الحديث الثاني «ثم إن الله تعالى... إلى الفجر». فأخرجه البخاري في كتاب «التهجد» باب «الدعاء والصلاة آخر الليل»، حديث رقم 5411.

مع تغيير في بعض اللفظ والحديث هو: حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن ابن شهاب عن أبي سلمة وأبي عبد الله الأغر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له» وأخرجه مسلم في كتاب «صلاة المسافرين» باب «الترغيب في الدعاء والذكر والإجابة فيه». حديث رقم: 1621.

3 سبق تخريج الحديث في الصفحة 5، هامش 4.

وسلم ليلة فخرجت فإذا هو بالبقيع فقال: أكنت تخافين أن يحيف الله ورسوله؟ فقلت يا رسول الله ظننت أنك أتيت نساءك فقال: «إن الله ينزل ليلة النصف من شعبان فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب»⁽¹⁾. وإن المتأمل فيما أورده الإمام الفخر الرازي بخصوص هذا الحديث، يتبين له عنايته الشديدة بذكره، مع كثير من المسائل المرتبطة به، ثم تنبيهه على آثاره ومقاصده، قال: «فأما الحديث المشتمل على النزول إلى السماء الدنيا، فالكلام عليه من جهتين:

الأولى: بيان أن النزول قد يستعمل في غير الانتقال وتقريره من وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [النحل: 2]

والجهة الثانية من الكلام في هذا الحديث، بناؤه التأويل على سبيل التفصيل، وهو أن يحمل هذا النزول على نزول رحمته تعالى ومغفرته إلى المحتاجين، وإفاضة النعمة عليهم في ذلك الوقت، حيث قال: «أما قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يفتح أبواب السماء في ثلث الليل الباقي فيبسط يده» فالمراد إفاضة النعمة، وإيصال الرحمة والمغفرة إلى المحتاجين»⁽²⁾. ويضيف محقق الكتاب الدكتور أحمد حجازي السقا: «إن هذا هو المعنى الصحيح، لأن الله تبارك وتعالى منزّه عن الحركة والسكون، والذهاب والجمي، والقيوم، والقيام والأرواح والأجسام اللطيفة والكثيفة، وليس هو في جهة فوق أو تحت. وهذا تأويل الإمام مالك كما رواه عنه البيهقي»⁽³⁾.

ويزيد الإمام الفخر الرازي تعليله، وبيانه لأسباب حمل النزول على نزول الرحمة لا نزول النقلة، وإخراجه عن معناه الحقيقي الحسي الظاهر الذي هو من قبيل انتقال جسم من حيز لآخر إلى معنى آخر، من خلال ما أورده في تفسيره للعديد من الآيات، لم أورد لها مخافة التطويل، مكتفية بذكر نموذج يوضح ذلك، قال خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر، الآية: 6]، قال: «فإننا نعلم بالضرورة أن الجمل أو البقر ما نزل من السماء إلى الأرض على سبيل الانتقال»⁽⁴⁾.

ومن المواطن الهامة، التي بين فيها الإمام الفخر الرازي بعض مقاصد الحديث - أقصد حديث النزول - هو وقوفه على الأسباب الداعية إلى تخصيص ذلك الوقت بهذا الفعل من خلال وجوه:

الأول: أن التوبة التي يؤتى بها في قلب الليل، الظاهر أنها تكون خالية من شوائب الدنيا، لأن الأغيار لا يطلعون عليها فتكون أقرب إلى القبول.

1 أساس التقديس في علم الكلام، ص: 82، والحديث أخرجه الترمذي في كتاب «الصوم» باب «ما جاء في ليلة النصف من شعبان». حديث رقم: 670. وكذلك ابن ماجه في كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها». باب «ما جاء في النصف من ليلة شعبان» حديث رقم: 1379.

2 أساس التقديس في علم الكلام، ص: 101.

3 أساس التقديس في علم الكلام، هامش ص: 82.

4 نفس المصدر، ص: 67.

والثاني: أن الغالب على الإنسان في قلب الليل الكسل، والنوم، والبطالة. فلولا الجهد العظيم في طلب الدين والرغبة الشديدة في تحقيقه لما تحمل مشاق السهر، ولما أعرض عن اللذات الجسمانية، ومتى كان الجهد والرغبة في الإخلاص أتم وأكمل كان الثواب أوفر.

الثالث: أن الليل وقت الكسل والفتور، فاحتيج إلى الترغيب في الاشتغال بالعبادة في الليل، إلى مزيد أمور تؤثر في تحريك دواعي الاشتغال والتهجد، فيحسن أن الشارع يخص هذا الوقت بمثل هذا الكلام، ليكون توفر الدواعي على التهجد أتم. فهذه الجهات الثلاث تصلح أن تكون سببا لتخصيص الشرع هذا الوقت بهذا التشريف، ولأجلها، قال الله تعالى: ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ [الذاريات: 81]، وهناك وجه رابع أضافه الفخر الرازي، قال: «الوجه الرابع: أن جمعا من أشرف الملائكة ينزلون في ذلك الوقت بأمر الله تعالى فأضيف ذلك إلى الله تعالى، لأنه حصل بسبب أمر الله تعالى»⁽¹⁾.

وكلام الإمام الفخر الرازي، في تعليقه تخصيص نزول الرحمة في هذا الوقت من الليل، لتحصيل العبد المزيد من الثواب واضح ومنه كون هذا الوقت، مظنة التوبة لخلو النفس من الشوائب في العادة، وكذا احتياج العبد للترغيب في تحريك دواعيه للاستزادة في الطاعات، وأيضا إخلاص العبد لله عز وجل في ذلك الوقت لعدم اطلاع الأغيار عليه.

كما أن الوقوف على تفسير بعض الآيات المرتبطة بالموضوع في «مفاتيح الغيب» يزيد تأكيدا وتفصيلا لكل الوجوه المعقولة التي علل بها حديث النزول من جهة، ويبين من جهة أخرى إمام الفخر الرازي بمقاصد «الحديث»، والدعوة إلى الاشتغال بها، وصرف الفكر عن إشكالات غير واردة أورثت لنا جمودا، ونفورا من هدي الدين، والخلوض فيما لا طائل تحته ولا عمل بعده.

ومنها ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَا نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ [المزمل، جزء من الآية: 5]، بعد ما ذكر وجهين أولين، قال: «وعندي وجه ثالث: وهو أن الإنسان إذا أقبل على العبادة والذكر في الليل المظلم، في البيت المظلم، في موضع لا تصير حواسه مشغولة بشيء من المحسوسات ألبتة، فحينئذ يقبل القلب على الخواطر الروحانية والأفكار الإلهية. وأما النهار، فإن الحواس تكون مشغولة بالمحسوسات، فتصير النفس مشغولة بالمحسوسات، فلا تتفرغ الأحوال الروحانية. فالمراد من ناشئة الليل تلك الواردات الروحانية والخواطر النورانية، التي تنكشف في ظلمة الليل بسبب فراغ الحواس، وسماها ناشئة الليل، لأنها لا تحدث إلا في الليل بسبب أن الحواس الشاغلة للنفس معطلة في الليل ومشغولة في النهار، ولم يذكر أن تلك الأشياء الناشئة منها تارة أفكار وتأملات، وتارة أنوار ومكاشفات، وتارة انفعالات نفسانية من الابتهاج بعالم القدس أو الخوف منه. أو تخيلات أحوال عجيبة»⁽²⁾، وكذلك قال في تفسير قوله تعالى: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾

1 نفس المصدر، ص: 87-89 بتصرف.

2 مفاتيح الغيب، 7/176.

[آل عمران، جزء من الآية: 71]: «اعلم أن الاستغفار بالسحر، له مزيد أثر في قوة الإيمان وفي كمال العبودية من وجوه: الأول: إن في وقت السحر يطلع نور الصباح بعد أن كانت الظلمة شاملة لكل، وبسبب طلوع نور الصباح كأن الأموات يصيرون أحياء، فهناك وقت الجود العام والفيض التام، فلا يبعد أن يكون عند طلوع صبح العالم الكبير يطلع العالم الصغير، وهو ظهور نور جلال الله تعالى في القلب، والثاني: أن وقت السحر أطيب أوقات النوم، فإذا أعرض العبد عن تلك اللذة، وأقبل على العبودية، كانت الطاعة أكمل، والثالث: نقل عن ابن عباس «والمستغفرين بالأسحار» يريد المصلين صلاة الصبح»⁽¹⁾.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَمْسِنْ هُوَ قَنْتٌ-أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر، جزء من الآية: 10] قال: «وفي هذه اللفظة - يقصد قانت - تنبيه على فضل قيام الليل، وأنه أرجح من قيام النهار، ويؤكد وجهه. الأول: إن عبادة الليل أستر عن العيون فتكون أبعد عن الرياء. الثاني: إن الظلمة تمنع من الإبصار، ونوم الخلق يمنع من السماع، فإذا صار القلب فارغا عن الاشتغال بالأحوال الخارجية عاد إلى المطلوب الأصلي، وهو معرفة الله وخدمته. الثالث: إن الليل وقت النوم فتركه يكون أشق، فيكون الثواب أكثر»⁽²⁾.

ومن خلال ما أوردته من أقوال، يتضح لنا استحضر الفخر الرازي للأسرار والمقاصد، وتنبيه الناس على هاته الفرصة التي عليهم أن يغتنموها، وأن يقدروا القيام فيها، والتعبد فيها، وإدراك عمقها وآثارها، ذلك العمق المشار إليه في أول الوحي ﴿لَنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ [المزمل، جزء من الآية: 5] وقوله، ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ [آل عمران، جزء من الآية: 71]، وتتمام هذا المعنى ما قاله عليه الصلاة والسلام «إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها»⁽³⁾، وما على المرء إلا أن يتعرض لها ليستفيد من نفحاتها بحسب ما تطيقه بشريته من جهة، وهمته من جهة أخرى.

المبحث الثاني: بيان مقاصد التوحيد عند الإمام فخر الدين الرازي.

إن أعظم تجليات اهتمام الفخر الرازي بمقاصد التوحيد، تعليله لأهمية هذا العلم، وشرفه، وفضله على باقي العلوم بشدة الحاجة إليه في الدين والدنيا، والتي صدر بها مؤلفيه «عجائب القرآن» «ومن أسرار التنزيل»، مفصلا في ذلك تفصيلا كثيرا، اختصر كلامه فيما ختم به ذالك التفصيل مخافة الإطالة، حيث قال: «أما في الدين فلائن من عرف هذه المطالب يستحق الثواب العظيم، ويتخلص من العقاب الأليم، ويصير من زمرة الملائكة المقربين، في جوار رب العالمين. ومن جهلها صار محروما من الثواب العظيم، مستوجبا للعقاب الأليم، وصار من زمرة الأبالسة والشياطين، وبقي في دركات الضلالة أبد

1 نفسه.

2 نفس المصدر، 218/26.

3 لم أعر على هذا الحديث، انظر: مفاتيح الغيب، 94/17.

الآبدن ودهر الداهرين. وأما في الدنيا فلأن معظم مصالح العالم إنما تنتظم بسبب الرغبة في الثواب والرغبة من العقاب وإلا لوقع الهرج والمرج في العالم»⁽¹⁾.

وكلام الإمام الفخر الرازي هنا يوضح لنا، حجم المصالح المترتبة عن توحيد الله عز وجل، والمفاسد المترتبة عن الجنوح عليها، وأن الحاجة إليها في الدنيا والآخرة على حد سواء.

ويوضح محقق الكتاب الدكتور عبد القادر أحمد عطا قول الرازي أكثر، بقوله: «ليس المقصود الثواب والعقاب الأخروي فقط، بل ثواب الدنيا وعقابها من استقرار الحياة وازدهارها أو خرابها تبعا للسير على منهاج القرآن أو الجنوح عنه، والحضارات البائدة بسبب الجهل بأصول الدين مذكورة في القرآن، وقد أيدت بعوامل غيبية كالصاعقة والريح العقيم والصيحة والجذب والجفاف»⁽²⁾.

وفي مؤلفه «التفسير الكبير»، يزيد الفخر الرازي تأكيداً على أهمية التوحيد، من خلال بيانه للمقصود من الدين جملة وتفصيلاً، ومن ذلك قوله: «المقصود من الدين إنما هو الوفاء بلوازم الربوبية. فإذا أسلمت وجهي لله فلا أعبد غيره، ولا أتوقع الخير إلا منه، ولا أخاف إلا من قهره وسطوته، ولا أشرك به غيره»⁽³⁾. وفي موضع آخر، يعتبر الإمام نضر الدين الرازي أن التوحيد سبب إعمار الكون، ففي معرض تحديده لأسامي سورة الإخلاص قال «الثالث عشر: الأساس، قال عليه الصلاة والسلام «أسست السماوات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد»⁽⁴⁾، ومما يدل عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السماوات والأرض دليل قوله: ﴿يَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ [مریم، الآية: 91] فوجب أن يكون التوحيد سببا لعمارة هذه الأشياء»⁽⁵⁾.

ومن أهم المواضيع التي استأثرت اهتمام الفخر الرازي في موضوع التوحيد، بما له علاقة بالدرس المقاصدي، تخصيصه معظم فصول الكتابين المذكورين آنفاً للحديث عن كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» وما تحتويه من أسرار وفوائد.

ففي كتابه «من أسرار التنزيل» خصص فصلين منه لذلك، جمع فيهما لطائف عجيبة، أقصر على بعضها، ومنها قوله: «واعلم أن الإنسان إذا انكشفت له أسرار «لا إله إلا الله»، أقبل على الله، وأخلص في عبادته، ولم يلتفت إلى أحد سواه، فلا يرجو غيره، ولا يخاف سواه، ولا يرى النفع والضرر إلا منه، فانقطع بالكلية عن دونه»⁽⁶⁾.

1 من أسرار التنزيل. نضر الدين الرازي، ص: 31، انظر أيضاً: عجائب القرآن، للفخر الرازي، ص 16.

2 ابن السكيت، جمع الجوامع، ص: 84.

3 مفاتيح الغيب، 184-183/7.

4 لم أعثر على هذا الحديث.

5 مفاتيح الغيب، 162/32.

6 من أسرار التنزيل، ص: 114.

فالرازي يبين لنا من هذا النص، المقاصد المعتبرة للعبد من مكاشفته لأسرار «لا إله إلا الله»، وهي إقباله على الله تعالى، والإخلاص في عبادته، وعدم الالتفات إلى ما سواه، وبهذا يصير أكثر مطالعة لدقائق حكمته تعالى، مستغرقا في محبة الله سبحانه وهي أعلى المقامات، قال: «إن العبد إذا كثرت مطالعته لدقائق حكمة الله تعالى، كثرت ترقيه في مقام محبة الله، فإذا كثرت ذلك صار ذلك سببا لاستيلاء حب الله تعالى على قلب العبد، وغوصه فيه على مثال القطرات النازلة من الماء على الصخرة الصماء، فإنها مع لطافتها تثقب الحجارة الصلدة، فإذا غاصت محبة الله في القلب تكيف القلب بكيفيتها، واشتد ألفه بها، وكلما كان ذلك الألف أشد كانت النفرة عما سواه أشد، لأن الالتفات إلى ما عداه يشغله عن الالتفات إليه، والممانع عن حضور المحبوب مكروه، فلا تزال تتعاقب محبة الله ونفرته عما سواه على القلب، ويشتد كل واحد منهما بالآخر، إلى أن يصير القلب نفورا عما سوى الله تعالى، والنفرة توجب الإعراض عما سوى الله، والإعراض يوجب الفناء عما سوى الله تعالى، فيصير ذلك القلب مستنيرا بأنوار القدس، مستضيئا بأضواء عالم العصمة، فانيا عن الحظوظ المتعلقة بعالم الحوادث، وهذا المقام أعلى الدرجات⁽¹⁾. وفي موضع آخر، حصر فوائد «لا إله إلا الله» في عشرة، وفي هذا السياق يقول رحمه الله: «المنفعة الأولى: هي أن كلمة «لا إله إلا الله» من أفضل الأذكار، لهذا فالعدو لما جاءته المحنة فزع إليه، وكذا الولي. أما العدو، فإن فرعون لما قرب من الغرق قال: ﴿عَآمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي عَآمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس، جزء من الآية: 90]، أما الولي فكما في حق يونس، قال الله تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس، جزء من الآية: 90]، فكلاهما نادى، إلا أنه تقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، والسبب من وجوه: الأول أن يونس عليه السلام كان قد سبقت له المعرفة مع هذه الكلمة، فسبق المعرفة إعانة على قبولها منه. وأما فرعون فقد تقدم له سبق الكفر. وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات، يحفظه في الفلوات...

أما الفضيلة الثانية لهذه الكلمة: إن المواظبة على تكرارها سبب للفوز بالنجاة والسلامة، قال الإمام الفخر الرازي بعد أن ذكر قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَكُ وَالْعِلْمُ فَآيِمًا بِالْفُسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران، الآية: 18]، «والمقصود من التكرير- يعني تكرير «لا إله إلا الله» في نفس الآية- وجهان: أن يكون العبد مواظبا على تكريرها طول عمره، الثاني: كأنه قال: عبدي، جعلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها، فاجعلها أنت أيضا أول عمرك وآخره، حتى تفوز بالنجاة والسلامة...

الفضيلة السادسة: ما روي في الآثار أنه قال: «إذا قال العبد: لا إله إلا الله، فإنه تعالى يعطيه من الثواب بعدد كل كافر وكافرة على وجه الأرض، قال المحققون: السبب في ذلك، أنه لما قال هذه الكلمة، فإنه قد رد على كل كافر وكافرة يثبت لله ضدا أو ندا أو شريكا، فلا جرم يستحق الثواب بعددهم...

الفضيلة التاسعة: الأحاديث الواردة في فضل هذه الكلمة:

والأول: قوله عليه السلام: «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله»⁽¹⁾.

والثاني: عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عليه السلام قال: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت، ولا وحشة عند النشر: وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله ينفضون شعورهم من التراب ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن»⁽²⁾...

والثالث: قال عليه السلام: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»⁽³⁾. ولنا أن نلاحظ من هذا النص، أن الرازي - رحمه الله تعالى - لا يترك مناسبة إلا ويوضح فيها المصلحة المرجوة من كلمة التوحيد، ومنها، الحفظ في الفلوات لمن حفظها في الخلوات، والفوز بالنجاة والسلامة، واستحقاق الثواب.

أما في مؤلفه «عجائب القرآن» فقد خصص لكلمة التوحيد ستة فصول كاملة، الأول «في بيان أسرار كلمة لا إله إلا الله»، والثاني «في فوائد كلمة لا إله إلا الله»، والثالث «في أسماء كلمة التوحيد»، والرابع «في الأسماء التي شبه الله تعالى بها كلمة التوحيد»، والفصل الخامس «في شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إله إلا الله»، أما الفصل السابع «ففي الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا لا إله إلا الله»، ليختم كتابه بفصل لم يضع له عنوانا كما في الفصول السابقة، إلا أنه بعد الاطلاع عليه، يتبين أنه ضمنه مسائل عدة مرتبطة بالتزكية، أذكر أولها لارتباطها بحديثه - رحمه الله تعالى - عن المنافع المرجوة من النطق بشهادة «لا إله إلا الله»، أتمس منها فقط ما لم أذكره من أقوال الرازي في مواطن أخرى من كتبه.

يبدأ الرازي هذا الفصل، بتعليقه التفاوت الحاصل بين الخلق في نيل المغفرة من الله عز وجل بين من ذكر «لا إله إلا الله» أيام الصحة، ومن ذكرها في آخر زمان حياته، قال شارحا الحديث النبوي الشريف، والذي استهل به الكلام: «روى الإمام محمد بن علي الترمذي عن معاذ بن جبل قال: قال

1 أخرجه ابن ماجه في كتاب «الأدب»، باب «فضل الحامدين»، حديث رقم: 3800 عن جابر بن عبد الله. رضي الله عنهما.

2 نقلا عن الفخر الرازي «من أسرار التنزيل»، ص: 55-56. والحديث ورد في شعب الإيمان للبيهقي الإيمان وهو ضعيف.

3 أخرجه البخاري في كتاب «الإيمان»، باب: قول الله تعالى «وأمرهم شورى بينهم». حديث رقم 24 عن عبد الله بن عمر. ولفظه «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله». وأخرجه مسلم في كتاب «الإيمان». حديث 33. باب: قول الله تعالى «وأمرهم شورى بينهم» {، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من نفس تموت فتشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، يرجع ذلك إلى قلب موقن، إلا غفر الله لها»¹، و«تمام القول فيه: إن الإنسان الذي يكون قلبه مفتونا بديناه، ومأسورا في الشهوات، يكون سكران عن الآخرة، حيران عن الله، لم يحصل فيه اليقين البتة، لأن قلبه مملوء بالميل إلى غير الله، فلا يحصل فيه الميل على الله، أما إذا حصل في القلب اليقين بالله، كان الأمر بخلاف ذلك، وذلك اليقين سمي يقينا لاستقراره في القلب، وهو النور... وإذا استقر النور دام، وإذا دام صارت النفس ذات بصيرة، فاطمأن القلب بجلال الله، ثم انقطع عن غير الله، فوقف هناك عاجزا، فاستغاث بالله صارخا مضطرا، فأجابه الحق، فإنه يجيب دعوة المضطرين، فتفرق ذلك النور المتلألئ في القلب، فانحطت به ظلمات الاشتغال بغير الله، فيصير الملكوت مشاهدا له، وهو قول حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «كأني أنظر إلى عرش ربي بارزا»، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عبد نور الإيمان قلبه»².

ثم أضاف في موضع آخر: «لهذا استحسب السلف أن يلقنوا المحتضر هذه الكلمة، قال عليه السلام: «لقنوا موتاكم» فإن الإنسان عند القرب من الموت تموت شهوته، ويحصل له نور اليقين، فصارت هذه الكلمة مقبولة منه»³.

ولا يفوتني هنا، أن أذكر أن الفخر الرازي - رحمه الله تعالى - خصص قسما هاما من كتابه «لوامع البينات»، أيضا لمباحث كلمة لا إله إلا الله، وأولها ذكر فوائدها، ثم ما قيل في وجوهها، فن أراد الاستقصاء فعليه بالكاتب»⁴.

ومن الدقائق المهمة التي اهتم بها الفخر في تناوله لكلمة «لا إله إلا الله»، ونبه عليها كثيرا، هي أن مجمل الفضائل المذكورة آنفا وغيرها، لا تحصل بمجرد النطق اللساني، الخالي من التصديق القلبي، والمجرد عن العمل وإن كان مقصودا أيضا، وإنما النطق بها هو نقطة البداية فقط، لذا فهي أساس الشهادة متى استقر الإيمان بها تعلق القلب تلقائيا بالإيمان بسائر العناصر المكملة لها، وهي الإيمان بالملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ومثله ذكره في كتابه «عجائب القرآن»، حيث قال: «لا بد من اليقين عند التكلم بهذه الكلمة حتى تكون نافعة»⁵.

ويزيد الرازي تعمقا في المسألة بقوله: «وقد يتدرج هذا التعلق إلى درجة الاستيقان بها، فينتفع بفضائلها، إذ أنها مشروطة به، ودليله الأحاديث الكثيرة، منها ما أخرجه الإمام البخاري عن أبي هريرة

1 أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الأدب، باب فضل لا إله إلا الله، حديث رقم: 3796.

2 عجائب القرآن، ص: 120.

3 نفس المصدر، ص: 122.

4 لوامع البينات، ص: 154 وما بعدها.

5 عجائب القرآن، ص: 122.

رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو من نفسه»⁽¹⁾.

ومن أهم القضايا التي ينبغي إفرادها بالنظر، لارتباطها بمقاصد التوحيد عند الرازي، دعوته الصريحة إلى الاستغراق في التفكير في الدلائل القرآنية كمسلك للمعرفة الحققة لله تعالى، قال: «اعلم أن المقصود من هذا الكتاب، جذب القلوب والأرواح عند الاشتغال بالحق، إلى الاستغراق في معرفة الحق، وإنارة القلب بما يدل على التوحيد. ودلائل التوحيد محصورة في قسمين: دلائل الآفاق ودلائل الأنفس»⁽²⁾، وهذا توجيه دقيق منه إلى أن التفكير في خلق الباري سبحانه، وعنايته، وتديره لشؤون الكون في حدود تصورات العقل البشري، هو المقصد الأسمى، فكل شيء في الوجود يرشد العقول والألباب إلى افتقارها إلى مدبر يديرها، ومقدر يحفظها دون حاجة إلى طريقة معينة يتقيد بها حتى يحصل هذا الغرض، لذا أكد الرازي أن الغرض من الدلائل القرآنية ليس المجادلة بل تحصيل العقائد الحققة في القلوب.

وفي هذا السياق، يلفت انتباهنا الفخر الرازي إلى سر لطيف، وهو حكمته تعالى في الخلق جملة، قال رحمه الله: «فالأمر كله راجع إلى فاعل مختار أراد لحكمة مخصوصة أن يخلقه بعد أن لم يكن، وهذا الخلق يقوم على النظام والانضباط»⁽³⁾. كما أنه يرى أن «للقوى الفعالة الطبيعية غايات معينة فإذا لم تكن القوة الطبيعية متوجهة نحو غايات معينة، فلم لا ينبت الزيتون بطيخا»⁽⁴⁾. وقد خصص الفصل الخامس من كتابه «المباحث المشرقية» لبيان أن كل مخلوق لا يخرج عن النظام الواحد مهما تغيرت المناهج والطرائق، فالجميع يسير ويسعى لغايات معينة، وهذه الغايات لها علل تدفعها للتحرك نحو الشيء المطلوب⁽⁵⁾، فلكل حالة غاية معينة محكمة ومتقنة، زادها توضيحا بقوله: «كل من له عقل سليم وطبع مستقيم، ينظر في عجائب مصنوعات الباري تعالى، من شكل الأفلاك وحركة الشمس والقمر والنجوم، يرى أن كل واحد منها موصوف بشكل معين وحركة معينة. وكذلك ينظر في بدن الإنسان من عجائب تركيبه، وإذا أراد الاطلاع على هذه العجائب فعليه بكتب التشریح وإذا علم، يجزم بأنه لا يوجد تركيب أعجب من هذا البدن مع الروح. وإذا عرفت هذا ثبت: أن أفعاله عز وجل محكمة متقنة»⁽⁶⁾.

1 أخرجه البخاري في كتاب «الرقاق» باب «صفة الجنة والنار»، رقم الحديث 6570 مع تغيير في نهاية الحديث وهو «...من قال: لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه».

2 مفاتيح الغيب، 109/9.

3 المباحث المشرقية، للفخر الرازي، 530/1.

4 نفس المصدر، 531/1.

5 الذات الإلهية عند نضر الدين الرازي للدكتور عمر التريكي، ص: 75-76 بتصرف.

6 المسائل الخمسون في أصول الدين. نضر الدين الرازي، ص: 46-47.

والأمثلة في مثل هذه التنبيهات كثيرة في مؤلفات الرازي، خصوصا في «مفاتيح الغيب» أذكر بعضا منها بشي من التفصيل، من خلال الوقوف على نماذج من تعليقاته لدلائل التوحيد بشقيه: دلائل الأنفس ودلائل الآفاق.

قال مفسرا قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَقْبَابِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت جزء من الآية: 52]، «يعني نريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المنزه عن المثل والضد⁽¹⁾. فإذا كانت الآية توضح أن علة الاستدلال بدلائل الأنفس والآفاق مجتمعة، هو بيان الحق، فإن كلامه في تفسيرها يزيد مقصدا آخر، هو مقصد إزالة الشبهات عن القلوب، حتى يحصل الجزم أن هناك إلها واحدا مستحقا للعبادة، هو الذي أوجد كل هذه الكائنات من عدم، وهو المقصود عند الفخر الرازي ببيان الحق.

أما مقاصد الاستدلال بها متفرقة، فأذكر نموذجا من دلائل الأنفس، من خلال معرض تفسيره لقوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم، الآية: 23]، قال: «لما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق، ذكر ما هو من صفات الأنفس بالاختلاف الذي بين ألوان الإنسان، فإن واحدا منهم مع كثرة عددهم، وصغر حجم خدودهم، وقدودهم لا يشبهه غيره... والثاني: اختلاف كلامهم، فإن عربيين هما أخوان إذا تكلموا بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر، حتى أن من يكون محجوبا عنهما لا يبصرهما يقول: هذا صوت فلان، وهذا صوت فلان آخر، وفيه حكمة بالغة، وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره، والعدو من الصديق ليتحرز قبل وصول العدو إليه، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه، وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الأصوات»⁽²⁾.

فالفخر الرازي - رحمه الله - قد علل اختلاف بعض صفات الأنفس في هذه الآية بالتمييز بين الأشخاص، وهذا مقصد كلي، وقس على ذلك، ما تضمنته مؤلفاته من مقاصد أخرى جزئية لكل مكون من مكونات الذات البشرية، فلا شك أن اختلافها لغاية حدها الشارع عز وجل ولا محيد عنها، وإلا اختلت أمور الإنسانية جمعا.

وأما الاستدلال من باب دلائل الآفاق، فالرازي بعد أن حدد المراد منها، عرج إلى بيان الحكم والغايات التي من أجلها خلقت، قال: «دلائل الآفاق والتي يراد بها كل ما هو غير الإنسان من كل هذا العالم، فهي أقسام كثيرة، والكلام في أحوالها على الوجه المختصر الذي يليق بهذا الموضع مرتب في

1 مفاتيح الغيب، 139/27.

2 مفاتيح الغيب، 98/25.

مسائل»⁽¹⁾، ذكرها الفخر الرازي مفصلة في كتابه «عجائب القرآن»، كما لا يخلو مؤلفيه «المطالب العالية من العلم الإلهي» «ومفاتيح الغيب» من ذكر تفاصيلها.

والأمثلة على تعليقات الفخر الرازي المصلحية، وبيان الحكمة في ملكوته سبحانه وتعالى كثيرة، وليكن المثال الذي أسوقه، نموذجاً لتوضيح المقصود مخافة الإطالة، فلنتأمل مثلاً قوله تعالى: ﴿لَإِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وُفُّوا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَّبِعُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَفَتْ هَذَا بِطِلَآءٍ سُبْحَانِكَ ۖ فَفَنَّا عَذَابَ النَّارِ ۚ﴾ [آل عمران، الآيتان: 190-191]، قال الفخر الرازي أثناء تفسيره للآيتين: «اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل الإلهية والقدرة والحكمة وهو ما يتصل بتقرير الربوبية، ذكر بعدها ما يتصل بالعبودية. وأصناف العبودية ثلاثة أقسام: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، فقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ إشارة إلى عبودية اللسان، وقوله: ﴿فِيمَا وُفُّوا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء، وقوله: ﴿وَيَتَّبِعُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى عبودية القلب والفكر والروح، والإنسان ليس إلا هذا المجموع، فإذا كان اللسان مستغرقاً في الذكر، والأركان في الشكر، والجنان في الفكر، فإن هذا العبد مستغرق بجميع أجزائه في العبودية، فالآية الأولى دالة على كمال الربوبية، وهذه الآية دالة على كمال العبودية، فما أحسن هذا الترتيب في جذب الأرواح من الخلق إلى الحق، وفي نقل الأسرار من جانب عالم الغرور إلى جانب الملك الغفور»⁽²⁾.

ويلحق بهذا النوع من تعليقات الرازي، بيانه للمصالح المترتبة عن خلق النجوم والمطالع والأجرام وأحوال الأرض والأنعام والدواب وغيرها... منها قوله «إن هذا الترتيب العجيب في تركيب هذه الأفلاك وائتلاف حركاتها أترى أنها مبنية على حكمة، أم هي واقعة بالجزاف والعبث؟ أما القسم الثاني، فباطل وبعيد عن العقل،... فلم يبق في العقول قسم هو الأليق بالذهاب إليه، إلا أن مدبراً، قاهراً، غالباً على الدهر والزمان يحركها لأسرار مخفية، ولحكم لطيفة هو المستأثر بها والمطلع عليها»⁽³⁾، وقوله «من منافع الطلوع والغروب أن يصل التأثير إلى جميع جوانب الأرض بقدر الإمكان... وبالجمله فالعقول لا تقف إلا على القليل من أسرار المخلوقات، فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقوة غير المتناهية»، ومنها أيضاً قوله «ارتباط أحوال العالم الأسفل بأحوال حركات الأجرام العالية، فإن بسبب الحركة اليومية يتعاقب الليل والنهار مع كثرة ما فيها من المصالح، وبسبب الحركة الشهرية الحاصلة بسبب القمر تكون المصالح، وبسبب الحركة السنوية الحاصلة بسبب الشمس، تحصل الفصول الأربعة التي لا يعرف كمية مصالحها

1 عجائب القرآن. الفخر الرازي، ص: 29. وانظر أيضاً، مفاتيح الغيب، 112/9.

2 مفاتيح الغيب، 110/9.

3 مفاتيح الغيب، 170/9.

إلا الله تعالى»⁽¹⁾.

وفي موضع آخر قال: «اعلم أن منافع النجوم كثيرة، منها أن الله تعالى زين السماء بها، ومنها أنه يحصل بسببها في الليل قدر من الضوء، ... ومنها أنه تعالى جعلها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر...، ومنها أنه جعلها رجوما للشياطين الذين يخرجون الناس من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر»⁽²⁾. ومنها أيضا بيانه الحكمة في خلق بعض أحوال الأرض، حيث قال: «والتفريع في ذلك كثير»⁽³⁾، منها على سبيل التمثيل بيانه علة خلق الماء، قال - رحمه الله - «إن الماء جعله الله سببا لحياة الإنسان ولأكثر منافعه، فقال ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا تؤمنون﴾ [الأنبياء، جزء من الآية: 30]، فإن الله عز وجل جعله أساس الإحياء لكل شيء، جعله أيضا سببا لرزقه، قال تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [الذاريات، الآية: 22] ، ثم إن نزوله بمقدار النفع لإحياء الأرض وحصول الأقوات للعباد أعظم حكمة من خلقه»⁽⁴⁾.

ولعل الإحاطة بحكم الله تعالى في ملكه وملكوته، مما تعجز عنه العقول البشرية مهما بلغت درجة نظر العابدين، وفي هذا السياق قال الرازي - رحمه الله -: « فالاستقصاء في شرح ملكه يقتضي شرح جميع الموجودات، بل شرح جميع الموجودات كالذرة الصغيرة في ملكه، لأنه قادر على ما لا نهاية له من المقدورات، وجميع الموجودات من الممكنات متناه، والمتناهي لا نسبة له إلى غير المتناهي⁽⁵⁾..» وقال في موضع آخر « وهذا بحر لا ساحل له لأنه كلما وقف عقل الإنسان على آثار حكمة الله في تخلق شيء آخر، انتقل منه إلى طلب حكمة في تخلق شيء آخر، فقد انتقل من مرتبة إلى مرتبة أخرى أعلى منها وأشرف وأكمل، ولما كانت هذه المراتب لا نهاية لها، لا جرم لا نهاية لمراتب التجلي والكشف والمعرفة»⁽⁶⁾.

وبناء على ذلك، فمجمال القول في المسألة قوله: « الذي يريكم، ويصلح شأنكم، ويوصل إليكم الخيرات ويدفع عنكم المكروهات، هو الذي بلغ كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته إلى حيث خلق هذه الأشياء العظيمة، وأودع فيها أصناف المنافع وأنواع الخيرات، ومن كان له رب موصوف بهذه الحكمة والقدرة فكيف يليق أن يرجع إلى غيره في طلب الخيرات، أو يعول على غيره في تحصيل السعادات»⁽⁷⁾.

1 المطالب العالية من العلم الإلهي، 4/235. وانظر كذلك ما أورده في شرح «منافع الشمس» من نفس المصدر، -4/331/340، وكذا «منافع القمر»، 4/341-345.

2 مفاتيح الغيب، 30/52-53.

3 نفس المصدر، 4/187-188.

4 نفس المصدر، 4/187-188 و 19/185-188.

5 لوامع البينات، ص: 189.

6 مفاتيح الغيب، 15/123.

7 نفس المصدر، 14/83.

وعليه، فإنني سأكتفي بهذه النماذج السالفة الذكر مخافة الإطالة، فإن ما لم أذكره مما أورده الإمام فخر الدين أعم وأوسع، إذ أن كل ذرة من جزئيات هذا العالم تنطق بعظمة الخالق سبحانه.

المبحث الثالث: بيان مقاصد أسماء الله الحسنى وصفاته العلى عند الإمام فخر الدين الرازي

يعد كتاب فخر الدين الرازي «لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات» أو «شرح أسماء الله الحسنى» أهم كتاب أدرج فيه - رحمه الله تعالى - تفاصيل أسماء الله تعالى وصفاته، يذكر ذلك في مقدمة كتابه قائلا: «...وفقني الله تعالى لتنقيح الكلام في شرح أسماء الله تعالى وصفاته، وتحقيق القول في تفسير نعوته وسماته، فصنفت هذا الكتاب وسميته «لوامع البينات في الأسماء والصفات» ورتبته على أقسام ثلاثة، الأول في المبادي والمقدمات، والثاني في المقاصد والغايات، والقسم الثالث في اللواحق والمتممات¹.

والمطلع على مضامين هذا الكتاب، يجد أن الفخر الرازي، جعل لكل قسم مجموعة فصول، جمع فيها كل المسائل والمباحث المرتبطة بالموضوع، بدءا من بيان الفرق بين الأسماء والصفات، وتقسيماتها، إلى فضل ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته بالأسماء والصفات، وحقيقة الدعاء بها، وفضل الأسماء التسعة والتسعين، وغيرها، ولن أقف على بيانها هنا تفصيلا، إلا بقدر الحاجة، لهذا سأركز بين الفينة والأخرى على بعض ما تضمنته بعض فصول الكتاب إجمالا.

وقريب من هذه التفرعات أيضا، ما تضمنه كتابه «مفاتيح الغيب»⁽²⁾، عبر عن ذلك في مواضيع عديدة، ومنها قوله: «واعلم أن لنا في تفسير أسماء الله كتابا كثير الدقائق شريف الحقائق، سميناه بلوامع البينات في تفسير الأسماء والصفات، ومن أراد الاستقصاء فيه فليرجع إليه، ونحن نذكر هاهنا لمعا ونكّا»⁽³⁾. والمتأمل في هذا النص يتبين له، أن الرازي يعتبر ما تضمنه كتابه لوامع البينات من دقائق وموضوعات، هي أشرف الحقائق لكونها مرتبطة بمعرفة الله عز وجل، أي بمعرفة أسمائه وصفاته، التي تهدف كلها إلى بيان كمال الله عز وجل وعزته وعظمته، قال الفخر الرازي: «لله تعالى بحسب كل واحد من أقسام صفاته أسماء مخصوصة تظهر كمال الله تعالى وعزته وعظمته، تنزيها له عن التشبيه والتجسيم»⁽⁴⁾.

1 لوامع البينات، ص: 17

2 انظر مثلا: مفاتيح الغيب، 129/1 و 12/22 و 38/27.

3 نفس المصدر، 55/15.

4 نفس المصدر، 55/15. ومن أراد الاستقصاء في مباحث الأسماء والصفات عند الرازي فعليه ب «لوامع البينات في الأسماء والصفات»، ص: 18 وما بعدها و «المسائل الخمسون في أصول الدين»، ص: 43 وما بعدها و «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين»، ص: 283 وما بعدها.

ينطلق الإمام الفخر الرازي - رحمه الله - في نظره إلى أسماء الله تعالى من كونها، مفاتيح للنفوس يفتح بها العبد الذاكر باسم الله تعالى باب الكرامات والمعارف النورانية، وهي تؤدي إلى درجات الحضور المختلفة بالقرب والبعد، وكمال التجلي ونقصانه، قال مؤكداً ذلك، وشارحاً له بكثير من التفصيل في القسم الثاني من كتابه «شرح أسماء الله الحسنى»: «فكل اسم من أسماء الله تعالى دال على معنى معين، فكل نفس غلب عليها ذلك المعنى كانت تلك النفس شديدة المناسبة لذلك الاسم، فإذا واظب على ذكر ذلك الاسم انتفع به سريعاً..... فإنه لما كانت النفوس مختلفة، كان كل واحد منها مناسباً لحالة مخصوصة، فإذا اشتغلت تلك النفس بتلك الحالة التي تناسبها كان خروجها من القوة إلى الفعل سهلاً هيناً يسيراً»⁽¹⁾.

وإن نظرة فاحصة في هذين النصين، تجعلني أنبه على بعض المسائل:

أولاًها: أن الرازي - رحمه الله - من المفكرين المسلمين الذين تتحلّى نفوسهم بالقدرة على التدقيق، ولذا فمن الطبيعي تلمس وجود نزعة الصوفية في شرحه لأسماءه تعالى، والمواظبة عليها للانتفاع بها. وثانيتهما: أن قول الرازي: «كل اسم من أسماء الله تعالى دال على معنى معين» يشير إلى أن أسماء الله تعالى وصفاته سبحانه غير مكررة، وأن كل واحد منها ينفرد أو يشترك مع آخر في معنى معين مشتمل على أسرار ومعان، سأعتمد إلى توضيحها لاحقاً من خلال إيراد بعض النماذج.

وثالثتها: أن أسماءه تعالى بمثابة مفاتيح للنفوس المختلفة، لكل نفس مفتاح يناسبها حتى يحصل الانتفاع بها، فكل من اجتهد في تحصيل أسمائه تعالى وصفاته، حصل له الانتفاع بها قليلاً أو كثيراً، مع تأكيده أن هناك من الأسرار القرآنية العالية ما لا يهتدي إليها أحد من الخلائق، ومرجع ذلك - كما علل بنفسه - عائد إلى طبيعة العقل البشري وقصوره أو عجزه عن تصور شيء خارج التصورات الحسية»⁽²⁾. ومن المواطن الذي وضع فيها الفخر الرازي أقصى ما يمكن عرفانه من أسماء الله تعالى وصفاته، وقصور العقل البشري عن فهمها كلها، قوله في تفسير خاتمة سورة «الصفات» ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ [الصفات، الآية: 180]: «ثم ختم الآية بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية، وذلك لأن أهم مهمات العاقل معرفة أحوال ثلاثة: فأولها: معرفة إله العالم بقدر الطاقة البشرية، وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع: أحدها: تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفاته الإلهية، وهو لفظة سبحانه. وثانيها: وصفه بكل ما يليق بصفات الذات الإلهية، وهو قوله: ﴿رب العزة﴾... وثالثها: كونه منزهاً في الإلهية عن الشريك والنظير»⁽³⁾.

1 «شرح أسماء الله الحسنى» للفخر الرازي، ص: 105 وما بعدها.

2 نفس المصدر، ص: 16.

3 مفاتيح الغيب، 150/26.

أما القول بأن الله تعالى أسماء حقيقية ثابتة بدلالة نص القرآن، وهي مفهومة ومعقولة، فهو يقتضي - حسب تصور الرازي - التجسيم والتشبيه. لذا يعتبر الدكتور عمر التريكي في بحثه حول الذات الإلهية عند نجر الدين الرازي أن «نظرة الرازي إلى معاني أسماء الله تعالى أكثر عمقا، بل وأقرب للمقاصد القرآنية التي تقتضي التنزيه المطلق كحقيقة مخصوصة غير معلومة للبشر، وكل ما ورد في الآيات هو معان مجازية وضعت لتقريب الفهم، فالمسلم العاقل لا يعرف ولا يفهم من اسم عالم إلا أنه سبحانه وتعالى يصح منه الإتيان والإحكام، ولا يتصور من صفة القدرة إلا أنه عز وجل يصدر منه الفعل التام»⁽¹⁾.

ثم إن استئناف النظر فيما أورده الإمام الفخر الرازي في مواضع عديدة من «مفاتيح الغيب»، من كون أسماء وصفاته غير متناهية، إذ تفوق العد والإحصاء تلفتنا إلى لطيفة أخرى، وهو تعليله الاطلاع الأكثر على آثار حكمة الله تعالى في الكون، بكثرة الاطلاع على أسماء الله الحسنى، قال: «رأيت في بعض كتب التذكير أن الله تعالى أربعة آلاف اسم: ألف منها في القرآن والأخبار الصحيحة، وألف منها في التوراة، وألف في الإنجيل، وألف في الزبور، ويقال: ألف آخر في اللوح المحفوظ، ولم يصل ذلك الألف إلى عالم البشر، وأقول هذا غير مستبعد... بل أقول: كل من كان اطلاعه على آثار حكمة الله تعالى في تدبير العالم الأعلى وتدبير العالم الأسفل أكثر، كان اطلاعه على أسماء الله تعالى أكثر، ووقوفه على الصفات الموجبة للمدح والتعظيم، ثم إن من وقف على العدد الذي ذكرناه من أقسام الرحمة والحكمة في بدن الإنسان، صار ذلك منها للعقل على أن الذي لم يعرفه من أقسام الرحمة والحكمة في تخليق هذا البدن أكثر مما عرفه... خارج عن التعديد والتحديد والإحصاء والاستقصاء كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم، جزء من الآية: 43].

فكل من وقف على نوع آخر من أنواع الحكمة فقد وصل إلى معرفة اسم آخر من أسماء الله تعالى، ولما كان لا نهاية لمراتب حكمة الله تعالى ورحمته، فكذلك لا نهاية لأسمائه الحسنى وصفاته العليا»⁽²⁾. وقال أيضا: «إن أسماء الله تعالى لا نهاية لها، لأن مقدراته غير متناهية، ولما كان لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته، وإنما السبيل إلى معرفته بمعرفة أفعاله. فكل من كان وقوفه على أسرار حكمته في مخلوقاته أكثر، كان علمه بأسماء الله أكثر، ولما كان هذا بحرا لا ساحل له ولا نهاية له، فكذلك لا نهاية لمعرفة أسماء الله الحسنى»⁽³⁾.

وفي معرض تبيان الفخر الرازي لأسماء الله الحسنى، وأن في معرفتها كلها حكما بالغة، فقد علل سبب إخفاءها عن الخلق، عند ذكره للحديث المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله

1 الذات الإلهية عند نجر الدين الرازي، الدكتور عمر التريكي ص: 211.

2 مفاتيح الغيب، 1/130.

3 نفس المصدر، 15/55.

عليه وسلم أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة»⁽¹⁾. قال: «هذا هو القدر المروي في الصحيح وفي سائر الروايات، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة، إنه وتر يحب الوتر» ثم ذكر الأسماء التسعة والتسعين على التفصيل المشهور. وفي هذا الحديث مباحث،...ليصير ذلك مدعاة للخلق على ذكر جميع أسمائه وصفاته تعالى رجاء فوزهم بذكر تلك الأسماء التي من أحصاها دخل الجنة، ومثاله أن الله تعالى عظم أمر الصلاة الوسطى، ثم إنه أخفاها في الصلوات، وعظم ليلة القدر ثم إنه أخفاها في ليالي رمضان، وأخفى رضاه في الطاعات، وأخفى سخطه في المعاصي، وأخفى وليه فيما بين الخلق، وأخفى وقت الموت، وأخفى وقت القيامة. والمقصود من إخفاء هذه الأمور أن يكون الرجل آتيا بكل العبادات في كل الأوقات على سبيل التعظيم، ومتحرزا عن المساهلات والمسامحات في أداء الطاعات»⁽²⁾. ثم أعقبه بقوله: «فإنه سبحانه خص كل صلاة بعدد وإن كنا لا نطلع على حكمة تلك المقادير، فكذا هنا وجب على المسلم أن يعتقد في هذه التقديرات حكما بالغة، وإن كان عقله لا يصل إلى تفاصيلها»⁽³⁾. ثم إن الإمام الفخر الرازي، ينبها إلى مسألة أخرى مرتبطة بأسماء الله الحسنى، وهي بيانه للقصد من حسنها في حقه عز وجل، ومعللا ذلك بحسن معانيها ومدلولاتها، قال: «إن قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ مذكور في سور أربعة: أولها: هذه السورة، وثانيها: في آخر بني إسرائيل في قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء، جزء من الآية 109]، وثالثها: في أول طه، وهو قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه، الآية: 7]، ورابعها: في آخر الحشر، وهو قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحشر، جزء من الآية: 42]، قال: «إذا عرفت هذا فنقول: الأسماء ألفاظ دالة على المعاني، فهي إنما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال، وهي محصورة في نوعين: عدم افتقاره إلى غيره، وثبوت افتقار غيره إليه»⁽⁴⁾. أما عن رعاية ترتيب أسماء الله الحسنى - فالرازي يرى أنه لا سبيل له للاطلاع عليها، مع تأكيده بوجود حكم خفية في ذلك، قال: «أما رعاية الترتيب، فقد ذكرنا أن الله تعالى في أمثال هذه

1 أخرجه البخاري في كتاب «التوحيد» الباب «إن لله مائة اسم إلا واحدة»، حديث رقم: 7392. حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شعيب: حدثنا أبو الزناد عن الأعرج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة» كما أخرجه الإمام مسلم في كتاب «الذكر»، باب «في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها».

2 شرح أسماء الله الحسنى، ص: 77-78.

3 نفس المصدر، ص: 79.

4 مفاتيح الغيب، 15/54-55.

الأمر حكماً خفية لا اطلاع لنا عليها فوجب التسليم والتصديق»^(١).

من المهم أن أنبه أن الرازي، وهو يتحدث عن أسماء الله تعالى، فغالبا ما يبدأ بذكر الاسم ومعناه، ثم حال الصوفية والمشايخ وحظ العبد من الاسم، وقد يخالف هذا الترتيب أحيانا، كما قد يخالف منهجه بعدم ذكره لبعض هذه الأمور أحيانا أخرى.

ويشير الإمام الفخر الرازي - رحمه الله - في بيانه لمقاصد أسمائه تعالى وصفاته إلى سر لطيف، أكثر عمقا، وهو أن الغرض منها جملة وتفصيلا، هو سعي المرء في اكتساب الممكنات من تلك الصفات، والتخلق بها بحسب ما تطيقه بشريته من جهة، وهمته من جهة أخرى. قال: «إن بين الخلق وبين أسماء الله تعالى مناسبات عجيبة، والعاقلة لا بد وأن يعتبر تلك المناسبات حتى ينتفع بالذكر»^(٢)، ووضح كيفية تحقق معنى هذا الانتفاع، حيث أشار إلى أن ذلك يكون بـ «أن يتعبد الله سبحانه وتعالى بمقتضى أسمائه وصفاته، وأنه لا معنى لهذا التعبد إلا الدعاء بها، والتفكر فيها حتى تؤثر فيه ظاهرا وباطنا»^(٣)، فيتضح من كلام الرازي - رحمه الله - أن العلة من تعبد الله سبحانه وتعالى بمقتضى أسمائه وصفاته سبحانه هو تحقيق الانتفاع، كما أن من مقاصد التعبد بمقتضى أسمائه وصفاته الدعاء بها، والتفكر فيها، حتى يحصل الانتفاع للعبد ظاهرا وباطنا. ومن هنا أمكنني القول، إن الناظر فيما أورده الفخر الرازي في أسماء الله تعالى نظر تدبر، يظهر له من تعلقاتها وارتباطها بخلقها وأمره ما يزيده إيمانا وثبिता و يقينا، فهي أجل المقاصد وأشرف المرامي؛ لذا فإن السعي إلى معرفة الممكنات من صفاته تعالى وأسمائه جملة، أمر لازم على كل مسلم، كل بحسب طاقته. فالعبرة إذن عند الرازي هي الانتفاع ظاهرا وباطنا بما يعقله المرء من معانيها، وما ينكشف له منها، وما يكتسبه من الممكنات من تلك الصفات للخلق بها؛ وهذا هو القصد منها جملة، والذي ينبغي أن نلتفت إليه، أما على وجه التفصيل، فسأكتفي بإيراد نماذج من أسمائه تعالى، والتي أبرز من خلالها الفخر الرازي حظوظ العبد منها.

فليكن البدء بأسماء الله الفاضلة التي ذكرها الإمام الفخر الرازي، قال: «فمنها: اسماء «الحي القيوم». إذ عرفهما مجتمعين بقوله: «الحي القيوم: محيط بجميع الصفات المعتبرة في الإلهية». ثم منفصلين، فقال: «أما الحي فهو الفعال الدراك، وأما القيوم فهو القائم بذاته، والقائم بتدبير الخلق والمصالح لما يحتاجون إليه في معاشهم من الليل والنهار، والحر والبرد، والرياح والأمطار، والنعم التي لا يقدر عليها سواه، ولا يحصيها غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾»^(٤) [إبراهيم، جزء من الآية: 63].

1 شرح أسماء الله الحسنى، ص: 85.

2 مفاتيح الغيب، 1/131.

3 مفاتيح الغيب، 1/125.

4 نفس المصدر، 7/136. بتصرف.

وفي اسميه تعالى «الرحمان الرحيم»، قال - رحمه الله -: «حظ العبد من اسم الرحمان أن يكون كثير الرحمة. واعلم أن كل من كان إليه أقرب كان إيصال الرحمة إليه أولى، وأقرب الناس إليه نفسه، فوجب أن يرحم نفسه، ثم يرحم غيره، كما قال عليه الصلاة والسلام «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»⁽¹⁾. وأما رحمته مع نفسه، فإما أن تكون من الأمور الروحانية أو الجسمية، أما الروحانية، فاعلم أن للنفس قوتين نظرية، وعلمية. أما النظرية، فيإيصال الرحمة إليها تخليها عن الجهل، وتحليتها بالعلم. وأما العملية، فصونها في الأخلاق عن طرقي الإفراط والتفريط، وإلزامها المواظبة على التوسط بين الطرفين. وأما في الأمور الجسمية، فقسمان: الأمور المطلوبة بالذات، والمطلوبة بالعرض. فالأولى للذات الجسمية، وهي محصورة في المطعوم والمنكوح. قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف، جزء من الآية: 92]، فالرحمة على البدن، هو الامتناع عن الإسراف. وأما المطلوبة بالعرض، فهي المال، والرحمة فيه لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان، الآية: 76] فهذه معاهد رحمة كل أحد على نفسه ... وإذا عرفت ... ظهر لك أن كمال رحمة الإنسان أن يسعى في إيصال نفع إلى الغير، ودفع ضرر عنه، ولأجل كمال هذه الصفة، قال عليه الصلاة والسلام: «التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله»⁽²⁾ وكان في آخر حياته يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»⁽³⁾.

وقال في «التفسير الكبير» موضحاً الوجه التاسع في الحكمة من إيجاب الزكاة: «إن إفاضة الخير والرحمة من صفات الحق سبحانه وتعالى، والسعي في تحصيل هذه الصفة بقدر القدرة تخلق بأخلاق الله، وذلك منتهى كمالات الإنسانية»⁽⁴⁾، وأضاف لبيان ذلك قوله: «إذا قال العبد «يا رحمان» فحينئذ يتذكر رحمته، فيميل طبعه إلى طلبها... وكذلك إذا قال: «يا كريم، يا محسن، يا غفار، يا وهاب، يا فتاح» وإذا قال: «يا مالك» فحينئذ يتذكر ملكه وملكوته وما فيه من أقسام النعم، فيميل طبعه إليه فيطلب شيئاً منها، وقس عليه سائر الأسماء»⁽⁵⁾. وهذا ما فسر به قوله صلى الله عليه وسلم «تخلقوا بأخلاق الله»⁽⁶⁾، قال:

1 أخرجه مسلم في كتاب «الزكاة»، باب «الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثم القرابة» حديث رقم: 1663. عن جابر. ولفظه «ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلاهلك فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا يقول فين يدبك وعن يمينك وعن شمالك». وأخرجه النسائي في كتاب «الزكاة»، باب «أي الصدقة أفضل» حديث رقم: 2499. وفي كتاب «البيوع». باب «بيع المدير». حديث رقم: 4573.

2 الحديث وارد في فتح الباري، 452/11.

3 لوامع البينات، ص: 179-180. والحديث في فتح الباري، 291/4.

4 مفاتيح الغيب، 82/16.

5 نفس المصدر، 125/1.

6 ذكر الحافظ ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية 519/6 أنه موضوع.

«فإن هذا يقتضي أن يكون للعبد من كل اسم من أسماء الله تعالى حظ يليق به»⁽¹⁾. وعن اسمه «السلام» قال: «وأما حظ العبد منه، فهو أن العبد له سلامة في الدنيا، وسلامة في الدين. أما سلامته في الدنيا، فهو أن يتخلص من المؤذيات، ويحصل له ما كان في حيز الضرورات والحاجات. وأما السلامة في الدين فهي على ثلاث مراتب، أولاها: السلامة في مقام الشريعة، وهو أن يسلم دينه عن البدع والشبهات، وأعماله عن متابعة الهوى والشهوات. وثانيها: السلامة في مقام الطريقة، وهو أن يكون عقله أمير شهوته وغضبه، ولا يكون أسيرا لهما، لأن العقل أمير، والشهوة والغضب كل واحد منهما عبد. وثالثها السلامة في مقام الحقيقة، وهو أن لا يكون في قلبه التفات إلى غير الله، كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾»⁽²⁾ [الأنعام، جزء من الآية: 29].

أما حظ العبد من اسم «الرزاق» فأمران: أحدهما: أن يرضى بقسمة القسام، والثاني: أن يجعل يده خزانة لربه، فكل ما وجده أنفقه على عبادته كما أمر الله به في قوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ [الفرقان، الآية: 76]، وقال لمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾»⁽³⁾ [الإسراء، جزء من الآية: 92].

وحظه من اسميه «الخافض الرافع» هو أن يرفع جانب الروح، ويخفض جانب النفس، أو ينصر أولياء الله، وينازع أعداء الله»⁽⁴⁾. ولمن أراد الاستقصاء في ذكر النماذج، ففي كتابه «لوامع البينات» ما يشفي الغليل، حيث خصص القسم الثاني منه، والذي عنوانه «في المقاصد والغايات» لبيان ذلك⁵. وسأختم هذا المبحث، باسمه تعالى «العدل»، فالفخر الرازي ربط حظ الإنسان من هذا الاسم، باعتماد مسلك الوسطية والاعتدال في كل تجلياتها في مختلف مناحي الحياة، فلا إفراط ولا تفريط، معللا ذلك بتحقيقه للعدالة، التي هي مجموع ما يتحقق للإنسان من همة، وشجاعة، وحكمة، وهذا ما أوضحه بقوله: «أما حظ العبد من هذا الاسم، فهو أن يحترز عن طرقي الإفراط والتفريط، ففي أفعال الشهوة يحترز عن الفجور الذي هو الإفراط، وعن الجمود الذي هو التفريط، ويبقى على الوسط وهو الهمة، وفي أفعال الغضب يحترز عن التهور الذي هو الإفراط، والجبن الذي هو التفريط، ويبقى على الوسط وهو الشجاعة. وفي الحكمة العملية يحترز عن الإفراط الذي هو الدهاء والمكر، وعن التفريط الذي هو البله، ويبقى على الوسط وهو الحكمة العملية، وإذا اجتمعت هذه الأوساط كان مجموعها هو العدالة، وهو المراد بقوله:

1 لوامع البينات، ص: 179.

2 نفس المصدر، ص: 196-197.

3 لوامع البينات، ص: 236.

4 نفس المصدر، ص: 244.

5 نفس المصدر، من الصفحة: 248 إلى الصفحة: 354.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة، جزء من الآية: 241]، وذلك لأن الحاكم على الطرفين لا بد وأن يكون معتدلاً وسطاً، فلما جعل هذه الأمة حاكمة على سائر الأمم، لا جرم جعلهم في الوسط موصوفين بالاعتدال، مبرئين عن طرفي الإفراط والتفريط في الغلظة والرخاوة»⁽¹⁾.

خاتمة:

إن الوقوف على إسهامات نخر الدين الرازي في مجال الدرس العقدي عموماً، وفي مجال الإيمان بالله تعالى -موضوع الدراسة- خصوصاً، ليؤكد أن أفق النظر في مقاصد العقيدة يجعل توحيد الله عز وجل هو محور الفهم والتفسير، وأسماءه الحسنى وصفاته العلى، مجال التفكير والتدبر والاتعاظ.. بحيث يكون الفهم لمعاني الأسماء والانضباط بآدابها معيناً على الالتزام بها. وهذا منهج تربوي عملي، يجعل كل لحظة من حياة المؤمن محاولة للاستجابة المناسبة لما يطالع عليه ويلاحظه أو يعيشه من تجليات الله سبحانه، باسم من أسمائه في الكون، أو حالات القلب، أو خواطر التفكير. وهو أفق - في نظري - يحتاج إلى مزيد من سبر أغواره من خلال دراسات عديدة، ومنها البحث في موضوع المقاصد الحضارية للأمة الإسلامية من خلال مقتضيات الإيمان بالله عز وجل، أو البحث في المقاصد الأخلاقية، والآثار السلوكية لمقتضيات الإيمان بالله سبحانه وتعالى لدى الإنسان في علاقتها بتزكية النفس، وعمارة الكون، تحقيقاً لمبدأ الاستخلاف، سواء من خلال مؤلفات الإمام نخر الدين الرازي، أو غيره من علمائنا الأفاضل المتقدمين منهم، وصولاً إلى المتأخرين رصداً وتجميعاً. كما أن من شأن هذا العمل العلمي أن يشكل إضافة نوعية ويكوّن رصيдаً معرفياً، يعتبر بمثابة أرضية مشتركة تستثمر في بناء «علم مقاصد العقيدة»، وهذا اعتبره من التوصيات الهامة التي يمكنني أن أختم بها الموضوع.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

لائحة المصادر والمراجع

-المصحف الشريف برواية ورش عن نافع المدني.

أولاً: مؤلفات الإمام نخر الدين الرازي:

1. أساس التقديس في علم الكلام. تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، مؤسسة الكتب الثقافية.

بيروت- لبنان ط 1. 1415هـ/1995م.

1 نفس المصدر، ص: 253.

2. اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين. ومعه بحث في الصوفية والفرق الإسلامية للأستاذ الكبير فضيلة الشيخ مصطفى بك عبد الرزاق. مراجعة وتحرير: علي سامي النشار. دار الكتب العلمية. بيروت- لبنان. 1402 هـ/1982 م.
 3. شرح أسماء الله الحسنى. وهو الكتاب المسمى «لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات». راجعه وقدم له وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد. دار الكتاب العربي. بيروت. ط 1. 1404 هـ/1984 م.
 4. عجائب القرآن. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. دار الكتب الإسلامية. مطبعة حسان - القاهرة. ط 1. 1402 هـ/1982 م.
 5. محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين. وبذيله المحصل للعلامة نصير الدين الطوفي. راجعه وقدم له: طه عبد الرؤوف سعد. دار الكتاب العربي ط 1. 1404 هـ/1984 م.
 6. المسائل الخمسون في أصول الدين. تحقيق: د. أحمد حجازي السقا. دار الجليل - بيروت والمكتب الثقافي - القاهرة. ط 2. 1410 هـ/1990 م.
 7. المطالب العالية من العلم الإلهي. تحقيق: د. أحمد حجازي السقا. مطبعة الكليات الأزهرية. 1985 م.
 8. مفاتيح الغيب. أو «التفسير الكبير». دار الكتب العلمية بيروت - لبنان. ط 1. 1411 هـ/1990 م.
 9. من أسرار التنزيل. تحقيق د. عبد القادر أحمد عطا. مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة.
 10. مناظرات نخر الدين الرازي في بلاد ما وراء النهر. تحقيق: د. فتح الله خليف. دار المشرق - بيروت. م 1966.
- ثانيا: المصادر والمراجع العامة:
11. مقدمة ابن خلدون. دار الكتاب العربي. بيروت-لبنان. ط 5.
 12. الذات الإلهية عند نخر الدين الرازي. د. عمر التريكي. أطروحة لنيل دكتوراه. الشركة التونسية للتوزيع. تونس 1988 م.

ديولن العدد



بَلِّغْ رِسَالَةَ رَبِّي

شعر: عبد الكريم الوزاني
شاعر من فاس

- بَلِّغْ رِسَالَةَ رَبِّي كَيْ تَرَى عَجَبًا * وَأَجْزِلِ الشُّكْرَ رَهْوَاً وَاکْتَسِبْ أَدَبًا
وَأَصْلَحْ بِبَالِكَ قَصْداً أَنْتَ رَاغِبُهُ * وَأَنْشُرْ مَحَبَّتَهُ تُبْعِدُ بِهَا كُرْبًا
وَبُشًّا فِي رِحَابِ الصَّفْوِ غَادِقَةً * تُغْنِيكَ مَرْغَبَةَ الْغَاوِي وَمَا طَلَبًا
كَمَا تَكُونُ فَإِنَّ اللَّهَ ذُو كَرَمٍ * وَالْمَرْءُ أَغْرَاضُهُ شَتَّى وَمَا كَسَبًا
وَتَرْتَجِي النَّفْسُ الطَّافَاً لَهَا رُتَبٌ * وَمَا الْمُسِيبُ إِلَّا بَاعِثُ سَبَبًا
كَفَاكَ قَدْ جِئْتَ عَنْ غَيْبٍ وَعَنْ قَدَرٍ * وَكُنْتَ مَاءً فَصِرْتَ إِثْرُهُ نَسَبًا
فَاحْلُلْ بِرُوحِكَ فِي كُنْهِ الصَّفَاءِ تَجِدْ * رِضَاءَ رَبِّكَ سِرّاً يَخْتَرِقُ حُجْبًا
لَا تَتَّبِعْ خُطْوَةَ الشَّيْطَانِ فِي بَلَهٍ * يُغْرِيكَ ثُمَّ يَدِيرُ ظَهْرَهُ هَرَبًا
إِذَا تَبَاهَتْ بِكَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا * فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مَا تُجْزِلُ بِهِ أَرْبَا
أَدْرِكَ مَفَاتِيحَهَا تُدْرِكُ مَنَازِلَهَا * وَأَنْصِبْ تُصِيبُ أَمْلاً تُرْزَقُ بِهِ حَدَبًا
إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ مُقْتَدِراً * لَجَاعِلٌ لَكَ مِنْ رَصْدِ الْعَطَا دُرَبًا

خير الورى

شعر نبيلة حماني

شاعرة من فاس

- | | | |
|------------------------------------|---|--------------------------------|
| بالقبة الخضراء قد شَفَّ الندى | * | وانداحَ فيض من شذاك محمدًا |
| العينُ فاضت أدمعًا من لهفةٍ | * | والروحُ في فرجٍ لما فيها شدا |
| والفجرُ ضاء بوعده في ظلمتي | * | والصبحُ من نور النبيّ تزودا |
| القلبُ أنّ الوجدُ فيه تشوقًا | * | إنّي بأرض الوحي زرتك أحدا |
| أرنو إلى نور المحيّا عاكفًا | * | من منبع المختار أرجو موردا |
| ها قد غدا النورُ امتدادًا في العلا | * | والحلمُ في أفياء نبضي غردًا |
| والزهرُ فاح أريجُه ونقاؤه | * | والريحُ ساقت من شذاه تفرّدًا |
| هذا أبو الزهراء هلّ ببرده | * | شهما عفيفا بل وكان الأجودا |
| كلّ البرايا أقبلت بمحبةٍ | * | فامدّدْ يديك بما يُروّي من صدى |
| وأنا التي تشكو ظلامًا حالكا | * | غشيّ العيونَ وللجفون ترصدًا |
| دُهِسَ الكسِيرُ كما غصونٍ سامها | * | ظمأً ونارُ جمرها قد اوقدا |

وبكى الجريحُ فلا غفتُ عينٌ ولا	*	غيرُ المتاعبِ سامهُ منها الردى
أغفو وفي جفن اللّالي دمعَةٌ	*	حرى تقولُ الودُ فينا صُفدا
فامدُّ يدك بما يزيحُ مواجعاً	*	فلقد عرفناك البشير المرشدا
ونريدُك الباقي خلوداً بالفضا	*	ئلِ راعياً يشفي سقامَ منِ اعتدى
ها قد دنا من روضنا خيرُ الورى	*	يهدي السّلامَ ويبتني صرح الهدى
إنّني ببابك سيّدي قد جئتُه	*	أرجو من الحوض المريئ تزوداً
بالقبة الخضراء قد مدّ السّنا	*	وانهالَ من عليائه متجددا



افتتاحية العدد	5
ملف العدد	7
تسديد التبليغ وتحقيق الرشد في الدين	9
ذ. سعيد بومي	
رئيس المجلس العلمي المحلي لعمالة مقاطعة الحي الحسني	
البلاغ السديد شروطه ومقتضياته	21
ذ. إدريس ابن الضاوية	
رئيس المجلس العلمي المحلي للعرائش	
تبليغ الدين في الثقافة الرسالية المفاهيم والمقتضيات والأبعاد	29
ذ. محمد بنكيران	
رئيس المجلس العلمي المحلي للفحص أنجرة	
معالم البلاغ النبوي في تربية الشباب	39
ذ. المصطفى زميني	
رئيس المجلس العلمي الجهوي لجهة بني ملال- خنيفرة	
أسس تبليغ الدين لما ينفع المسلمين	47
ذ. حدوأموني	
عضو المجلس العلمي المحلي لإقليم مولاي يعقوب	
مناهج التبليغ في القرآن الكريم - منهج الثنائيات أنموذجا -	59
ذ. محمد الأطرش	
عضو المجلس العلمي المحلي لإقليم مولاي يعقوب	
أثر مشروع خطة تسديد التبليغ في تخليق الحياة العامة	77
ذ. عبد الحميد ازميز	
إمام مرشد بالمجلس العلمي المحلي لأزيلال	
تسديد التبليغ وبيان مقاصد الاستخلاف	93
ذ. سعاد رحائم	
عضو المجلس العلمي الأعلى	

105	خطة تسديد التبليغ: الأهداف والمقاصد ذ. ابراهيم الوافي
111	رئيس المجلس العلمي المحلي لإتزان آيت ملول سبل تبليغ الدين لما ينفع الناس في البلدان الإفريقية ذ. رقية أحمد منيه
127	عضو فرع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة بالجمهورية الإسلامية الموريتانية مقاصد الإيمان بالله عز وجل عند الإمام نضر الدين الرازي ذة. يامنة هموري
153	باحثة في الدراسات الإسلامية- الرباط ديوان العدد

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.

- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- التقيد التام بكتابة الآيات القرآنية وفق المصحف المحمدي.
- الاعتناء التام بعلامات الترقيم، والالتزام بالقواعد المتعارف عليها في تحرير البحوث والمقالات.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.

- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وصفته وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.

- البريد الإلكتروني هو: daawatalhak@mhai.gov.ma

- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.

- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- تصنيف البحث أو المقال وتنسيقه وتنسيقاً جيداً.
- هوامش التوثيق والإحالات والمصادر والمراجع تدرج في أسفل الصفحات وليس في آخر البحث أو المقال.

- يكتب البحث أو المقال بخط Simplified Arabic مع التقيد بالمقاسات الآتية: 14 في النص، و10 في الهامش، و 01 ما بين السطور.

محور العدد المقبل

تختبر هيئة تحرير مجلة دعوة الحق أن موضوع العدد المقبل هو: **ترشيح استهلاك الماء في الفقه الإسلامي**

